# سورة الحديد

## وهي تسع وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: التسبيح: تبعيد الله تعالى من السوء، وكذا التقديس من سبح في الماء وقدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد.

واعلم أن التسبيح عن السوء يدخل فيه تبعيد الذات عن السوء، وتبعيد الصفات وتبعيد الأفعال، وتبعيد الأسماء وتبعيد الأحكام، أما في الذات: فأن لا تكون محلاً للإمكان، فإن السوء هو العدم وإمكانه، ثم نفي الإمكان يستلزم نفي الكثرة، ونفيها يستلزم نفي الجسمية والعرضية، ونفي الضد والند وحصول الوحدة المطلقة. وأما في الصفات: فأن يكون منزهًا عن الجهل بأن يكون محيطًا بكل المعلومات، ويكون قادرًا على كل المقدورات، وتكون صفاته منزهة عن التغيرات. وأما في الأفعال: فأن تكون فاعليته موقوفة على مادة ومثال، لأن كل مادة ومثال فهو فعله، لما بينا أن كل ما عداه فهو ممكن، وكل ممكن فهو فعله، فلو افتقرت فاعليته إلى مادة ومثال، لزم التسلسل، وغير موقوفة على زمان ومكان، لأن كل زمان فهو مركب من أجزاء منقضية، فيكون ممكنًا، كل مكان فهو يعد ممكنًا مركبًا من أفراد الأحياز، فيكون كل واحد منهما ممكنًا ومحدثًا، فلو افتقرت فاعليته إلى زمان وإلى مكان، لافتقرت فاعلية الزمان والمكان إلى زمان ومكان، فيلزم التسلسل، وغير موقوفة على جلب منفعة، ولا دفع مضرة، وإلا لكان مستكملاً بغيره ناقصًا في ذاته، وذلك محال. وأما في الأسماء: فكما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨]. وأما في الأحكام: فهو أن كل ما شرعه فهو مصلحة وإحسان وخير، وأن كونه فضلاً وخيرًا ليس على سبيل الوجوب عليه، بل على سبيل الإحسان، وبالجملة يجب أن يعلم من هذا الباب أن حكمه وتكليفه لازم لكل أحد، وأنه ليس لأحد عليه حكم ولا تكليف ولا يجب لأحد عليه شيء أصلاً، فهذا هو ضبط معاقد التسبيح.

**المسألة الثانية**: جاء في بعض الفواتح ﴿سَبَّحَ﴾ على لفظ الماضي، وفي بعضها على لفظ المضارع، وذلك إشارة إلى أن كون هذه الأشياء مسبحة غير مختص بوقت دون وقت، بل هي كانت مسبحة أبدًا في الماضي، وتكون مسبحة أبدًا في المستقبل، وذلك لأن كونها مسبحة صفة

لازمة لماهياتها، فيستحيل انفكاك تلك الماهيات عن ذلك التسبيح، وإنما قلنا: إن هذه المسبحية صفة لازمة لماهياتها، لأن كل ما عدا الواجب ممكن، وكل ممكن فهو مفتقر إلى الواجب، وكون الواجب واجبًا يقتضي تنزيهه عن كل سوء في الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء على ما بيناه، فظهر أن هذه المسبحية كانت حاصلة في الماضي، وتكون حاصلة في المستقبل، والله أعلم.

**المسألة الثالثة:** هذا الفعل تارة عدي باللام كما في هذه السورة، وأخرى بنفسه كما في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الفتح: ٩] وأصله التعدي بنفسه، لأن معنى سبحته أي بعدته عن السوء، فاللام إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له، وإما أن يراد بـ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أحدث التسبيح لأجل الله وخالصًا لوجهه.

**المسألة الرابعة:** زعم الزجاج أن المراد بهذا التسبيح، التسبيح الذي هو القول، واحتج عليه بوجهين: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤] فلو كان المراد من التسبيح، هو دلالة آثار الصنع على الصانع لكانوا يفقهونه، الثاني: أنه تعالى قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾[الأنبياء: ٧٩] فلو كان تسبيحًا عبارة عن دلالة الصنع على الصانع لما كان في ذلك تخصيص لداود عليه السلام. واعلم أن هذا الكلام ضعيف (لحجتين):

**أما الأولى:** فلأن دلالة هذه الأجسام على تنزيه ذات الله وصفاته وأفعاله من أدق الوجوه، ولذلك فإن العقلاء اختلفوا فيها، فقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ لعله إشارة إلى أقوام جهلوا بهذه الدلالة، وأيضًا فقوله: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ إشارة إن لم يكن إشارة إلى جمع معين، فهو خطاب مع الكل فكأنه قال: كل هؤلاء ما فقهوا ذلك، وذلك لا ينافي أن يفقهه بعضهم.

**وأما الحجة الثانية:** فضعيفة، لأن هناك من المحتمل أن الله خلق حياة في الجبل حتى نطق بالتسبيح. أما هذه الجمادات التي تعلم بالضرورة أنها جمادات يستحيل أن يقال: إنها تسبح الله على سبيل النطق بذلك التسبيح، إذ لو جوزنا صدور الفعل المحكم عن الجمادات لما أمكننا أن نستدل بأفعال الله تعالى على كونه عالمًا حيًا، وذلك كفر، بل الحق أن التسبيح الذي هو القول لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى، فينوي بذلك القول تنزيه ربه سبحانه، ومثل ذلك لا يصح من الجمادات، فإذًا التسبيح العام الحاصل من العاقل والجماد لا بد وأن يكون مفسرًا بأحد وجهين: الأول: أنها تسبح بمعنى أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه، والثاني: أن الممكنات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يريد ليس له عن فعله وتكوينه مانع ولا دافع، إذا عرفت هذه المقدمة، فنقول: إن حملنا التسبيح المذكور في الآية على التسبيح بالقول، كان المراد بقوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من في السموات ومنهم حملة العرش: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ﴾[فصلت: ٣٨] ومنهم المقربون: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾[سبأ: ٤١] ومن سائر الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾[الفرقان: ١٨] وأما المسبحون الذين هم في الأرض فمنهم

الأنبياء كما قال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقال موسى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] والصحابة يسبحون كما قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وأما إن حملنا هذا التسبيح على التسبيح المعنوي فأجزاء السموات وذرات الأرض والجبال والرمال والبحار والشجر والدواب والجنة والنار والعرش والكرسي واللوح والقلم والنور والظلمة والذوات والصفات والأجسام والأعراض كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال الله منقادة لتصرف الله كما قال عز من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذا التسبيح هو المراد بالسجود في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٤٩] أما قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالمعنى أنه القادر الذي لا ينازعه شيء، فهو إشارة إلى كمال القدرة، والحكيم إشارة إلى أنه العالم الذي لا يحتجب عن علمه شيء من الجزئيات والكليات أو أنه الذي يفعل أفعاله على وفق الحكمة والصواب، ولما كان العلم بكونه قادرًا متقدمًا على العلم بكونه عالمًا لا جرم قدم العزيز على الحكيم في الذكر.

**واعلم أن قوله:** ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يدل على أن العزيز ليس إلا هو؛ لأن هذه الصيغة تفيد الحصر، يقال: زيد هو العالم لا غيره، فهذا يقتضي أنه لا إله إلا الواحد، لأن غيره ليس بعزيز ولا حكيم ومالا يكون كذلك لا يكون إلهًا.

## قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾

واعلم أن الملك الحق هو الذي يستغني في ذاته، وفي جميع صفاته عن كل ما عداه، ويحتاج كل ما عداه إليه في ذواتهم وفي صفاتهم، والموصوف بهذين الأمرين ليس إلا هو سبحانه. أما أنه مستغن في ذاته وفي جميع صفاته عن كل ما عداه فلأنه لو افتقر في ذاته إلى الغير لكان ممكنًا لذاته فكان محدثًا، فلم يكن واجب الوجود، وأما أنه مستغن في جميع صفاته السلبية والإضافية عن كل ما عداه، فلأن كل ما يفرض صفة له، فإما أن تكون هويته سبحانه كافية في تحقق تلك الصفة سواء كانت الصفة سلبًا أو إيجابًا أو لا تكون كافية في ذلك، فإن كانت هويته كافية في ذلك لزم من دوام تلك الهوية دوام تلك الصفة سلبًا كانت الصفة أو إيجابًا، وإن لم تكن تلك الهوية كافية، فحينئذ تكون تلك الهوية ممتنعة الانفكاك عن ثبوت تلك الصفة وعن سلبها، ثم ثبوت تلك الصفة وسلبها، يكون متوقفًا على ثبوت أمر آخر وسلبه، والموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء، فهويته سبحانه تكون موقوفة التحقق على تحقق علة ثبوت تلك الصفة أو علة سلبها، والموقوف على الغير ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته، وهذا خلف، فثبت أنه سبحانه غير مفتقر لا في ذاته، ولا في شيء من صفاته السلبية ولا الثبوتية إلى غيره، وأما أن كل ما عداه مفتقر إليه فلأن كل ما عداه ممكن، لأن واجب الوجود لا يكون أكثر من واحد والممكن لا بد له من مؤثر، ولا واجب إلا هذا الواحد فإذن كل ما عداه فهو مفتقر

إليه سواء كان جوهرًا أو عرضًا، وسواء كان الجوهر روحانيًّا أو جسمانيًّا، وذهب جمع من العقلاء إلى أن تأثير واجب الوجود في إعطاء الوجود لا في الماهيات فواجب الوجود يجعل السواد موجودًا، أما أنه يستحيل أن يجعل السواد سوادًا، قالوا: لأنه لو كان كون السواد سوادًا بالفاعل، لكان يلزم من فرض عدم ذلك الفاعل أن لا يبقى السواد سوادًا وهذا محال، فيقال لهم: يلزمكم على هذا التقدير أن لا يكون الوجود أيضًا بالفاعل، وإلا لزم من فرض عدم ذلك الفاعل أن لا يكون الوجود وجودًا، فإن قالوا: تأثير الفاعل ليس في الوجود بل في جعل الماهية موصوفة بالوجود، قلنا: هذا مدفوع من وجهين: الأول: أن موصوفية الماهية بالوجود ليس أمرًا ثبوتيًّا، إذ لو كان أمرًا ثبوتيًّا لكانت له ماهية ووجود، فحينئذ تكون موصوفية تلك الماهية بالوجود زائدة عليه ولزم التسلسل وهو محال، وإذا كان موصوفية الماهية بالوجوه ليس أمرًا ثبوتيًّا، استحال أن يقال: لا تأثير للفاعل في الماهية ولا في الوجود بل تأثيره في موصوفية الماهية بالوجود، الثاني: أن بتقدير أن تكون تلك الموصوفية أمرًا ثبوتيًّا، استحال أيضًا جعلها أثرًا للفاعل، وإلا لزم عند فرض عدم ذلك الفاعل أن تبقى الموصوفية موصوفية، فظهر أن الشبهة التي ذكروها لو تمت واستقرت يلزم نفي التأثير والمؤثر أصلاً، بل كما أن الماهيات إنما صارت موجودة بتأثير واجب الوجود، فكذا أيضًا الماهيات إنما صارت ماهيات بتأثير واجب الوجود، وإذا لاحت هذه الحقائق ظهر بالبرهان العقلي صدق قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بل ملك السموات والأرض بالنسبة إلى كمال ملكه أقل من الذرة، بل لا نسبة له إلى كمال ملكه أصلاً، لأن ملك السموات والأرض ملك متناه، وكمال ملكه غير متناه، والمتناهي لا نسبة له ألبتة إلى غير المتناهي، لكنه سبحانه وتعالى ذكر ملك السموات والأرض لأنه شيء مشاهد محسوس، وأكثر الخلق عقولهم ضعيفة قلما يمكنهم الترقي من المحسوس إلى المعقول.

ثم إنه سبحانه لما ذكر من دلائل الآفاق ملك السموات والأرض ذكر بعده دلائل الأنفس فقال: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى**: ذكر المفسرون فيه وجهين: أحدهما: يحيي الأموات للبعث، ويميت الأحياء في الدنيا، والثاني: قال الزجاج: يحيي النطف فيجعلها أشخاصًا عقلاء فاهمين ناطقين، ويميت، وعندي فيه وجه ثالث وهو أنه ليس المراد من تخصيص الإحياء والإماتة بزمان معين وبأشخاص معينين، بل معناه أنه هو القادر على خلق الحياة والموت، كما قال في سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] والمقصود منه كونه سبحانه هو المنفرد بإيجاد هاتين الماهيتين على الإطلاق، لا يمنعه عنهما مانع ولا يرده عنهما راد، وحينئذ يدخل فيه الوجهان اللذان ذكرهما المفسرون.

**المسألة الثانية**: موضع ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ رفع على معنى هو يحيي ويميت، ويجوز أن يكون

نصبًا على معنى: له ملك السموات والأرض حال كونه محييًا ومميتًا. واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل الآفاق أولاً: ودلائل الأنفس ثانيًا: ذكر لفظًا يتناول الكل فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفوائد هذه الآية مذكورة في أول سورة الملك.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال في تفسير هذه الآية: «**إِنَّهُ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ وَالْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ**»[1] واعلم أن هذا المقام مقام مهيب غامض عميق والبحث فيه من وجوه: الأول: أن تقدم الشيء على الشيء يعقل على وجوه: أحدها: التقدم بالتأثير فإنا نعقل أن لحركة الأصبع تقدمًا على حركة الخاتم، والمراد من هذا التقدم كون المتقدم مؤثرًا في المتأخر، وثانيها: التقدم بالحاجة لا بالتأثير، لأنا نعقل احتياج الاثنين إلى الواحد وإن كنا نعلم أن الواحد ليس علة للاثنين، وثالثها: التقدم بالشرف كتقدم أبي بكر على عمر، ورابعها: التقدم بالرتبة، وهو إما من مبدأ محسوس كتقدم الإمام على المأموم، أو من مبدأ معقول، وذلك كما إذا جعلنا المبدأ هو الجنس العالي، فإنه كلما كان النوع أشد تسفلاً كان أشد تأخرًا، ولو قلبناه انقلب الأمر، وخامسها: التقدم بالزمان، وهو أن الموجود في الزمان المتقدم، متقدم على الموجود في الزمان المتأخر، فهذا ما حصله أرباب العقول من أقسام القبلية والتقدم وعندي أن هاهنا قسمًا سادسًا، وهو مثل تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض، فإن ذلك التقدم ليس تقدمًا بالزمان، وإلا وجب أن يكون الزمان محيطًا بزمان آخر، ثم الكلام في ذلك المحيط كالكلام في المحاط به، فيلزم أن يحيط بكل زمان زمان آخر لا إلى نهاية بحيث تكون كلها حاضرة في هذا الآن، فلا يكون هذا الآن الحاضر واحدًا، بل يكون كل حاضر في حاضر آخر لا إلى نهاية وذلك غير معقول، وأيضًا فلأن مجموع تلك الآنات الحاضرة متأخر عن مجموع الآنات الماضية، فلمجموع الأزمنة زمان آخر محيط بها لكن ذلك محال، لأنه لما كان زمانًا كان داخلاً في مجموع الأزمنة، فإذًا ذلك الزمان داخل في ذلك المجموع وخارج عنه وهو محال، فظهر بهذا البرهان الظاهر أن تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض ليس بالزمان، وظاهر أنه ليس بالعلة ولا بالحاجة، وإلا لوجدا معًا، كما أن العلة والمعلول يوجدان معًا، والواحد والاثنين يوجدان معًا، وليس أيضًا بالشرف ولا بالمكان، فثبت أن تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض قسم سادس غير الأقسام الخمسة المذكورة، وإذا عرفت هذا فنقول: إن القرآن دل على أنه تعالى أول لكل ما عداه، والبرهان دل أيضًا على هذا المعنى، لأنا نقول: كل ما عدا الواجب ممكن، وكل ممكن محدث، فكل ما عدا الواجب فهو محدث، وذلك الواجب أول لكل ما عداه، إنما قلنا: أن ما عدا الواجب ممكن، لأنه لو وجد

(١) لم أجده.

شيئان واجبان لذاتهما لاشتركا في الواجب الذاتي، ولتباينا بالتعين وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فيكون كل واحد منهما مركبًا، ثم كل واحد من جزأيه إن كان واجبًا فقد اشترك الجزآن في الوجوب وتباينا بالخصوصية، فيكون كل واحد من ذينك الجزأين أيضًا مركبًا ولزم التسلسل، وإن لم يكونا واجبين أو لم يكن أحدهما واجبًا، كان الكل المتقوم به أولى بأن لا يكون واجبًا، فثبت أن كل ما عدا الواجب ممكن، وكل ممكن محدث، لأن كل ممكن مفتقر إلى المؤثر، وذلك الافتقار إما حال الوجود أو حال العدم، فإذًا كان حال الوجود، فإما حال البقاء وهو محال لأنه يقتضي إيجاد الموجود وتحصيل الحاصل وهو محال، فإن تلك الحاجة إما حال الحدوث أو حال العدم، وعلى التقديرين فيلزم أن يكون كل ممكن محدثًا، فثبت أن كل ما عدا ذلك الواجب فهو محدث محتاج إلى ذلك الواجب، فإذًا ذلك الواجب يكون قبل كل ما عداه، ثم طلب العقل كيفية تلك القبلية فقلنا: لا يجوز أن تكون تلك القبلية بالتأثير، لأن المؤثر من حيث هو مؤثر مضاف إلى الأثر من حيث هو أثر والمضافان معًا، والمع لا يكون قبل، ولا يجوز أن تكون لمجرد الحاجة لأن المحتاج والمحتاج إليه لا يمتنع أن يوجدا معًا، وقد بينا أن تلك المعية هاهنا ممتنعة، ولا يجوز أن تكون لمحض الشرف فإنه ليس المطلوب من هذه القبلية هاهنا مجرد أنه تعالى أشرف من الممكنات، وأما القبلية المكانية فباطلة، وبتقدير ثبوتها فتقدم المحدث على المحدث أمر زائد آخر وراء كون أحدهما فوق الآخر بالجهة، وأما التقدم الزماني فباطل، لأن الزمان أيضًا ممكن ومحدث، أما أولاً فلما بينا أن واجب الوجود لا يكون أكثر من واحد، وأما ثانيًا فلأن أمارة الإمكان والحدوث فيه أظهر كما في غيره لأن جميع أجزائه متعاقبة، وكل ما وجد بعد العدم وعدم بعد الوجود فلا شك أنه ممكن المحدث، وإذا كان جميع أجزاء الزمان ممكنًا ومحدثًا والكل متقوم بالأجزاء فالمفتقر إلى الممكن المحدث أولى بالإمكان والحدوث، فإذن الزمان بمجموعه وبأجزائه ممكن ومحدث، فتقدم موجده عليه لا يكون بالزمان، لأن المتقدم على جميع الأزمنة لا يكون بالزمان، وإلا فيلزم في ذلك الزمان أن يكون داخلاً في مجموع الأزمنة لأنه زمان، وأن يكون خارجًا عنها لأنه ظرفها، والظرف مغاير للمظروف لا محال، لكن كون الشيء الواحد داخلاً في شيء وخارجًا عنه محال، وأما ثالثًا فلأن الزمان ماهيته تقتضي السيلان والتجدد، وذلك يقتضي المسبوقية بالغير والأزل ينافي المسبوقية بالغير، فالجمع بينهما محال، فثبت أن تقدم الصانع على كل ما عداه ليس بالزمان ألبتة، فإذن الذي عند العقل أنه متقدم على كل ما عداه، أنه ليس ذلك التقدم على أحد هذه الوجوه الخمسة، فبقي أنه نوع آخر من التقدم يغاير هذه الأقسام الخمسة، فأما كيفية ذلك التقدم فليس عند العقل منها خبر، لأن كل ما يخطر ببال العقل فإنه لا بد وأن يقترن به حال من الزمان، وقد دل الدليل على أن كل ذلك محال، فإذن كونه تعالى أولاً معلوم على سبيل الإجمال، فأما على سبيل التفصيل والإحاطة بحقيقة تلك الأولية، فليس عند عقول الخلق منه أثر.

**النوع الثاني:** من غوامض هذا الموضع، وهو أن الأزل متقدم على اللا يزال، وليس الأزل شيئًا سوى الحق، فتقدم الأزل على اللا يزال، يستدعي الامتياز بين الأزل وبين اللا يزال، فهذا يقتضي أن يكون اللا يزال له مبدأ وطرف، حتى يحصل هذا الامتياز، لكن فرض هذا الطرف محال، لأن كل مبدأ فرضته، فإن اللايزال كان حاصلاً قبله، لأن المبدأ الذي يفرض قبل ذلك الطرف المفروض بزيادة مائة سنة، يكون من جملة اللايزال، لا من جملة الأزل، فقد كان معنى اللايزال موجودًا قبل أن كان موجودًا وذلك محال.

**النوع الثالث:** من غوامض هذا الموضع، أن امتياز الأزل عن اللا يزال، يستدعي انقضاء حقيقة الأزل، وانقضاء حقيقة الأزل محال، لأن مالا أول له يمتنع انقضاؤه، وإذا امتنع انقضاؤه امتنع أن يحصل عقيبه ماهية اللا يزال، فإذن يمتنع امتياز الأزل عن اللا يزال، وامتياز اللا يزال عن الأزل، وإذا امتنع حصول هذا الامتياز امتنع حصول التقدم والتأخر، فهذه أبحاث غامضة في حقيقة التقدم والأولية والأزلية، وما هي إلا بسبب حيرة العقول البشرية في نور جلال ماهية الأزلية والأولية، فإن العقل إنما يعرف الشيء إذا أحاط به، وكل ما استحضره العقل، ووقف عليه فذاك يصيِّر محاطًا به، والمحاط يكون متناهيًا، والأزلية تكون خارجة عنه، فهو سبحانه ظاهر باطن في كونه أولاً، لأن العقول شاهدة بإسناد المحدثات إلى موجد متقدم عليها فكونه تعالى أولاً أظهر من كل ظاهر من هذه الجهة، ثم إذا أردت أن تعرف حقيقة تلك الأولية عجزت لأن كل ما أحاط به عقلك وعلمك فهو محدود عقلك ومحاط علمك فيكون متناهيًا، فتكون الأولية خارجة عنا، فكونه تعالى أولاً إذا اعتبرته من هذه الجهة كان أبطن من كل باطن، فهذا هو البحث عن كونه تعالى أولاً.

أما البحث عن كونه آخرًا، فمن الناس من قال: هذا محال، لأنه تعالى إنما يكون آخر الكل ما عداه، لو بقي هو مع عدم كل ما عداه لكن عدم ما عداه إنما يكون بعد وجوده، وتلك البعدية، زمانية، فإذن لا يمكن فرض عدم كل عداه إلا مع وجود الزمان الذي به تتحقق تلك البعدية، فإذن حال ما فرض عدم كل ما عداه، أن لا يعدم كل ما عداه، فهذا خلف، فإذن فرض بقائه مع عدم كل ما عداه محال، وهذه الشبهة مبنية أيضًا على أن التقدم والتأخر لا يتقرران إلا بالزمان، وقد دللنا على فساد هذه المقدمة فبطلت هذه الشبهة، وأما الذين سلموا إمكان عدم كل ما عداه مع بقائه، فمنهم من أوجب ذلك حتى يتقرر كونه تعالى آخرًا للكل، وهذا مذهب جهم، فإنه زعم أنه سبحانه يوصل الثواب إلى أهل الثواب، ويوصل العقاب إلى أهل العقاب، ثم يفني الجنة وأهلها، والنار وأهلها، والعرش والكرسي والملك والفلك، ولا يبقى مع الله شيء أصلاً، فكما أنه كان موجودًا في الأزل ولا شيء يبقى موجودًا في اللا يزال أبد الآباد ولا شيء، واحتج عليه بوجوه أولها: قوله هو الآخر، يكون آخرًا إلا عند فناء الكل، وثانيها: أنه تعالى إما أن يكون عالمًا بعدد حركات أهل الجنة والنار، أو لا يكون عالمًا بها، فإن كان عالمًا بها كان

عالمًا بكميتها، وكل ماله عدد معين فهو متناهٍ، فإذن حركات أهل الجنة متناهية، فإذن لا بد وأن يحصل بعدها عدم أبدي غير منقض وإذا لم يكن عالمًا بها كان جاهلاً بها والجهل على الله محال، وثالثها: أن الحوادث المستقبلة قابلة للزيادة والنقصان، وكل ما كان كذلك فهو مُتناهٍ والجواب: أن إمكان استمرار هذه الأشياء حاصل إلى الأبد، والدليل عليه هو أن هذه الماهيات لو زالت إمكاناتها، لزم أن ينقلب الممكن لذاته ممتنعًا لذاته، ولو انقلبت قدرة الله من صلاحية التأثير إلى امتناع التأثير، لانقلبت الماهيات وذلك محال، فوجب أن يبقى هذا الإمكان أبدًا، فإذن ثبت أنه يجب انتهاء هذه المحدثات إلى العدم الصرف، أما التمسك بالآية فسنذكر الجواب عنه بعد ذلك إن شاء الله تعالى، وأما الشبهة الثانية: فجوابها أنه يعلم أنه ليس لها عدد معين، وهذا لا يكون جهلاً، إنما الجهل أن يكون له عدد معين ولا يعلمه، أما إذا لم يكن له عدد معين وأنت تعلمه على الوجه فهذا لا يكون جهلاً بل علمًا، وأما الشبهة الثالثة: فجوابها أن الخارج منه إلى الوجود أبدًا لا يكون متناهيًا، ثم إن المتكلمين لما أثبتوا إمكان بقاء العالم أبدًا عولوا في بقاء الجنة والنار أبدًا على إجماع المسلمين وظواهر الآيات، ولا يخفى تقريرها، وأما جمهور المسلمين الذين سلموا بقاء الجنة والنار أبدًا، فقد اختلفوا في معنى كونه تعالى آخرًا على وجوه أحدها: أنه تعالى يفني جميع العالم والممكنات فيتحقق كونه آخرًا، ثم إنه يوجدها ويبقيها أبدًا، وثانيها: أن الموجود الذي يصح في العقل أن يكون آخرًا لكل الأشياء ليس إلا هو، فلما كانت صحة آخرية كل الأشياء مختصة به سبحانه، لا جرم وُصِف بكونه آخرًا، وثالثها: أن الوجود منه تعالى يبتدئ، ولا يزال ينزل وينزل حتى ينتهي إلى الموجود الأخير، الذي يكون هو مسببًا لكل ما عداه، ولا يكون سببًا لشيء آخر، فبهذا الاعتبار يكون الحق سبحانه أولاً، ثم إذا انتهى أخذ يترقى من هذا الموجود الأخير درجة فدرجة حتى ينتهي إلى آخر الترقي، فهناك وجود الحق سبحانه، فهو سبحانه أول في نزول الوجود منه إلى الممكنات، آخر عند الصعود من الممكنات إليه، ورابعها: أنه يميت الخلق ويبقى بعدهم، فهو سبحانه آخر بهذا الاعتبار، وخامسها: أنه أول في الوجود وآخر في الاستدلال، لأن المقصود من جميع الاستدلالات معرفة الصانع، وأما سائر الاستدلالات التي لا يراد منها معرفة الصانع فهي حقيرة خسيسة، أما كونه تعالى ظاهرًا وباطنًا، فاعلم أنه ظاهر بحسب الوجود، فإنك لا ترى شيئًا من الكائنات والممكنات إلا ويكون دليلاً على وجوده وثبوته وحقيقته وبراءته عن جهات التغير على ما قررناه، وأما كونه تعالى باطنًا فمن وجوه، الأول: أن كمال كونه ظاهرًا سبب لكونه باطنًا، فإن هذه الشمس لو دامت على الفلك لما كنا نعرف أن هذا الضوء إنما حصل بسببها، بل ربما كنا نظن أن الأشياء مضيئة لذواتها إلا أنها لما كانت بحيث تغرب ثم ترى أنها متى غربت أبطلت الأنوار وزالت الأضواء عن هذا العالم، علمنا حينئذ أن هذه الأضواء من الشمس، فهاهنا لو أمكن انقطاع جود الله عن هذه الممكنات لظهر حينئذ أن وجود هذه الممكنات من وجود الله تعالى، لكنه لما دام ذلك الجود

ولم ينقطع صار دوامه وكماله سببًا لوقوع الشبهة، حتى إنه ربما يظن أن نور الوجود ليس منه بل وجود كل شيء له من ذاته، فظهر أن هذا الاستتار إنما وقع من كمال وجوده، ومن دوام جوده، فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره، واحتجب عنها بكمال نوره.

**الوجه الثاني:** أن ماهيته غير معقولة للبشر ألبتة، ويدل عليه أن الإنسان لا يتصور ماهية الشيء إلا إذا أدركه من نفسه على سبيل الوجدان كالألم واللذة وغيرهما أو أدركه بحسه كالألوان والطعوم وسائر المحسوسات، فأما مالا يكون كذلك فيتعذر على الإنسان أن يتصور ماهيته ألبتة، وهويته المخصوصة جل جلاله ليست كذلك فلا تكون معقولة للبشر، ويدل عليه أيضًا أن المعلوم منه عند الخلق، إما الوجود وإما السلوب، وهو أنه ليس بجسم ولا جوهر، وإما الإضافة، وهو أنه الأمر الذي من شأنه كذا وكذا، والحقيقة المخصوصة مغايرة لهذه الأمور فهي غير معقولة ويدل عليه أن أظهر الأشياء منه عند العقل كونه خالقًا لهذه المخلوقات، ومتقدمًا عليها، وقد عرفت حيرة العقل ودهشته في معرفة هذه الأولية، فقد ظهر بما قدمناه أنه سبحانه هو الأول وهو الآخر، وهو الظاهر وهو الباطن، وسمعت والدي رحمه الله يقول: إنه كان يروى أنه لما نزلت هذه الآية أقبل المشركون نحو البيت وسجدوا.

المسألة الثانية: احتج كثير من العلماء في إثبات أن الإله واحد بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قالوا الأول هو الفرد السابق، ولهذا المعنى لو قال: أول مملوك اشتريته فهو حر، ثم اشترى عبدين لم يعتقا، لأن شرط كونه أولاً حصول الفردية، وهاهنا لم تحصل، فلو اشترى بعد ذلك عبدًا واحدًا لم يعتق، لأن شرط الأولية كونه سابقًا وهاهنا لم يحصل، فثبت أن الشرط في كونه أولاً أن يكون فردًا، فكانت الآية دالة على أن صانع العالم فرد.

المسألة الثالثة: أكثر المفسرين قالوا: إنه أول لأنه قبل كل شيء، وإنه آخر لأنه بعد كل شيء، وإنه ظاهر بحسب الدلائل، وإنه باطن عن الحواس محتجب عن الأبصار، وأن جماعة لما عجزوا عن جواب جهم قالوا: معنى هذه الألفاظ مثل قول القائل: فلان هو أول هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه، أي عليه يدور، وبه يتم.

واعلم أنه لما أمكن حمل الآية على الوجوه التي ذكرناها مع أنه يسقط بها استدلال جهم لم يكن بنا إلى حمل الآية على هذا المجاز حاجة، وذكروا في الظاهر والباطن أن الظاهر هو الغالب العالي على كل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] أي غالبين عالين، من قولك: ظهرت على فلان أي علوته، ومنه قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] وهذا معنى ما روى في الحديث: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ» وأما الباطن فقال الزجاج: إنه العالم بما بطن، كما يقول القائل: فلان يبطن أمر فلان، أي يعلم أحواله الباطنة قال الليث: يقال: أنت أبطن بهذا الأمر من فلان، أي أخبر بباطنه، فمعنى كونه باطنًا، كونه عالمًا ببواطن الأمور، وهذا التفسير عندي فيه نظر، لأن قوله بعد ذلك: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يكون تكرارًا. أما على التفسير

الأول فإنه يحسن موقعه لأنه يصير التقدير كأنه قيل: إن أحدًا لا يحيط به ولا يصل إلى أسراره، وإنه لا يخفى عليه شيء من أحوال غيره، ونظيره ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④﴾

**قوله تعالى:** ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهو مفسر في الأعراف والمقصود منه دلائل القدرة.

**ثم قال تعالى:** ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ وهو مفسر في سبأ، والمقصود منه كمال العلم، وإنما قدم وصف القدرة على وصف العلم، لأن العلم بكونه تعالى قادرًا قبل العلم بكونه تعالى عالمًا، ولذلك ذهب جمع من المحققين إلى أن أول العلم بالله، هو العلم بكونه قادرًا، وذهب آخرون إلى أن أول العلم بالله هو العلم بكونه مؤثرًا، وعلى التقديرين فالعلم بكونه قادرًا متقدم على العلم بكونه عالمًا.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** اعلم أنه قد ثبت أن كل ما عدا الواجب الحق فهو ممكن، وكل ممكن فوجوده من الواجب، فإذن وصول الماهية الممكنة إلى وجودها بواسطة إفادة الواجب الحق ذلك الوجود لتلك الماهية فالحق سبحانه هو المتوسط بين كل ماهية وبين وجودها، فهو إلى كل ماهية أقرب من وجود تلك الماهية، ومن هذا السر قال المحققون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله، وقال المتوسطون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله معه، وقال الظاهريون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده.

واعلم أن هذه الدقائق التي أظهرناها في هذه المواضع لها درجتان: إحداهما: أن يصل الإنسان إليها بمقتضى الفكرة والروية والتأمل والتدبر، والدرجة الثانية: أن تتفق لنفس الإنسان قوة ذوقية وحالة وجدانية لا يمكن التعبير عنها، وتكون نسبة الإدراك مع الذوق إلى الإدراك لا مع الذوق، كنسبة من يأكل السكر إلى من يصف حلاوته بلسانه.

**المسألة الثانية:** قال المتكلمون: هذه المعية إما بالعلم وإما بالحفظ والحراسة، وعلى التقديرين فقد انعقد الإجماع على أنه سبحانه ليس معنا بالمكان والجهة والحيز، فإذن قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ لا بد فيه من التأويل وإذا جوزنا التأويل في موضع وجب تجويزه في سائر المواضع.

**المسألة الثالثة:** اعلم أن في هذه الآيات ترتيبًا عجيبًا، وذلك لأنه بيَّن قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] كونه إلهًا لجميع الممكنات والكائنات، ثم بيّن كونه إلهًا للعرش والسموات والأرضين. ثم بيّن بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ معيته لنا بسبب القدرة والإيجاد والتكوين وبسبب العلم وهو كونه عالمًا بظواهرنا وبواطننا، فتأمل في كيفية هذا الترتيب، ثم تأمل في ألفاظ هذه الآيات فإن فيها أسرارًا عجيبة وتنبيهات على أمور عالية.

قوله تعالى: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

**ثم قال تعالى:** ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي إلى حيث لا مالك سواه، ودل بهذا القول على إثبات المعاد.

**ثم قال تعالى:** ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهذه الآيات قد تقدم تفسيرها في سائر السور، وهي جامعة بين الدلالة على قدرته، وبين إظهار نعمه، والمقصود من إعادتها البعث على النظر والتأمل، ثم الاشتغال بالشكر.

**قوله تعالى:** ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواعًا من الدلائل على التوحيد والعلم والقدرة، أتبعها بالتكاليف، وبدأ بالأمر بالإيمان بالله ورسوله، فإن قيل قوله: ﴿آمِنُوا﴾ خطاب مع من عرف الله، أو مع من لم يعرف الله؟ فإن كان الأول كان ذلك أمرًا بأن يعرفه من عرف، فيكون ذلك أمرًا بتحصيل الحاصل وهو محال، وإن كان الثاني كان الخطاب متوجهًا على من لم يكن عارفًا به، ومن لم يكن عارفًا به استحال أن يكون عارفًا بأمره، فيكون الأمر متوجهًا على من يستحيل أن يعرف كونه مأمورًا بذلك الأمر، وهذا تكليف ما لا يطاق، والجواب: من الناس من قال: معرفة وجود الصانع حاصلة للكل، وإنما المقصود من هذا الأمر معرفة الصفات.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

**في هذه الآية مسائل:**

**المسألة الأولى:** اعلم أنه أمر الناس أولاً بأن يشتغلوا بطاعة الله، ثم أمرهم ثانيًا بترك الدنيا والإعراض عنها وإنفاقها في سبيل الله، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، فقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هو المراد هاهنا من قوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ هو المراد هاهنا من قوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

**المسألة الثانية:** في الآية وجهان: الأول: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، ثم إنه تعالى جعلها تحت يد المكلف، وتحت تصرفه لينتفع بها على وفق إذن الشرع، فالمكلف في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل والنائب والخليفة، فوجب أن

يسهل عليكم الإنفاق من تلك الأموال، كما يسهل على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه الثاني: أنه جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم، لأجل أنه نقل أموالهم إليكم على سبيل الإرث، فاعتبروا بحالهم، فإنها كما انتقلت منهم إليكم فستنتقل منكم إلى غيركم فلا تبخلوا بها.

**المسألة الثالثة**: اختلفوا في هذا الإنفاق، فقال بعضهم: هو الزكاة الواجبة، وقال آخرون: بل يدخل فيه التطوع، ولا يمتنع أن يكون عامًّا في جميع وجوه البر، ثم إنه تعالى ضمن لمن فعل ذلك أجرًا كبيرًا فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ قال القاضي: هذه الآية تدل على أن هذا الأجر لا يحصل بالإيمان المنفرد حتى ينضاف هذا الإنفاق إليه، فمن هذا الوجه يدل على أن من أخل بالواجب من زكاة وغيرها فلا أجر له.

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف، وذلك لأن الآية تدل على أن من أخل بالزكاة الواجبة لم يحصل له ذلك الأجر الكبير، فلم قلتم: إنها تدل على أنه لا أجر له أصلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: اعلم أنه تعالى وبَّخ على ترك الإيمان بشرطين: أحدهما: أن يدعو الرسول، والمراد أنه يتلو عليهم القرآن المشتمل على الدلائل الواضحة، الثاني: أنه أخذ الميثاق عليهم، وذكروا في أخذ الميثاق وجهين: الأول: ما نصب في العقول من الدلائل الموجبة لقبول دعوة الرسل، واعلم أن تلك الدلائل كما اقتضت وجوب القبول فهي أوكد من الحلف واليمين، فلذلك سماه ميثاقًا، وحاصل الأمر أنه تطابقت دلائل النقل والعقل، أما النقل فبقوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾، وأما العقل فبقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ ومتى اجتمع هذان النوعان، فقد بلغ الأمر إلى حيث تمتنع الزيادة عليه، واحتج بهذه الآية من زعم أن معرفة الله تعالى لا تجب إلا بالسمع، قال: لأنه تعالى إنما ذمهم بناء على أن الرسول يدعوهم، فعلمنا أن استحقاق الذم لا يحصل إلا عند دعوة الرسول، الوجه الثاني في تفسير أخذ الميثاق: قال عطاء ومجاهد والكلبي والمقاتلان: يريد حين أخرجهم من ظهر آدم، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهذا ضعيف، وذلك لأنه تعالى إنما ذكر أخذ الميثاق ليكون ذلك سببًا في أنه لم يبق لهم عذر في ترك الإيمان بعد ذلك، وأخذ الميثاق وقت إخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم إلا بقول الرسول، فقبل معرفة صدق الرسول لا يكون ذلك سببًا في وجوب تصديق الرسول، أما نصب الدلائل والبينات فمعلوم لكل أحد، فذلك يكون سببًا لوجوب الإيمان بالرسول، فعلمنا أن تفسير الآية بهذا المعنى غير جائز.

**المسألة الثانية**: قال القاضي قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ يدل على قدرتهم على الإيمان إذ لا يجوز أن يقال ذلك

إلا لمن لا يتمكن من الفعل، كما لا يقال: مالك لا تطول ولا تبيض، فيدل هذا على أن الاستطاعة قبل الفعل، وعلى أن القدرة صالحة للضدين، وعلى أن الإيمان حصل بالعبد لا بخلق الله.

**المسألة الثالثة**: قرئ: (وقد أُخِذَ ميثاقكم) على البناء للفاعل، أما قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فالمعنى إن كنتم تؤمنون بشيء لأجل دليل، فما لكم لا تؤمنون الآن، فإنه قد تطابقت الدلائل النقلية والعقلية، وبلغت مبلغًا لا يمكن الزيادة عليها.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾

**قال القاضي**: بيَّن بذلك أن مراده بإنزال الآيات البينات التي هي القرآن، وغيره من المعجزات أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولو كان تعالى يريد من بعضهم الثبات على ظلمات الكفر، ويخلق ذلك فيهم، ويقدره لهم تقديرًا لا يقبل الزوال لم يصح هذا القول، فإن قيل: أليس أن ظاهره يدل على أنه تعالى يخرج من الظلمات إلى النور، فيجب أن يكون الإيمان من فعله؟ قلنا: لو أراد بهذا الإخراج خلق الإيمان فيه لم يكن لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم﴾ معنى، لأنه سواء تقدم ذلك أو لم يتقدم، فخلقه لما خلقه لا يتغير، فالمراد إذن بذلك أنه يلطف بهم في إخراجهم من الظلمات إلى النور ولولا ذلك لم يكن بأن يصف نفسه بأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور أولى من أن يصف نفسه بأنه يخرجهم من النور إلى الظلمات.

واعلم أن هذا الكلام على خسته وروغته معارض بالعلم، وذلك لأنه تعالى كان عالمًا بأن علمه سبحانه بعدم إيمانهم قائم، وعالمًا بأن هذا العلم ينافي وجود الإيمان، فإذا كلفهم بتكوين أحد الضدين مع علمه بقيام الضد الآخر في الوجود بحيث لا يمكن إزالته وإبطاله، فهل يعقل مع ذلك أن يريد بهم ذلك الخير والإحسان، لا شك أن هذا مما لا يقوله عاقل، وإذا توجهت المعارضة زالت تلك القوة، أما قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فقد حمله بعضهم على بعثة محمد ﷺ فقط، وهذا التخصيص لا وجه له، بل يدخل فيه ذلك مع سائر ما يتمكن به المرء من أداء التكاليف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾

**ثم قال تعالى**: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

لما أمر أولاً بالإيمان وبالإنفاق، ثم أكد في الآية المتقدمة إيجاب الإيمان أتبعه في هذه الآية

بتأكيد إيجاب الإنفاق، والمعنى أنكم ستموتون فتورثون، فهلا قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله، وتحقيقه أن المال لا بد وأن يخرج عن اليد، إما بالموت وإما بالإنفاق في سبيل الله، فإن وقع على الوجه الأول، كان أثره اللعن والمقت والعقاب، وإن وقع على الوجه الثاني، كان أثره المدح والثواب، وإذا كان لا بد من خروجه عن اليد، فكل عاقل يعلم أن خروجه عن اليد بحيث يستعقب المدح والثواب أولى منه بحيث يستعقب اللعن والعقاب.

ثم لما بيَّن تعالى أن الإنفاق فضيلة بيَّن أن المسابقة في الإنفاق تمام الفضيلة فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: تقدير الآية: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح، ومن أنفق من بعد الفتح، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠] إلا أنه حذف لوضوح الحال.

**المسألة الثانية**: المراد بهذا الفتح فتح مكة، لأن إطلاق لفظ الفتح في المتعارف ينصرف إليه، قال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ**» وقال أبو مسلم: ويدل القرآن على فتح آخر بقوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] وأيهما كان، فقد بيَّن الله عظم موقع الإنفاق قبل الفتح.

**المسألة الثالثة**: قال الكلبي: نزلت هذه الآية في فضل أبي بكر الصديق، لأنه كان أول من أنفق المال على رسول الله ﷺ في سبيل الله، قال عمر: كنت قاعدًا عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها في صدره بخلال، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال: مالي أرى أبا بكر عليه عباءة خللها في صدره؟ فقال: «**أَنْفَقَ مَالَهُ عَلَيَّ قَبْلَ الْفَتْحِ**»(١).

واعلم أن الآية دلت على أن من صدر عنه الإنفاق في سبيل الله، والقتال مع أعداء الله قبل الفتح يكون أعظم حالاً ممن صدر عنه هذان الأمران بعد الفتح، ومعلوم أن صاحب الإنفاق هو أبو بكر، وصاحب القتال هو علي، ثم إنه تعالى قدم صاحب الإنفاق في الذكر على صاحب القتال، وفيه إيماء إلى تقديم أبي بكر، ولأن الإنفاق من باب الرحمة، والقتال من باب الغضب، وقال تعالى: «**سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي**»(٢) فكان السبق لصاحب الإنفاق، فإن قيل: بل صاحب الإنفاق هو علي، لقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾ [الإنسان: ٨] قلنا: إطلاق القول بأنه أنفق لا يتحقق إلا إذا أنفق في الوقائع العظيمة أموالاً عظيمة، وذكر الواحدي في البسيط أن أبا بكر كان

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه أبو نعيم في (حلية الأولياء) (٧/ ١٠٥) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٣٠/ ٧١) والبغوي في (التفسير) (٨/ ٣٤) والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٣/ ١٣٣) وأبو نعيم في (فضائل الخلفاء) (١/ ١١٣) حديث رقم (٦٣) جميعًا من طريق أبي إسحاق القزاري حدثنا سفيان بن سعيد عن آدم. . . به وفي إسناده العلاء بن عمرو قال ابن حبان: يروي عن أبي إسحاق القزاري العجائب لا يجوز الاحتجاج به بحال.

(٢) تقدم.

أول من قاتل على الإسلام، ولأن عليًا في أول ظهور الإسلام كان صبيًا صغيرًا، ولم يكن صاحب القتال وأما أبا بكر فإنه كان شيخًا مقدمًا، وكان يذب عن الإسلام حتى ضرب بسببه ضربًا أشرف به على الموت.

**المسألة الرابعة**: جعل علماء التوحيد هذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام، وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ قبل الفتح، وبينوا الوجه في ذلك وهو عظم موقع نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام بالنفس، وإنفاق المال في تلك الحال، وفي عدد المسلمين قلة، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد، فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد بخلاف ما بعد الفتح، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قويًا، والكفر ضعيفًا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقوله عليه الصلاة والسلام: **«لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»**

**ثم قال تعالى**: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ **وفيه مسائل**:

**المسألة الأولى**: أي وكل واحد من الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي المثوبة الحسنى، وهي الجنة مع تفاوت الدرجات.

**المسألة الثانية**: القراءة المشهورة (وكُلًّا) بالنصب، لأنه بمنزلة: زيدًا وعدت خيرًا، فهو مفعول وعد، وقرأ ابن عامر: (وَكُلٌّ) بالرفع، وحجته أن الفعل إذا تأخر عن مفعوله لم يقع عمله فيه، والدليل عليه أنهم قالوا: زيد ضربت، وكقوله في الشعر:

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْخِيَارِ تَدَّعِي     عَلَيَّ ذَنْبًا كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ[1]

روي (كُلُّهُ) بالرفع لتأخر الفعل عنه لموجب آخر، واعلم أن للشيخ عبد القاهر في هذا الباب كلامًا حسنًا، قال: إن المعنى في هذا البيت يتفاوت بسبب النصب والرفع، وذلك لأن النصب يفيد أنه ما فعل كل الذنوب، وهذا لا ينافي كونه فاعلاً لبعض الذنوب، فإنه إذا قال: ما فعلت كل الذنوب، أفاد أنه ما فعل الكل، ويبقى احتمال أنه فعل البعض، بل عند من يقول: بأن دليل الخطاب حجة يكون ذلك اعترافًا بأنه فعل بعض الذنوب. أما رواية الرفع، وهي قوله: كله لم أصنع، فمعناه أن كل واحد واحد من الذنوب محكوم عليه بأنه غير مصنوع، فيكون معناه أنه ماأتى بشيء من الذنوب ألبتة، وغرض الشاعر أن يدعي البراءة عن جميع الذنوب، فعلمنا أن المعنى يتفاوت بالرفع والنصب، ومما يتفاوت فيه المعنى بسبب تفاوت الإعراب في هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فمن قرأ (كُلَّ شيء) بالنصب، أفاد أنه تعالى خلق الكل بقدر، ومن قرأ (كَلُّ) بالرفع لم يفد أنه تعالى خلق الكل، بل يفيد أن كل ما كان مخلوقًا له فهو إنما خلقه بقدر، وقد يكون تفاوت الإعراب في هذا الباب بحيث لا يوجب

---

(١) هذا البيت لأبي النجم العجلي وقد تقدمت ترجمته.

تفاوت المعنى كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ [يس: ٣٩] فإنك سواء قرأت (وَالْقَمَرَ) بالرفع أو بالنصب فإن المعنى واحد فكذا في هذه الآية سواء قرأت ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أو قرأت (وكلٌّ وعد الله الحسنى) فإن المعنى واحد غير متفاوت.

**المسألة الثالثة**: تقدير الآية: وكلا وعده الله الحسنى إلا أنه حذف الضمير لظهوره كما في قوله: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] وكذا قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والمعنى أنه تعالى لما وعد السابقين والمحسنين بالثواب فلا بد وأن يكون عالمًا بالجزئيات، وبجميع المعلومات، حتى يمكنه إيصال الثواب إلى المستحقين، إذ لو لم يكن عالمًا بهم وبأفعالهم على سبيل التفصيل، لما أمكن الخروج عن عهدة الوعد بالتمام، فلهذا السبب أتبع ذلك الوعد بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

## قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾

**ثم قال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: ذكروا أن رجلاً من اليهود قال عند نزول هذه الآية: ما استقرض إله محمد حتى افتقر، فلطمه أبو بكر، فشكا اليهودي ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما أردت بذلك؟ فقال: ما ملكت نفسي أن لطمته فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] قال المحققون: اليهودي إنما قال ذلك على سبيل الاستهزاء، لا لأن العاقل يعتقد أن الإله يفتقر، وكذا القول في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

**المسألة الثانية**: أنه تعالى أكد بهذه الآية ترغيب الناس في أن ينفقوا أموالهم في نصرة المسلمين وقتال الكافرين ومواساة فقراء المسلمين، وسمي ذلك الإنفاق قرضًا من حيث وعد به الجنة تشبيهًا بالقرض.

**المسألة الثالثة**: اختلفوا في المراد من هذا الإنفاق، فمنهم من قال: المراد الإنفاقات الواجبة، ومنهم من قال: بل هو في التطوعات، والأقرب دخول الكل فيه.

**المسألة الرابعة**: ذكروا في كون القرض حسنًا وجوهًا: أحدها: قال مقاتل: يعني طيبة بها نفسه، وثانيها: قال الكلبي: يعني يتصدق بها لوجه الله، وثالثها: قال بعض العلماء: القرض لا يكون حسنًا حتى يجمع أوصافًا عشرة: الأول: أن يكون من الحلال قال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللَّه طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ الطَّيِّبَ**»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ يَقْبَلُ اللَّه صَلاَةَ**

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة) باب (قبول الصدقة من الكسب الطيب) (٢/ ٦٥/ ٧٠٣) والترمذي في كتاب (تفسير القرآن) باب (من سورة البقرة) (٥/ ٢٠٥) حديث رقم (٢٩٨٩)، من طريق أبي نعيم... به وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في أكل الطيب) (٢/ ١٨٣) حديث رقم (٢٧١٧) جميعًا عن الفضيل بن مرزوق... به.

بِغَيْرِ طُهُورٍ، وَلاَ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ»(١)، والثاني: أن يكون من أكرم ما يملكه دون أن ينفق الرديء، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، الثالث: أن تتصدق به وأنت تحبه وتحتاج إليه بأن ترجو الحياة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] وبقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] على أحد التأويلات وقال عليه الصلاة والسلام: «الصَّدَقَةُ أَنْ تُعْطِيَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمُلُ الْعَيْشَ، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا وَلِفُلاَنٍ كَذَا»، والرابع: أن تصرف صدقتك إلى الأحوج الأولى بأخذها، ولذلك خص الله تعالى أقوامًا بأخذها وهم أهل السهمان، الخامس: أن تكتم الصدقة ما أمكنك؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، السادس: أن لا تتبعها منًّا ولا أذى، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، السابع: أن تقصد بها وجه الله ولا ترائي، كما قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٢٠، ٢١] ولأن المرائي مذموم بالاتفاق، الثامن: أن تستحقر ما تعطي وإن كثر، لأن ذلك قليل من الدنيا، والدنيا كلها قليلة، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] في أحد التأويلات، التاسع: أن يكون من أحب أموالك إليك، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، العاشر: أن لا ترى عز نفسك وذل الفقير، بل يكون الأمر بالعكس في نظرك، فترى الفقير كأن الله تعالى أحال عليك رزقه الذي قَبِله بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وترى نفسك تحت دين الفقير، فهذه أوصاف عشرة إذا اجتمعت كانت الصدقة قرضًا حسنًا، وهذه الآية مفسرة في سورة البقرة.

**ثم إنه تعالى قال: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى:** أنه تعالى ضمن على هذا القرض الحسن أمرين: أحدهما: المضاعفة على ما ذكر في سورة البقرة، وبيَّن أن مع المضاعفة له أجر كريم، وفيه قولان: الأول: وهو قول أصحابنا أن المضاعفة إشارة إلى أنه تعالى يضم إلى قدر الثواب مثله من التفضل والأجر الكريم عبارة عن الثواب، فإن قيل: مذهبكم أن الثواب أيضًا تفضل فإذا لم يحصل الامتياز لم يتم هذا التفسير، الجواب: أنه تعالى كتب في اللوح المحفوظ، أن كل من صدر منه الفعل الفلاني، فله قدر كذا من الثواب، فذاك القدر هو الثواب، فإذا ضم إليه مثله فذلك المثل هو الضعف.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة) باب (فرض الوضوء) (١/ ١٦) حديث رقم (٥٩) من طريق شعبة... به والنسائي في كتاب (الطهارة) باب (فرض الوضوء) (١/ ٩٥) حديث رقم (١٣٩) من طريق أبي عوانة... به وابن ماجه في كتاب (الطهارة) باب (لا تقبل الصلاة بغير طهور) (١/ ١٠٠) حديث رقم (٢٧١). من طريق شعبة... به وأحمد في (مسنده) (٥/ ٧٤) من طريق شعبة... به والدارمي في كتاب (الطهارة) باب (لا تقبل الصلاة بغير طهور) (١/ ١٦٦) حديث رقم (٦٨٦) وأورده ابن حجر في (فتح الباري) (٣/ ٣٢٦) وقال: إسناده صحيح كلاهما من طريق قتادة... به. والحديث رواه مسلم في (صحيحه) (١/ ٢٠٤/ ٢٢٤) من طريق سماك بن حرب عن مصعب بن سعد عن ابن عمر... به.

والقول الثاني: هو قول الجبائي من المعتزلة أن الأعواض تضم إلى الثواب فذلك هو المضاعفة، وإنما وصف الأجر بكونه كريمًا لأنه هو الذي جلب ذلك الضعف، وبسببه حصلت تلك الزيادة، فكان كريمًا من هذا الوجه.

**المسألة الثانية**: قرأ ابن كثير وابن عامر: (فَيُضَعِّفهُ) مشددة بغير ألف، ثم إن ابن كثير قرأ بضم الفاء وابن عامر بفتح الفاء، وقرأ عاصم (فَيُضَاعِفَهُ) بالألف وفتح الفاء، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: (فَيُضَاعِفُه) بالألف وضم الفاء، قال أبو علي الفارسي: يضاعف ويُضعِّف بمعنى إنما الشأن في تعليل قراءة الرفع والنصب، أما الرفع فوجهه ظاهر لأنه معطوف على ﴿يُقْرِضُ﴾، أو على الانقطاع من الأول، كأنه قيل: فهو يضاعف، وأما قراءة النصب فوجهها أنه لما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ﴾ فكأنه قال: أيقرض الله أحدًا قرضًا حسنًا، ويكون قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ جوابًا عن الاستفهام فحينئذ ينصب.

**قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾**

**ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظرف لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[الحديد: ١١] أو منصوب باذكر تعظيمًا لذلك اليوم.

**المسألة الثانية**: المراد من هذا اليوم هو يوم المحاسبة، واختلفوا في هذا النور على وجوه: أحدها: قال قوم: المراد نفس النور على ما روي عن رسول الله ﷺ: «**أن كُلَّ مُثَابٍ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ النُّورُ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ وَثَوَابِهِ فِي الْعِظَمِ وَالصِّغَرِ**» فعلى هذا مراتب الأنوار مختلفة فمنهم من يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء، ومنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من لا يضيء له نور إلا موضع قدميه، وأدناهم نورًا من يكون نوره على إبهامه ينطفئ مرة ويتقد أخرى، وهذا القول منقول عن ابن مسعود، وقتادة وغيرهما، وقال مجاهد: ما من عبد إلا وينادى يوم القيامة يا فلان ها نورك، ويا فلان لا نور لك، نعوذ بالله منه، واعلم أنا بينا في سورة النور، أن النور الحقيقي هو الله تعالى، وأن نور العلم الذي هو نور البصيرة أولى بكونه نورًا من نور البصر، وإذا كان كذلك ظهر أن معرفة الله هي النور في القيامة فمقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف في الدنيا، القول الثاني: أن المراد من النور ما يكون سببًا للنجاة، وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كماأن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم، ووراء ظهورهم، القول الثالث: المراد بهذا النور الهداية إلى الجنة، كما يقال: ليس لهذا الأمر نور، إذا لم يكن المقصود حاصلاً، ويقال: هذا الأمر له نور ورونق، إذا كان المقصود حاصلاً.

المسألة الثالثة: قرأ سهل بن شعيب (وبإيمانهم) بكسر الهمزة، والمعنى: يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم حصل ذلك السعي، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]أي ذلك كائن بذلك.

**ثم قال تعالى:** ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: حقيقة البشارة ذكرناها في تفسير قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥]ثم قالوا: تقدير الآية وتقول لهم الملائكة: بشراكم اليوم، كما قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

المسألة الثانية: دلت هذه الآية على أن المؤمنين لا ينالهم أهوال يوم القيامة لأنه تعالى بيَّن أن هذه صفتهم يوم القيامة من غير تخصيص.

المسألة الثالثة: احتج الكعبي على أن الفاسق ليس بمؤمن فقال: لو كان مؤمنًا لدخل تحت هذه البشارة، ولو كان كذلك لقطع بأنه من أهل الجنة، ولما لم يكن كذلك ثبت أنه ليس بمؤمن، والجواب: أن الفاسق قاطع بأنه من أهل الجنة لأنه إما أن لا يدخل النار أو إن دخلها لكنه سيخرج منها وسيدخل الجنة ويبقى فيها أبد الآباد، فهو إذن قاطع بأنه من أهل الجنة، فسقط هذا الاستدلال.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائد إلى جميع ما تقدم وهو النور والبشرى بالجنات المخلدة.

المسألة الخامسة: قرئ: (ذَلِكَ الْفَوْزُ)، بإسقاط كلمة: هو.

واعلم أنه تعالى لما شرح حال المؤمنين في موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين. فقال:

**قوله تعالى:** ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣﴾

**قوله:** ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

**وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾، بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ [الحديد: ١٢] أو هو أيضًا منصوب باذكر تقديرًا.

المسألة الثانية: قرأ حمزة وحده (أَنْظِرُونَا) مكسورة الظاء، والباقون (انْظُرُونا)، قال أبو علي الفارسي لفظ النظر يستعمل على ضروب أحدها: أن تريد به نظرت إلى الشيء، فيحذف الجار ويوصل الفعل، كما أنشد أبو الحسن:

ظَاهِرَاتُ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ يَنظُرْنَ كَمَا يَنْظُرُ الْأَرَاكَ الظِّبَاءُ[١]

والمعنى ينظرن إلى الأراك، وثانيها: أن تريد به تأملت وتدبرت، ومنه قولك: اذهب فانظر زيدًا أيؤمن، فهذا يراد به التأمل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الأسراء: ٤٨]، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النساء: ٥٠]، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١] قال: وقد يتعدى هذا بإلى كقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] وهذا نص على التأمل، وبيان وجه الحكمة فيه، وقد يتعدى بفي، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨]، وثالثها: أن يراد بالنظر الرؤية كما في قوله:

وَلَمَّا بَدَا حَوْرَانُ وَالْآلُ دُونَهُ نَظَرْتَ فَلَمْ تَنْظُرْ بِعَيْنِكَ مَنْظَرَا[٢]

والمعنى نظرت، فلم تر بعينك منظرًا تعرفه في الآل قال: إلا أن هذا على سبيل المجاز، لأنه دلت الدلائل على أن النظر عبارة عن تقلب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته، فلما كانت الرؤية من توابع النظر ولوازمه غالبًا أجرى على الرؤية لفظ النظر على سبيل إطلاق اسم السبب على المسبب قال: ويجوز أن يكون قوله: (نَظَرْتَ فلم تَنظُر)، كما يقال: تكلَّمْتَ وما تكلمت، أي ما تكلمت بكلام مفيد، فكذا هنا نظرت وما نظرت نظرًا مفيدًا، ورابعها: أن يكون النظر بمعنى الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] أي غير منتظرين إدراكه وبلوغه، وعلى هذا الوجه يكون نظرت معناه انتظرت، ومجيء فعلت وافتعلت بمعنى واحد كثير، كقولهم: شَوَيتُ واشْتَويتُ، وحَقَرْتُ واحتقرتُ، إذا عرفت هذا فقوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ يحتمل وجهين الأول: انظرونا، أي انتظرونا، لأنه يسرع بالمؤمنين إلى الجنة كالبروق الخاطفة، والمنافقون مشاة، والثاني: انظرونا أي انظروا إلينا، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، والنور بين أيديهم فيستضيئون به، وأما قراءة (أنظِرونا) مكسورة الظاء فهي من النظرة والإمهال، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦] وأمر رسول الله ﷺ بإنظار المعسر، والمعنى أنه جعل اتئادهم في المشي إلى أن يلحقوا بهم إنظارًا لهم.

واعلم أن أبا عبيدة والأخفش كانا يطعنان في صحة هذه القراءة، وقد ظهر الآن وجه صحتها.

**المسألة الثالثة**: اعلم أن الاحتمالات في هذا الباب ثلاثة: أحدها: أن يكون الناس كلهم في الظلمات، ثم إنه تعالى يعطي المؤمنين هذه الأنوار، والمنافقون يطلبونها منهم، وثانيها: أن تكون الناس كلهم في الأنوار، ثم إن المؤمنين يكونون في الجنات فيمرون سريعًا، والمنافقون

---

(١) هذا البيت وجدته للشاعر عبيد الله بن الرقيات وهو هكذا:

ظاهِراتُ الجَمالِ وَالسَروِ يَنظُر نَ كَما يَنظُرُ الأَراكَ الظِباءُ

وأما عبيد الله بن الرقيات فقد ترجم له من قبل.

(٢) هذا البيت لامرئ القيس وتقدمت ترجمته.

يبقون وراءهم فيطلبون منهم الانتظار، وثالثها: أن يكون المؤمنون في النور والمنافقون في الظلمات، ثم المنافقون يطلبون النور مع المؤمنين، وقد ذهب إلى كل واحد من هذه الاحتمالات قوم، فإن كانت هذه الحالة إنما تقع عند الموقف، فالمراد من قوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ انظروا إلينا، لأنهم إذا نظروا إليهم، فقد أقبلوا عليهم، ومتى أقبلوا عليهم وكانت أنوارهم من قدامهم استضاءوا بتلك الأنوار، وإن كانت هذه الحالة إنما تقع عند مسير المؤمنين إلى الجنة، كان المراد من قوله: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ يحتمل أن يكون هو الانتظار وأن يكون النظر إليهم.

**المسألة الرابعة**: القبس: الشعلة من النار أو السراج، والمنافقون طمعوا في شيء من أنوار المؤمنين أن يقتبسوه كاقتباس نيران الدنيا وهو منهم جهل، لأن تلك الأنوار نتائج الأعمال الصالحة في الدنيا، فلما لم توجد تلك الأعمال في الدنيا امتنع حصول تلك الأنوار في الآخرة، قال الحسن: يعطى يوم القيامة كل أحد نورًا على قدر عمله، ثم إنه يؤخذ من حر جهنم ومما فيه من الكلاليب والحسك ويلقى على الطريق، فتمضي زمرة من المؤمنين وجوههم كالقمر ليلة البدر، ثم تمضي زمرة أخرى كأضواء الكواكب في السماء، ثم على ذلك تغشاهم ظلمة فتطفئ نور المنافقين، فهنالك يقول المنافقون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ كقبس النار.

**المسألة الخامسة**: ذكروا في المراد من قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ وجوهًا أحدها: أن المراد منه: ارجعوا إلى دار الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هنالك، فإن هذه الأنوار إنما تتولد من اكتساب المعارف الإلهية، والأخلاق الفاضلة والتنزه عن الجهل والأخلاق الذميمة، والمراد من ضرب السور، هو امتناع العود إلى الدنيا، وثانيها: قال أبو أمامة: الناس يكونون في ظلمة شديدة، ثم المؤمنون يعطون الأنوار، فإذا أسرع المؤمن في الذهاب قال المنافق: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ قال: وهي خدعة خدع بها المنافقون، كما قال: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئًا، فينصرفون إليهم فيجدون السور مضروبًا بينهم وبين المؤمنين، وثالثها: قال أبو مسلم: المراد من قول المؤمنين: ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾ منع المنافقين عن الاستضاءة، كقول الرجل لمن يريد القرب منه: وراءك أوسع لك، فعلى هذا القول المقصود من قوله: ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾ أن يقطعوا بأنه لا سبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب ألبتة، لا أنه أَمرٌ لهم بالرجوع.

**قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: اختلفوا في السور، فمنهم من قال: المراد منه الحجاب والحيلولة أي المنافقون منعوا عن طلب المؤمنين، وقال آخرون: بل المراد حائط بين الجنة والنار، وهو قول قتادة، وقال مجاهد: هو حجاب الأعراف.

**المسألة الثانية**: الباء في قوله: ﴿بِسُورٍ﴾ صلة وهي للتأكيد والتقدير: ضرب بينهم سور كذا، قاله الأخفش، ثم قال: ﴿لَّهُۥ بَابٌ﴾ أي لذلك السور باب ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي في باطن ذلك

السور الرحمة، والمراد من الرحمة الجنة التي فيها المؤمنين ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ﴾ يعني وخارج السور ﴿ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي من قبله يأتيهم العذاب، والمعنى أن ما يلي المؤمنين ففيه الرحمة، وما يلي الكافرين يأتيهم من قبله العذاب، والحاصل أن بين الجنة والنار حائط وهو السور، ولذلك السور باب، فالمؤمنون يدخلون الجنة من باب ذلك السور، والكافرون يبقون في العذاب والنار.

قوله تعالى: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾

**وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى**: في الآية قولان: الأول: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا، والثاني: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في العبادات والمساجد والصلوات والغزوات، وهذا القول هو المتعين.

**المسألة الثانية**: البعد بين الجنة والنار كثير، لأن الجنة في أعلى السموات، والنار في الدرك الأسفل، فهذا يدل على أن البعد الشديد لا يمنع من الإدراك، ولا يمكن أن يقال: إن الله عظم صوت الكفار بحيث يبلغ من أسفل السافلين إلى أعلى عليين، لأن مثل هذا الصوت إنما يليق بالأشداء الأقوياء جدًّا، والكفار موصوفون بالضعف وخفاء الصوت، فعلمنا أن البعد لا يمنع من الإدراك على ما هو مذهبنا، ثم حكى تعالى: أن المؤمنين قالوا: بلى كنتم معنا إلا أنكم فعلتم أشياء بسببها وقعتم في هذا العذاب أولها: ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي بالكفر والمعاصي وكلها فتنة، وثانيها: قوله: ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ وفيه وجوه: أحدها: قال ابن عباس: تربصتم بالتوبة، وثانيها: قال مقاتل: وتربصتم بمحمد الموت، قلتم يوشك أن يموت فنستريح منه، وثالثها: كنتم تتربصون دائرة السوء لتلتحقوا بالكفار، وتتخلصوا من النفاق، وثالثها: قوله: ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وفيه وجوه الأول: شككتم في وعيد الله، وثانيها: شككتم في نبوة محمد، وثالثها: شككتم في البعث والقيامة، ورابعها: قوله: ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ قال ابن عباس: يريد الباطل وهو ما كانوا يتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني الموت، والمعنى ما زالوا في خدع الشيطان وغروره حتى أماتهم الله وألقاهم في النار.

**قوله تعالى:﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ فيه مسألتان:**

**المسألة الأولى**: قرأ سماك بن حرب: (الغُرور) بضم الغين، والمعنى: وغركم بالله الاغترار وتقديره على حذف المضاف أي غركم بالله سلامتكم منه مع الاغترار.

المسألة الثانية: ﴿ ٱلْغَرُورُ﴾ بفتح الغين هو الشيطان لإلقائه إليكم أن لا خوف عليكم من محاسبة ومجازاة.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

**ثم قال تعالى:** ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. الفدية: ما يفتدى به وهو قولان:

**الأول:** لا يؤخذ منكم إيمان ولا توبة، فقد زال التكليف وحصل الإلجاء.

**الثاني:** بل المراد لا يقبل منكم فدية تدفعون بها العذاب عن أنفسكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، واعلم أن الفدية: ما يفتدى به فهو يتناول الإيمان والتوبة والمال، وهذا يدل على أن قبول التوبة غير واجب عقلاً على ما تقوله المعتزلة لأنه تعالى بيَّن أنه لا يقبل الفدية أصلاً والتوبة فدية، فتكون الآية دالة على أن التوبة غير مقبولة أصلاً، وإذا كان كذلك لم تكن التوبة واجبة القبول عقلاً، أما قوله: ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ففيه بحث: وهو عطف الكافر على المنافق يقتضي أن لا يكون المنافق كافرًا لوجوب حصول المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، والجواب: المراد الذين أظهروا الكفر وإلا فالمنافق كافر.

**ثم قال تعالى:** ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

**وفي لفظ المولى هاهنا أقوال:** أحدها قال ابن عباس: ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ أي مصيركم، وتحقيقه أن المولى موضع الولي، وهو القرب، فالمعنى أن النار هي موضعكم الذي تقربون منه وتصلون إليه، والثاني: قال الكلبي: يعني أولى بكم، وهو قول الزجاج والفراء وأبي عبيدة، واعلم أن هذا الذي قالوه معنى وليس بتفسير للفظ، لأن لو كان مولى وأولى بمعنى واحد في اللغة، لصح استعمال كل واحد منهما في مكان الآخر، فكان يجب أن يصح أن يقال: هذا مولى من فلان كما يقال: هذا أولى من فلان، ويصح أن يقال: هذا أولى فلان كما يقال: هذا مولى فلان، ولما بطل ذلك علمنا أن الذي قالوه معنى وليس بتفسير، وإنما نبهنا على هذه الدقيقة لأن الشريف المرتضى لما تمسك بإمامة علي بقوله عليه السلام: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ» قال: أحد معاني مولى أنه أولى، واحتج في ذلك بأقوال أئمة اللغة في تفسير هذه الآية، بأن مولى معناه أولى، وإذا ثبت أن اللفظ محتمل له وجب حمله عليه، لأن ما عداه إما بين الثبوت، ككونه ابن العم والناصر، أو بين الانتفاء، كالمُعتِق والمُعتَق، فيكون على التقدير الأول عبثًا، وعلى التقدير الثاني كذبًا، وأما نحن فقد بينا بالدليل أن قول هؤلاء في هذا الموضع معنى لا تفسير، وحينئذ يسقط الاستدلال به، وفي الآية وجه آخر: وهو أن معنى قوله: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي لا مولى لكم، وذلك لأن من كانت النار مولاه فلا مولى له، كما يقال: ناصره الخذلان ومعينه البكاء، أي لا ناصر له ولا معين، وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] ومنه قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

**وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى**: قرأ الحسن: (أَلَمَّا يَأْنِ)، قال ابن جني: أصل لما لم، ثم زيد عليها (ما) فلم نفي لقوله أفعل، ولما نفي لقوله قد يفعل، وذلك لأنه لما زيد في الإثبات (قد) لا جرم زيد في نفيه (ما)، إلا أنهم لما ركبوا (لم) مع (ما) حدث لها معنى ولفظ، أما المعنى فإنها صارت في بعض المواضع ظرفًا، فقالوا: لما قمت قام زيد، أي وقت قيامك قام زيد، وأما اللفظ فإنه يجوز أن تقف عليها دون مجزومها، فيجوز أن تقول: جئت ولما، أي ولما يجيء، ولا يجوز أن يقول: جئت ولم.

**وأما الذين قرأوا**: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ فالمشهور: ألم يأن من أَنى الأمرُ يأني إذا جاء إِنَاه أي وقته. وقرئ: (ألم يئن)، من أنَّ يَئِينُ بمعنى أنى يأني.

**المسألة الثانية**: اختلفوا في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فقال بعضهم: نزل في المنافقين الذين أظهروا الإيمان وفي قلوبهم النفاق المباين للخشوع، والقائلون بهذا القول لعلهم ذهبوا إلى أن المؤمن لا يكون مؤمنًا في الحقيقة إلا مع خشوع القلب، فلا يجوز أن يقول تعالى ذلك إلا لمن ليس بمؤمن، وقال آخرون: بل المراد من هو مؤمن على الحقيقة، لكن المؤمن قد يكون له خشوع وخشية، وقد لا يكون كذلك، ثم على هذا القول تحتمل الآية وجوهًا: أحدها: لعل طائفة من المؤمنين ما كان فيهم مزيد خشوع ولا رقة، فحُثُّوا عليه بهذه الآية، وثانيها: لعل قومًا كان فيهم خشوع كثير، ثم زال منهم شدة ذلك الخشوع فحثوا على المعاودة إليها، عن الأعمش قال: إن الصحابة لما قدموا المدينة أصابوا لينًا في العيش ورفاهية، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا بهذه الآية، وعن أبي بكر: أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديدًا، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب، وأما قوله: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ففيه قولان: الأول: أن تقدير الآية، أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم لذكر الله، أي مواعظ الله التي ذكرها في القرآن، وعلى هذا الذكر مصدر أضيف إلى الفاعِل، والقول الثاني: أن الذكر مضاف إلى المفعول، والمعنى لذكرهم الله، أي يجب أن يورثهم الذكر خشوعًا، ولا يكونوا كمن ذكره بالغفلة فلا يخشع قلبه للذكر، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ **فيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: (مَا) في موضع جر بالعطف على الذكر وهو موصول، والعائد إليه محذوف على تقدير: وما نزل من الحق، ثم قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن.

**المسألة الثانية**: قال أبو علي: قرأ نافع وحفص والمفضل عن عاصم: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ خفيفة، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: (وَمَا نَزَّل)، مشددة، وعن أبي عمرو: (وَمَا نُزِّلَ مِنَ الحَق) مرتفعة النون مكسورة الزاي، والتقدير في القراءة الأولى: أن تخشع قلوبهم لذكر الله ولما نزل من الحق، وفي القراءة الثانية: ولما نزله الله من الحق، وفي القراءة الثالثة: ولما نُزِّل من الحق.

**المسألة الثالثة**: يحتمل أن يكون المراد من الحق هو القرآن لأنه جامع للوصفين الذكر والموعظة وإنه حق نازل من السماء، ويحتمل أن يكون المراد من الذكر هو ذكر الله مطلقًا، والمراد بما نزل من الحق هو القرآن، وإنما قدم الخشوع بالذكر على الخشوع بما نزل من القرآن، لأن الخشوع والخوف والخشية لا تحصل إلا عند ذكر الله، فأما حصولها عند سماع القرآن فذاك لأجل اشتمال القرآن على ذكر الله، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟﴾ قال الفراء: هو في موضع نصب معناه: ألم يأن أن تخشع قلوبهم، وأن لا يكونوا، قال: ولو كان جزمًا على النهي كان صوابًا، ويدل على هذا الوجه قراءة من قرأ بالتاء على سبيل الالتفات، ثم قال: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ يريد اليهود والنصارى، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ **وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى**: ذكروا في تفسير طول الأمد وجوهًا: أحدها: طالت المدة بينهم وبين أنبيائهم فقست قلوبهم، وثانيها: قال ابن عباس: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله، وثالثها: طالت أعمارهم في الغفلة فحصلت القسوة في قلوبهم بذلك السبب، ورابعها: قال: ابن حبان: الأمد هاهنا الأمل البعيد، والمعنى على هذا طال عليهم الأمد بطول الأمل، أي لما طالت آمالهم لا جرم قست قلوبهم، وخامسها: قال مقاتل بن سليمان: طال عليهم أمد خروج النبي عليه السلام، وسادسها: طال عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعهما عن قلوبهم فلا جرم قست قلوبهم، فكأنه تعالى نهى المؤمنين عن أن يكونوا كذلك، قاله القرطبي.

**المسألة الثانية**: قرئ (الأَمَدُّ) بالتشديد، أي الوقت الأطول، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين، وكأنه إشارة إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر.

**قوله تعالى:** ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

**ثم قال تعالى:** ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

**وفيه وجهان:**

**الأول:** أنه تمثيل والمعنى أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة، فالمواظبة على الذكر سبب

لعود حياة الخشوع إليها كما يحيي الله الأرض بالغيث.

**والثاني:** أن المراد من قوله: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ بعث الأموات فذكر ذلك ترغيبًا في الخشوع والخضوع وزجرًا عن القساوة.

**ثم قال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: قال أبو علي الفارسي: قرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر: (إنَّ المُصَدِّقِينَ والمُصَدِّقَاتِ) بالتخفيف، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بتشديد الصاد فيهما، فعلى القراءة الأولى يكون معنى المصدق المؤمن، فيكون المعنى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن إقراض الله من الأعمال الصالحة، ثم قالوا: وهذه القراءة أولى لوجهين: الأول: أن من تصدق لله وأقرض إذا لم يكن مؤمنًا لم يدخل تحت الوعد، فيصير ظاهر الآية متروكًا على قراءة التشديد، ولا يصير متروكًا على قراءة التخفيف، والثاني: أن المتصدق هو الذي يقرض الله، فيصير قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ شيئًا واحدًا وهو تكرار، أما على قراءة التخفيف فإنه لا يلزم التكرار، وحجة من ثقل وجهان أحدهما: أن في قراءة أبي: (إن المُتَصدِّقين والمُتَصدِّقات) بالتاء، والثاني: أن قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ اعتراض بين الخبر والمخبر عنه، والاعتراض بمنزلة الصفة، فهو للصدقة أشد ملازمة منه للتصديق، وأجاب الأولون: بأنا لا نحمل قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟﴾ على الاعتراض، ولكنا نعطفه على المعنى، ألا ترى أن المصدقين والمصَدقات معناه: إن الذين صدقوا، فصار تقدير الآية: إن الذين صدقوا وأقرضوا الله.

**المسألة الثانية**: في الآية إشكال وهو أن عطف الفعل على الاسم قبيح فما الفائدة في التزامه هاهنا؟ قال صاحب الكشاف: قوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟﴾ معطوف على معنى الفعل في المصدقين، لأن اللام بمعنى الذين، واسم الفاعل بمعنى صدقوا، كأنه قيل: إن الذين صدقوا وأقرضوا، واعلم أن هذا لا يزيل الإشكال فإنه ليس فيه بيان أنه لم عدل عن ذلك اللفظ إلى هذا اللفظ، والذي عندي فيه أن الألف واللام في المصدقين والمصدقات للمعهود، فكأنه ذكر جماعة معينين بهذا الوصف ثم قبل ذكر الخبر أخبر عنهم بأنهم أتوا بأحسن أنواع الصدقة وهو الإتيان بالقرض الحسن، ثم ذكر الخبر بعد ذلك وهو قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ فقوله: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هو المسمى بحشو اللوزنج كما في قوله:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ(١)

(١) هذا البيت للشاعر ابن الوردي وهو: عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوراس أبو حفص زين الدين بن الوردي المعري الكندي ٦٩١- ٧٤٩هـ/ ١٢٩٢- ١٣٤٩م شاعر أديب مؤرخ، ولد في معرة النعمان (بسورية) وولي القضاء بمنبج وتوفي بحلب، وتنسب إليه اللامية التي أولها (اعتزل ذكر الأغاني والغزل) ولم تكن في ديوانه، =

**المسألة الثالثة**: من قرأ: (الْمُصَّدِّقِينَ) بالتشديد اختلفوا في أن المراد هو الواجب أو التطوع أو هما جميعًا، أو المراد بالتصدق الواجب وبالإقراض التطوع؛ لأن تسميته بالقرض كالدلالة على ذلك فكل هذه الاحتمالات مذكورة، أما قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فقد تقدم القول فيه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى ذكر قبل هذه الآية حال المؤمنين والمنافقين، وذكر الآن حال المؤمنين وحال الكافرين، **ثم في الآية مسألتان:**

**المسألة الأولى**: الصِّدِّيق: نعت لمن كثر منه الصدق، وجَمَع صدقًا إلى صدق في الإيمان بالله تعالى ورسله، وفي هذه الآية قولان: أحدهما: أن الآية عامة في كل من آمن بالله ورسله وهو مذهب مجاهد قال: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق ثم قرأ هذه الآية، ويدل على هذا ما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي الموحدون، الثاني: أن الآية خاصة، وهو قول المقاتلين: أن الصديقين هم الذين آمنوا بالرسل حين أتوهم ولم يكذبوا ساعة قط مثل آل ياسين، ومثل مؤمن آل فرعون، وأما في ديننا فهم ثمانية سبقوا أهل الأرض إلى الإسلام أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته.

**المسألة الثانية**: قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ فيه قولان: الأول: أنه عطف على الآية الأولى، والتقدير: إن الذين آمنوا بالله ورسله هم الصديقون وهم الشهداء، قال مجاهد: كل مؤمن فهو صديق وشهيد وتلا هذه الآية، وعلى هذا القول اختلفوا في أنه لم سمي كل مؤمن شهيد؟ فقال بعضهم لأن المؤمنين هم الشهداء عند ربهم على العباد في أعمالهم، والمراد أنهم عدول الآخرة الذين تقبل شهادتهم، وقال الحسن: السبب في هذا الاسم أن كل مؤمن فإنه يشهد كرامة ربه، وقال الأصم: كل مؤمن شهيد لأنه قائم لله تعالى بالشهادة فيما تعبدهم به من وجوب الإيمان ووجوب الطاعات وحرمة الكفر والمعاصي، وقال أبو مسلم: قد ذكرنا أن الصديق نعت لمن كثر منه الصدق وجَمَع صدقًا إلى صدق في الإيمان بالله تعالى ورسله فصاروا بذلك شهداء على غيرهم، القول الثاني: أن قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ ليس عطفًا على ما تقدم بل هو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أو يكون ذلك صفة وخبره هو قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وعلى هذا القول اختلفوا في

---

=فأضيفت إلى المطبوع منه، وكانت بينه وبين صلاح الدين الصفدي مناقضات شعرية لطيفة وردت في مخطوطة ألحان السواجع.

المراد من الشهداء، فقال الفراء والزجاج: هم الأنبياء لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقال مقاتل ومحمد بن جرير: الشهداء هم الذين استشهدوا في سبيل الله، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُمْ؟**» قالوا: المقتول، فقال: «**إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمَقْتُولَ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونَ شَهِيدٌ، وَالْمَطْعُونَ شَهِيدٌ**»(١) الحديث.

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال المؤمنين، أتبعه بذكر حال الكافرين فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

**وفي الآية مسائل:**

**المسألة الأولى:** المقصود الأصلي من الآية تحقير حال الدنيا وتعظيم حال الآخرة فقال: الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر، ولا شك أن هذه الأشياء أمور محقرة، وأما الآخرة فهي عذاب شديد دائم أو رضوان الله على سبيل الدوام، ولا شك أن ذلك عظيم.

**المسألة الثانية:** اعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب، ولذلك لما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] ولولا أنها حكمة وصواب لما قال ذلك، ولأن الحياة خلقه، كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] وأنه لا يفعل العبث على ما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧] ولأن الحياة نعمة بل هي أصل لجميع النعم، وحقائق الأشياء لا تختلف بأن كانت في الدنيا أو في الآخرة، ولأنه تعالى عظم المنة بخلق الحياة فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فأول ما ذكر من أصناف نعمه هو الحياة، فدل مجموع ما ذكرنا على أن الحياة الدنيا غير مذمومة، بل المراد أن من صرف هذه الحياة الدنيا لا إلى طاعة الله بل إلى طاعة

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الجنائز) باب (فضل من مات في الطاعون) (٣/ ١٨٥) حديث رقم (٣١١١) من طريق القعنبي... به ومالك في (الموطأ) كتاب (الجنائز) باب (النهي عن البكاء على الميت) (١/ ٢٣٠٣) حديث رقم (٣٦) وأحمد في (المسند) (٤٤٦) قال: حدثنا روح، جميعًا (القعنبي، روح، عتبة بن عبد الله بن عتبة) عن مالك... به.

الشيطان ومتابعة الهوى، فذاك هو المذموم، ثم إنه تعالى وصفها بأمور: أولها: أنها ﴿لَعِبٌ﴾ وهو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم جدًّا، ثم إن تلك المتاعب تنقضي من غير فائدة وثانيها: أنها (لَهْوٌ) وهو فعل الشبان، والغالب أن بعد انقضائه لا يبقى إلا الحسرة، وذلك لأن العاقل بعد انقضائه يرى المال ذاهبًا والعمر ذاهبًا، واللذة منقضية، والنفس ازدادت شوقًا وتعطشًا إليه مع فقدانها، فتكون المضار مجتمعة متوالية، وثالثها: أنها (زِينَةٌ) وهذا دأب النساء لأن المطلوب من الزينة تحسين القبيح، وعمارة البناء المشرف على أن يصير خرابًا، والاجتهاد في تكميل الناقص، ومن المعلوم أن العرضي لا يقاوم الذاتي، فإذا كانت الدنيا منقضية لذاتها، فاسدة لذاتها، فكيف يتمكن العاقل من إزالة هذه المفاسد عنها، قال ابن عباس: المعنى أن الكافر يشتغل طول حياته بطلب زينة الدنيا دون العمل للآخرة، وهذا كما قيل:

حَيَاتُكَ يَا مَغْرُورُ سهو وغفلة

ورابعها: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ بالصفات الفانية الزائلة، وهو إما التفاخر بالنسب، أو التفاخر بالقدرة والقوة والعساكر وكلها ذاهبة، وخامسها: قوله: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال ابن عباس: يجمع المال في سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلمات بعضها فوق بعض، وأنه لا وجه بتبعية أصحاب الدنيا يخرج عن هذه الأقسام، وبين أن حال الدنيا إذا لم يخل من هذه الوجوه فيجب أن يعدل عنها إلى ما يؤدي إلى عمارة الآخرة، ثم ذكر تعالى لهذه الحياة مثلاً، فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ يعني المطر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ [الكهف: ٤٥] والكاف في قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ موضعة رفع من وجهين أحدهما: أن يكون صفة لقوله: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾، والآخر: أن يكون خبرًا بعد خبر قاله الزجاج، وقوله: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ فيه قولان: الأول: قال ابن مسعود: المراد من الكفار: الزراع قال الأزهري: والعرب تقول للزارع: كافر، لأنه يكفر البذر الذي يبذره بتراب الأرض، وإذا أعجب الزراع نباته مع علمهم به فهو في غاية الحسن، الثاني: أن المراد بالكفار في هذه الآية الكفار بالله وهم أشد إعجابًا بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين، لأنهم لا يرون سعادة سوى سعادة الدنيا، وقوله: ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي ما نبت من ذلك الغيث، وباقي الآية مفسر في سورة الزمر.

ثم إنه تعالى ذكر بعده حال الآخرة فقال: ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لمن كانت حياته بهذه الصفة، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته، وذلك لأنه لما وصف الدنيا بالحقارة وسرعة الانقضاء، بيّن أن الآخرة إما عذاب شديد دائم، وإما رضوان، وهو أعظم درجات الثواب، ثم قال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ يعني لمن أقبل عليها، وأعرض بها عن طلب الآخرة، قال سعيد بن جبير: الدنيا: متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم الوسيلة.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١﴾

**ثم قال تعالى:** ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ والمراد كأنه تعالى قال: لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه، بل احرصوا على أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة.

واعلم أنه تعالى أمر بالمسارعة في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[آل عمران: ١٣٣] ثم شرح هاهنا كيفية تلك المسارعة، فقال: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار، وقوله: ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ **فيه مسألتان:**

**المسألة الأولى:** لا شك أن المراد منه المسارعة إلى ما يوجب المغفرة، فقال قوم: المراد سابقوا إلى التوبة، وقال آخرون: المراد سابقوا إلى سائر ما كلفتم به فدخل فيه التوبة، وهذا أصح لأن المغفرة والجنة لا ينالان إلا بالانتهاء عن جميع المعاصي والاشتغال بكل الطاعات.

**المسألة الثانية:** احتج القائلون بأن الأمر يفيد الفور بهذه الآية، فقالوا: هذه الآية دلت على وجوب المسارعة، فوجب أن يكون التراخي محظورًا، أما قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وقال في آل عمران ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[آل عمران: ١٣٣]، فذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أن السموات السبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح وألزق بعضها ببعض لكانت الجنة في عرضها، هذا قول مقاتل، وثانيها: قال: عطاء عن ابن عباس يريد أن لكل واحد من المطيعين جنة بهذه الصفة، وثالثها: قال السدي: إن الله تعالى شبه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها، فذكر العرض تنبيهًا على أن طولها أضعاف ذلك، ورابعها: أن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في نفوسهم وأفكارهم، وأكثر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض وهذا قول الزجاج، وخامسها: وهو اختيار ابن عباس أن الجنان أربعة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] وقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٦٢] فالمراد هاهنا تشبيه واحدة من تلك الجنان في العرض بالسموات السبع والأرضين السبع.

**ثم قال تعالى:** ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** احتج جمهور الأصحاب بهذا على أن الجنة مخلوقة، وقالت المعتزلة: هذه الآية: لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجهين: **الأول:** أن قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾[الرعد: ٣٥] يدل على أن من صفتها بعد وجودها أن لا تفنى، لكنها لو كانت الآن موجودة لفنيت بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[القصص: ٨٨]. **الثاني:** أن الجنة مخلوقة وهي الآن في

السماء السابعة، ولا يجوز مع أنها في واحدة منها أن يكون عرضها كعرض كل السموات، قالوا: فثبت بهذين الوجهين أنه لا بد من التأويل، وذلك من وجهين: الأول: أنه تعالى لما كان قادرًا لا يصح المنع عليه، وكان حكيمًا لا يصح الخلف في وعده، ثم إنه تعالى وعد على الطاعة بالجنة، فكانت الجنة كالمعدة المهيأة لهم تشبيهًا لما سيقع قطعًا بالواقع، وقد يقول المرء لصاحبه: (أعددت لَكَ الْمُكَافَأَة) إذا عزم عليها، وإن لم يوجدها، والثاني: أن المراد إذا كانت الآخرة أعدها الله تعالى لهم كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠]أي إذا كان يوم القيامة نادى، الجواب: أن قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ﴾ عام، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]مع قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]خاص، والخاص مقدم على العام، وأما قوله ثانيًا: الجنة مخلوقة في السماء السابعة قلنا: إنها مخلوقة فوق السماء السابعة على ما قال عليه السلام في صفة الجنة: «سَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» (١) وأي استبعاد في أن يكون المخلوق فوق الشيء أعظم منه، أليس أن العرش أعظم المخلوقات، مع أنه مخلوق فوق السماء السابعة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيه أعظم رجاء وأقوى أمل، إذ ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله؛ ولم يذكر مع الإيمان شيئًا آخر، والمعتزلة وإن زعموا أن لفظ الإيمان يفيد جملة الطاعات بحكم تصرف الشرع، لكنهم اعترفوا بأن لفظ الإيمان إذا عدي بحرف الباء، فإنه باق على مفهومه الأصلي وهو التصديق، فالآية حجة عليهم، ومما يتأكد به ما ذكرناه قوله بعد هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يعني أن الجنة فضل لا معاملة، فهو يؤتيها من يشاء من عباده سواء أطاع أو عصى، فإن قيل: فيلزمكم أن تقطعوا بحصول الجنة لجميع العصاة، وأن تقطعوا بأنه لا عقاب لهم؟ قلنا: نقطع بحصول الجنة لهم، ولا نقطع بنفي العقاب عنهم، لأنهم إذا عذبوا مدة ثم نقلوا إلى الجنة وبقوا فيها أبد الآباد، فقد كانت الجنة معدة لهم، فإن قيل: فالمرتد قد آمن بالله، فوجب أن يدخل تحت الآية قلت: خص من العموم، فيبقى العموم حجة فيما عداه.

**ثم قال تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ زعم جمهور أصحابنا أن نعيم الجنة تفضل محض لا أنه مستحق بالعمل، وهذا أيضًا قول الكعبي من المعتزلة، واحتجوا على صحة هذا المذهب بهذه الآية، أجاب القاضي عنه فقال: هذا إنما يلزم لو امتنع بين كون الجنة مستحقة وبين كونها فضلاً من الله تعالى، فأما إذا صح اجتماع الصفتين فلا يصح هذا الاستدلال، وإنما قلنا: إنه لا منافاة بين هذين الوصفين، لأنه تعالى هو المتفضل بالأمور التي يتمكن المكلف معها من كسب هذا الاستحقاق، فلما كان تعالى متفضلاً بما يكسب أسباب هذا الاستحقاق كان متفضلاً بها، قال: ولما ثبت أن قوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لا بد وأن يكون مشروطًا بما يستحقه، ولولا ذلك لم

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد) باب (درجات المجاهدين في سبيل الله) (٣/ ١٠٢٨) حديث رقم (٢٦٣٧) من طريق عطاء بن يسار عن أبي هريرة. . . بنحوه.

يكن لقوله من قبل: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ معنى.

واعلم أن هذا ضعيف لأن كونه تعالى متفضلاً بأسباب ذلك الكسب لا يوجب كونه تعالى متفضلاً بنفس الجنة، فإن من وهب من إنسان كاغدًا ودواة وقلمًا، ثم إن ذلك الإنسان كتب بذلك المداد على ذلك الكاغد مصحفًا وباعه من الواهب، لا يقال: إن أداء ذلك الثمن تفضُّل، بل يقال: إنه مستحق، فكذا هاهنا، وأما قوله أولاً إنه لا بد من الاستحقاق، وإلا لم يكن لقوله من قبل: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ معنى، فجوابه أن هذا الاستدلال عجيب، لأن للمتفضل أن يشرط في تفضله أي شرط شاء، ويقول: لا أتفضل إلا مع هذا الشرط.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ والمراد منه التنبيه على عظم حال الجنة، وذلك لأن ذا الفضل العظيم إذا أعطى عطاء مدح به نفسه وأثنى بسببه على نفسه، فإنه لا بد وأن يكون ذلك العطاء عظيمًا.

## قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾

**قال الزجاج:** إنه تعالى لما قال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ [الحديد: ٢١] بيَّن أن المؤدي إلى الجنة والنار لا يكون إلا بقضاء وقدر، فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ﴾ والمعنى لا توجد مصيبة من هذه المصائب إلا وهي مكتوبة عند الله، والمصيبة في الأرض هي قحط المطر، وقلة النبات، ونقص الثمار، وغلاء الأسعار، وتتابع الجوع، والمصيبة في الأنفس فيها قولان: الأول: أنها هي: الأمراض، والفقر، وذهاب الأولاد، وإقامة الحدود عليها، والثاني: أنها تتناول الخير والشر أجمع لقوله بعد ذلك: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: ٢٣] ثم قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ يعني مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** هذه الآية دالة على أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها في الوجود مكتوبة في اللوح المحفوظ. قال المتكلمون: وإنما كتب كل ذلك لوجوه: أحدها: تستدل الملائكة بذلك المكتوب على كونه سبحانه وتعالى عالمًا بجميع الأشياء قبل وقوعها، وثانيها: ليعرفوا حكمة الله فإنه تعالى مع علمه بأنهم يقدمون على تلك المعاصي خلقهم ورزقهم، وثالثها: ليحذروا من أمثال تلك المعاصي، ورابعها: ليشكروا الله تعالى على توفيقه إياهم على الطاعات وعصمته إياهم من المعاصي. وقالت الحكماء: إن الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم هم المدبرات أمرًا، وهم المقسمات أمرًا، إنما هي المبادئ لحدوث الحوادث في هذا العالم السفلي بواسطة الحركات الفلكية والاتصالات الكوكبية، فتصوراتها لانسياق تلك الأسباب إلى المسببات هو المراد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾.

**المسألة الثانية:** استدل جمهور أهل التوحيد بهذه الآية على أنه تعالى عالم بالأشياء قبل

وقوعها خلافًا لهشام بن الحكم، ووجه الاستدلال أنه تعالى لما كتبها في الكتاب قبل وقوعها وجاءت مطابقة لذلك الكتاب علمنا أنه تعالى عالمًا بها بأسرها.

**المسألة الثالثة**: قوله: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ يتناول جميع مصائب الأنفس فيدخل فيها كفرهم ومعاصيهم، فالآية دالة على أن جميع أعمالهم بتفاصيلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، ومثبتة في علم الله تعالى، فكان الامتناع من تلك الأعمال محالاً، لأن علم الله بوجودها مناف لعدمها، والجمع بين المتنافيين محال، فلما حصل العلم بوجودها، وهذا العلم ممتنع الزوال كان الجمع بين عدمها وبين علم الله بوجودها محالاً.

**المسألة الرابعة**: أنه تعالى لم يقل: إن جميع الحوادث مكتوبة في الكتاب، لأن حركات أهل الجنة والنار غير متناهية، فإثباتها في الكتاب محال، وأيضًا خصص ذلك بالأرض والأنفس وما أدخل فيها أحوال السموات، وأيضًا خصص ذلك بمصائب الأرض والأنفس لا بسعادات الأرض والأنفس، وفي كل هذه الرموز إشارات وأسرار، أما قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ فقد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: من قبل أن نخلق هذه المصائب، وقال بعضهم: بل المراد الأنفس، وقال آخرون: بل المراد نفس الأرض، والكل محتمل لأن ذكر الكل قد تقدم، وإن كان الأقرب نفس المصيبة لأنها هي المقصود، وقال آخرون: المراد من قبل أن نبرأ المخلوقات، والمخلوقات وإن لم يتقدم ذكرها إلا أنها لظهورها يجوز عود الضمير إليها كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [يوسف: ٢].

**ثم قال تعالى**: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ وفيه قولان: أحدهما: إن حفظ ذلك على الله هين، والثاني: إن إثبات ذلك على كثرته في الكتاب يسير على الله وإن كان عسيرًا على العباد، ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [فاطر: ١١].

## قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: هذه اللام تفيد جعل أول الكلام سببًا لآخره، كما تقول: قمت لأضربك فإنه يفيد أن القيام سبب للضرب، وهاهنا كذلك لأنه تعالى بيَّن أن إخبار الله عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر، ومثبتة في الكتاب الذي لا يتغير يوجب أن لا يشتد فرح الإنسان بما وقع، وأن لا يشتد حزنه بما لم يقع، وهذا هو المراد بقوله عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ سِرَّ اللَّه فِي الْقَدَرِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ» وتحقيق الكلام فيه أن على مذهب أهل السنة أن وقوع كل ما وقع واجب، وعدم كل ما لم يقع واجب أيضًا لأسباب أربعة، أحدها: أن الله تعالى علم وقوعه، فلو لم يقع انقلب العلم جهلاً، ثانيها: أن الله أراد وقوعه، فلو لم يقع انقلبت الإرادة تمنيًا،

ثالثها: أنه تعلقت قدرة الله تعالى بإيقاعه، فلو لم يقع لانقلبت تلك القدرة عجزًا، رابعها: أن الله تعالى حكم بوقوعه بكلامه الذي هو صدق فلو لم يقع لانقلب ذلك الخبر الصدق كذبًا، فإذن هذا الذي وقع لو لم يقع لتغيرت هذه الصفات الأربعة من كمالها إلى النقص، ومن قدمها إلى الحدوث، ولما كان ذلك ممتنعًا علمنا أنه لا دافع لذلك الوقوع، وحينئذ يزول الغم والحزن، عند ظهور هذه الخواطر وهانت عليه المحن والمصائب، وأما المعتزلة فهب أنهم ينازعون في القدرة والإرادة، ولكنهم يوافقون في العلم والجبر، وإذا كان الجبر لازمًا في هاتين الصفتين، فأي فرق بين أن يلزم الجبر بسبب هاتين الصفتين وبين أن يلزم بسبب الصفات الأربع، وأما الفلاسفة فالجبر مذهبهم، وذلك لأنهم ربطوا حدوث الأفعال الإنسانية بالتصورات الذهنية والتخيلات الحيوانية، ثم ربطوا تلك التصورات والتخيلات بالأدوار الفلكية التي لها مناهج مقدرة، ويمتنع وقوع ما يخالفها، وأما الدهرية الذين لا يثبتون شيئًا من المؤثرات فهم لا بد وأن يقولوا بأن حدوث الحوادث اتفاقي، وإذا كان اتفاقيًا لم يكن اختياريًا، فيكون الجبر لازمًا، فظهر أنه لا مندوحة عن هذا لأحد من فِرَق العقلاء، سواء أقروا به أو أنكروه، فهذا بيان وجه استدلال أهل السنة بهذه الآية، قالت المعتزلة: الآية دالة على صحة مذهبنا في كون العبد متمكنًا مختارًا، وذلك من وجوه: الأول: أن قوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أخبرهم بكون تلك المصائب مثبتة في الكتاب لأجل أن يحترزوا عن الحزن والفرح، ولولا أنهم قادرون على تلك الأفعال لما بقي لهذه اللام فائدة، والثاني: أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يريد أن يقع منهم الحزن والفرح وذلك خلاف قول المجبرة: إن الله تعالى أراد كل ذلك منهم، والثالث: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى لا يريد ذلك لأن المحبة والإرادة سواء، فهو خلاف قول المجبرة: إن كل واقع فهو مراد الله تعالى، الرابع: أنه تعالى أدخل لام التعليل على فعله بقوله: ﴿لِكَيْلَا﴾ وهذا يدل على أن أفعال الله تعالى معللة بالغرض، وأقول: العاقل يتعجب جدًا من كيفية تعلق هذه الآيات بالجبر والقدر وتعلق كلتا الطائفتين بأكثرها.

المسألة الثانية: قال أبو علي الفارسي: قرأ أبو عمرو وحده: (بِمَا أَتَاكُم) قصرًا، وقرأ الباقون: ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ ممدودًا، حجة أبي عمرو أن: ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ معادل لقوله: ﴿فَاتَكُمْ﴾ فكما أن الفعل للغائب في قوله: ﴿فَاتَكُمْ﴾ كذلك يكون الفعل للآتي في قوله: (بِمَا أَتَاكُم) والعائد إلى الموصول في الكلمتين في الذكر المرفوع بأنه فاعل، وحجة الباقين أنه إذا مد كان ذلك منسوبًا إلى الله تعالى وهو المعطي لذلك، ويكون فاعل الفعل في: ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ ضميرًا عائدًا إلى اسم الله سبحانه وتعالى والهاء محذوفة من الصلة تقديره: بما آتاكموه.

المسألة الثالثة: قال المبرد: ليس المراد من قوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ نفي الأسى والفرح على الإطلاق بل معناه: لا تحزنوا حزنًا يخرجكم إلى أن تهلكوا

أنفسكم ولا تعتدوا بثواب على فوات ما سلب منكم، ولا تفرحوا فرحًا شديدًا يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ فدل بهذا على أنه ذم الفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر، وأما الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم، وهذا كله معنى ما روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا للمصيبة صبرًا وللخير شكرًا. واحتج القاضي بهذه الآية على أنه تعالى لا يريد أفعال العباد والجواب عنه أن كثيرًا من أصحابنا من فرق بين المحبة والإرادة فقال: المحبة إرادة مخصوصة، وهي إرادة الثواب فلا يلزم من نفي هذه الإرادة نفي مطلق الإرادة.

## قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

**وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في الآية قولان: الأول: أن هذا بدل من قوله: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] كأنه قال: لا يحب المختال ولا يحب الذين يبخلون يريد الذين يفرحون الفرح المطغي فإذا رزقوا مالاً وحظًا من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم يبخلون به ولا يكفيهم أنهم بخلوا به بل يأمرون الناس بالبخل به، وكل ذلك نتيجة فرحهم عند إصابته، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي فإن الله غني عنه، القول الثاني: أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله، وهو في صفة اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ويخلوا ببيان نعته، وهو مبتدأ وخبره محذوف دل عليه قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وحذف الخبر كثير في القرآن كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١].

المسألة الثانية: قال أبو علي الفارسي: قرأ نافع وابن عامر (فإن الله الغني الحميد)، وحذفوا لفظ (هُوَ) وكذلك (هُوَ) في مصاحف أهل المدينة والشام، وقرأ الباقون (هو الغني الحميد) قال أبو علي: ينبغي أن هو في هذه الآية فصلاً لا مبتدأ، لأن الفصل حذفه أسهل، ألا ترى أنه لا موضع للفصل من الإعراب، وقد يحذف فلا يخل بالمعنى كقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ معناه أن الله غني فلا يعود ضرر عليه ببخل ذلك البخيل، وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ كأنه جواب عن السؤال يذكر هاهنا، فإنه يقال: لما كان تعالى عالمًا بأنه يبخل بذلك المال ولا يصرفه إلى وجوه الطاعات، فلم أعطاه ذلك المال؟ فأجاب بأنه تعالى حميد في ذلك الإعطاء، ومستحق للحمد حيث فتح عليه أبواب رحمته ونعمته، فإن قصر العبد في الطاعة فإن وباله عائد إليه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

**ثم قال تعالى:** ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وفي تفسير البينات قولان: الأول: وهو قول مقاتل بن سليمان: إنها هي المعجزة الظاهرة والدلائل القاهرة، والثاني: وهو قول مقاتل بن حيان: أي أرسلناهم بالأعمال التي تدعوهم إلى طاعة الله وإلى الإعراض عن غير الله، والأول هو الوجه الصحيح لأن نبوتهم إنما ثبتت بتلك المعجزات.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

**واعلم أن نظير هذه الآية قوله تعالى:** ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ﴾ [الشورى: ١٧] وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] **وهاهنا مسائل:**

**المسألة الأولى:** في وجه المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد وجوه: أحدها: وهو الذي أقوله أن مدار التكليف على أمرين: أحدهما: فعل ما ينبغي فعله، والثاني: ترك ما ينبغي تركه، والأول هو المقصود بالذات، لأن المقصود بالذات لو كان هو الترك لوجب أن لا يخلق أحد، لأن الترك كان حاصلاً في الأزل، وأما فعل ما ينبغي فعله، فإما أن يكون متعلقًا بالنفس، وهو المعارف، أو بالبدن وهو أعمال الجوارح، فالكتاب هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال النفسانية، لأن يتميز الحق من الباطل، والحجة من الشبهة، والميزان هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال البدنية، فإن معظم التكاليف الشاقة في الأعمال هو ما يرجع إلى معاملة الخلق، والميزان هو الذي يتميز به العدل عن الظلم والزائد عن الناقص، وأما الحديد ففيه بأس شديد، وهو زاجر للخلق عما لا ينبغي، والحاصل أن الكتاب إشارة إلى القوة النظرية، والميزان إلى القوة العملية، والحديد إلى دفع مالا ينبغي، ولما كان أشرف الأقسام رعاية المصالح الروحانية، ثم رعاية المصالح الجسمانية، ثم الزجر عما لا ينبغي، روعي هذا الترتيب في هذه الآية، وثانيها: المعاملة إما مع الخالق وطريقها الكتاب أو مع الخلق وهم: إما الأحباب والمعاملة معهم بالسوية وهي بالميزان، أو مع الأعداء والمعاملة معهم بالسيف والحديد، وثالثها: الأقوام ثلاثة: إما السابقون وهم يعاملون الخلق بمقتضى الكتاب، فينصفون ولا ينتصفون، ويحترزون عن مواقع الشبهات، وإما مقتصدون وهم الذين ينصفون وينتصفون، فلا بد لهم من الميزان، وإما ظالمون وهم الذين ينتصفون ولا ينصفون ولا بد لهم من الحديد والزجر، ورابعها: الإنسان، إما أن يكون في مقام الحقيقة وهو مقام النفس المطمئنة ومقام المقربين، فهاهنا لا يسكن إلا إلى الله، ولا يعمل إلا بكتاب الله، كما قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ

﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وإما أن يكون في مقام الطريقة وهو مقام النفس اللوامة، ومقام أصحاب اليمين، فلا بد له من الميزان في معرفة الأخلاق حتى يحترز عن طرفي الإفراط والتفريط، ويبقى على الصراط المستقيم وإما أن يكون في مقام الشريعة وهو مقام النفس الأمارة، وهاهنا لا بد له من حديد المجاهدة والرياضات الشاقة، وخامسها: الإنسان إما أن يكون صاحب المكاشفة والوصول فلا أنس له إلا بالكتاب، أو صاحب الطلب والاستدلال فلا بد له من ميزان الدليل والحجة أو صاحب العناد واللجاج، فلا بد وأن ينفى من الأرض بالحديد وسادسها: أن الدين هو إما الأصول وإما الفروع، وبعبارة أخرى: إما المعارف وإما الأعمال، فالأصول من الكتاب، وأما الفروع: فالمقصود الأفعال التي فيها عدلهم ومصلحتهم وذلك بالميزان فإنه إشارة إلى رعاية العدل، والحديد لتأديب من ترك ذينك الطريقين، وسابعها: الكتاب إشارة إلى ما ذكر الله في كتابه من الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف، والميزان إشارة إلى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والإنصاف وهو شأن الملوك، والحديد إشارة إلى أنهم لو تمردوا لوجب أن يحملوا عليهما بالسيف، وهذا يدل على أن مرتبة العلماء وهم أرباب الكتاب مقدمة على مرتبة الملوك الذين هم أرباب السيف، ووجوه المناسبات كثيرة، وفيما ذكرناه تنبيه على الباقي.

**المسألة الثانية**: ذكروا في: إنزال الميزان وإنزال الحديد قولين: الأول: أن الله تعالى أنزلهما من السماء، روي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مر قومك يزنوا به، وعن ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والمقمعة والمطرقة والإبرة، والمقمعة ما يحدد به، ويدل على صحة هذا ما روى ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**إِنَّ اللَّه تَعَالَى أَنْزَلَ أَرْبَعَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ: أَنْزَلَ الْحَدِيدَ وَالنَّارَ وَالْمَاءَ وَالْمِلْحَ**»(١) والقول الثاني: أن معنى هذا الإنزال الإنشاء والتهيئة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] قال قطرب: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١] أي هيأناها من

(١) موضوع: الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٣/ ١٥٠) وقال ابن تيمية القتادي الحسن بن إسماعيل بن خلف الخيّاط قال: حدثنا أبو بكر محمد بن الفرج المعدّل قال: حدّثنا محمّد بن عبيد بن عبد الملك قال: حدثنا سيف بن محمد أبو محمد (ابن أخت سفيان الثوري) عن عبد الملك بن مالك التميمي عن عبد الله بن خليفة عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره حديث موضوع مكذوب، في إسناده سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري- رحمه الله- وهو من الكذابين المعروفين بالكذب. قال ابن الجوزي: هو سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري، يروي عن الثوري وعاصم الأحول والأعمش، قال أحمد رحمه الله: هو كذاب يضع الحديث، وقال مرّة: ليس بشيء. وقال يحيى: كان كذابًا خبيثًا، وقال مرة: ليس بثقة. وقال أبو داود: كذاب. وقال زكريا الساجي: يضع الحديث. وقال النسائي: ليس بثقة ولا مأمون. وقال الدارقطني: ضعيف متروك. ضعيف أخرجه الديلمي في الفردوس. انظر: كنز العمال (١٥/ ٤١٨) وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف صفحة (١٦٤) للثعلبي وقال: (وفي إسناده من لا أعرفه) وأورده الألباني في (الضعيفة) (٣٠٥٣) وقال: موضوع.

النزل، يقال: أنزل الأمير على فلان نزلاً حسنًا، ومنهم من قال هذا من جنس قوله: علفتها تبنًا وماء باردًا، وأكلت خبزًا ولبنًا.

المسألة الثالثة: ذكر في منافع الميزان أن يقوم الناس بالقسط، والقسط والإقساط هو الإنصاف وهو أن تعطى قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك، والعادل مقسط قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[المائدة: ٤٢] وأما الحديد ففيه البأس الشديد فإن آلات الحروب متخذة منه، وفيه أيضًا منافع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾[الأنبياء: ٨٠] ومنها أن مصالح العالم، إما أصول، وإما فروع، أما الأصول فأربعة: الزراعة والحياكة وبناء البيوت والسلطنة، وذلك لأن الإنسان مضطر إلى طعام يأكله وثوب يلبسه وبناء يجلس فيه، والإنسان مدني بالطبع فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص، فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل، وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاحمة، ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض، وذلك هو السلطان، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الحروف الأربعة، أما الزراعة فمحتاجة إلى الحديد، وذلك في كرب الأراضي وحفرها، ثم عند تكوُّن هذه الحبوب وتولدها لا بد من خبزها وتنقيتها، وذلك لا يتم إلا بالحديد، ثم الحبوب لا بد من طحنها وذلك لا يتم إلا بالحديد، ثم لا بد من خبزها ولا يتم إلا بالنار، ولا بد فيها من المقدحة الحديدية، وأما الفواكه فلا بد من تنظيفها عن قشورها، وقطعها على الوجوه الموافقة للأكل ولا يتم ذلك إلا بالحديد، وأما الحياكة فمعلوم أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد ثم يحتاج في قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد، وأما البناء فمعلوم أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد، وأما أسباب السلطنة فمعلوم أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد، وعند هذا يظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد، ويظهر أيضًا أن الذهب لا يقوم مقام الحديد في شيء من هذه المصالح فلو لم يوجد الذهب في الدنيا ما كان يختل شيء من مصالح الدنيا، ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا، ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله سهل الوجدان، كثير الوجود، والذهب لما قلت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود، وعند هذا يظهر أثر وجود الله تعالى ورحمته على عبيده، فإن كل ما كانت حاجتهم إليه أكثر، جعل وجدانه أسهل، ولهذا قال بعض الحكماء إن أعظم الأمور حاجة إليه هو الهواء، فإنه لو انقطع وصوله إلى القلب لحظة لمات الإنسان في الحال، فلا جرم جعله الله أسهل الأشياء وجدانًا، وهيأ أسباب التنفس وآلاته، حتى إن الإنسان يتنفس دائمًا بمقتضى طبعه من غير حاجة فيه إلى تكلف عمل، وبعد الهواء الماء، إلا أنه لما كانت الحاجة إلى الماء أقل من الحاجة إلى الهواء جعل تحصيل الماء أشق قليلاً من تحصيل الهواء، وبعد الماء الطعام، ولما كانت الحاجة إلى الطعام أقل من الحاجة إلى الماء، جعل تحصيل الطعام أشق من تحصيل الماء، ثم تتفاوت الأطعمة في درجات الحاجة والعزة فكل ما كانت الحاجة إليه أشد، كان

وجدانه أسهل، وكل ما كان وجدانه أعسر كانت الحاجة إليه أقل، والجواهر لما كانت الحاجة إليها قليلة جدًّا، لا جرم كانت عزيزة جدًّا، فعلمنا أن كل شيء كانت الحاجة إليه أكثر كان وجدانه أسهل، ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله تعالى أشد من الحاجة إلى كل شيء فنرجو من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانًا، قال الشاعر:

سُبْحَانَ مَنْ خَصَّ الْعَزِيزَ بِعِزِّهِ ... وَالنَّاسُ مُسْتَغْنُونَ عَنْ أَجْنَاسِهِ(١)

وَأَذَلَّ أَنْفَاسَ الْهَوَاءِ وَكُلُّ ذِي ... نَفْسٍ فَمُحْتَاجٌ إِلَى أَنْفَاسِهِ

**ثم قال تعالى:** ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** المعنى وليعلم الله من ينصره، أي ينصر دينه، وينصر رسله باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين بالغيب أي غائبًا عنهم. قال ابن عباس: ينصرونه ولا يبصرونه، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

**المسألة الثانية:** احتج من قال بحدوث علم الله بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ والجواب عنه أنه تعالى أراد بالعلم المعلوم، فكأنه تعالى قال: ولتقع نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام ممن ينصره.

**المسألة الثالثة:** قال الجبائي: قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أنزل الميزان والحديد، ومراده من العباد أن يقوموا بالقسط وأن ينصروا الرسول، وإذا كان هذا مراده من الكل فقد بطل قول المجبرة أنه أراد من بعضهم خلاف ذلك جوابه: أنه كيف يمكن أن يريد من الكل ذلك مع علمه بأن ضده موجود، وأن الجمع بين الضدين محال، وأن المحال غير مراد.

**المسألة الرابعة:** لما كانت النصرة قد تكون ظاهرة، كما يقع من منافق أو ممن مراده المنافع في الدنيا، بين تعالى أن الذي أراده النصرة بالغيب، ومعناه أن تقع عن إخلاص بالقلب، ثم بيَّن تعالى أنه قوي على الأمور عزيز لا يمانع.

## قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٢٦﴾

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات، وأنه أنزل الميزان والحديد، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرتهم أتبع ذلك ببيان سائر الأشياء التي أنعم بها عليهم، فبين أنه تعالى شرف نوحًا وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب فما جاء بعدهما أحد بالنبوة إلا

(١) هذا البيت للشاعر أبو الفتح البشي وتقدمت ترجمته.

وكان من أولادهما، وإنما قدم النبوة على الكتاب، لأن كمال حال النبي أن يصير صاحب الكتاب والشرع.

**ثم قال تعالى:** ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي فمن الذرية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين، والمعنى أن منهم مهتد ومنهم فاسق، والغلبة للفساق، وفي الفاسق هاهنا قولان: الأول: أنه الذي ارتكب الكبيرة سواء كان كافرًا أو لم يكن، لأن هذا الاسم يطلق على الكافر وعلى من لا يكون كذلك إذا كان مرتكبًا للكبيرة، والثاني: أن المراد بالفاسق هاهنا الكافر، لأن الآية دلت على أنه تعالى جعل الفساق بالضد من المهتدين، فكأن المراد أن فيهم من قبل الدين واهتدى، ومنهم من لم يقبل ولم يهتد، ومعلوم أن من كان كذلك كان كافرًا، وهذا ضعيف، لأن المسلم الذي عصى قد يقال فيه: إنه لم يهتد إلى وجه رشده ودينه.

**قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

**قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾.

**وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى:** معنى قفاه أتبعه بعد أن مضى، والمراد أنه تعالى أرسل بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى عليه السلام فأرسله الله تعالى بعدهم وآتاه الإنجيل.

**المسألة الثانية:** قال ابن جني: قرأ الحسن: (وآتيناه الأنجيل) بفتح الهمزة، ثم قال: هذا مثال لا نظير له، لأنه أَفْعِيل وهو عندهم من نَجلْتُ الشيء إذا استخرجته، لأنه يستخرج به الأحكام، والتوراة فوعلة من ورى الزند يرى إذا أخرج النار، ومثله الفرقان وهو فعلان من فرقت بين الشيئين، فعلى هذا لا يجوز فتح الهمزة لأنه لا نظير له، وغالب الظن أنه ما قرأه إلا من سماع وله وجهان: أحدهما: أنه شاذ كما حكى بعضهم في البَرْطيل، وثانيهما: أنه ظن الإنجيل أعجميًا فحرف مثاله تنبيهًا على كونه أعجميًا.

**قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ **وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق لله تعالى وكسب للعبد، قالوا: لأنه تعالى حكم بأن هذه الأشياء مجعولة لله تعالى، وحكم بأنهم ابتدعوا تلك الرهبانية، قال القاضي: المراد بذلك أنه تعالى لطف بهم حتى قويت دواعيهم إلى الرهبانية، التي هي

تحمل الكلفة الزائدة على ما يجب من الخلوة واللباس الخشن والجواب: أن هذا ترك للظاهر من غير دليل، على أنا وإن سلمنا ذلك فهو يُحَصِّل مقصودنا أيضًا، وذلك لأن حال الاستواء يمتنع حصول الرجحان وإلا فقد حصل الرجحان عند الاستواء والجمع بينهما متناقض، وإذا كان الحصول عند الاستواء ممتنعًا، كان عند المرجوحية أولى أن يصير ممتنعًا، وإذا امتنع المرجوح وجب الراجح ضرورة أنه لا خروج عن طرفي النقيض.

**المسألة الثانية**: قال مقاتل: المراد من الرأفة والرحمة هو أنهم كانوا متوادين بعضهم مع بعض، كما وصف الله أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام بذلك في قوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

**المسألة الثالثة**: قال صاحب الكشاف: قرئ (رَآفَةً) على فعالة.

**المسألة الرابعة**: الرَّهْبَانية معناها الفَعْلة المنسوبة إلى الرَّهْبَان وهو الخائف فَعْلان من رَهَب، كخَشْيان من خشي، وقرئ: (وَرُهْبَانِيَّةً) بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان، وهو جمع راهب كراكب وركبان، والمراد من الرهبانية ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة ومتحملين كُلَفًا زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن، والاعتزال عن النساء والتعبد في الغيران والكهوف، عن ابن عباس أن في أيام الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام غير الملوك التوراة والإنجيل، فساح قوم في الأرض ولبسوا الصوف، وروى ابن مسعود أنه عليه السلام، قال: «**يَا ابْنَ مَسْعُودٍ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقُوا سَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ ثَلاَثَ فِرَقٍ، فِرْقَةٌ آمَنَتْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَقَاتَلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ فِي نُصْرَتِهِ حَتَّى قُتِلُوا، وَفِرْقَةٌ لَمْ يَكُنْ لَهَا طَاقَةٌ بِالْقِتَالِ، فَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَفِرْقَةٌ لَمْ يَكُنْ لَهَا طَاقَةٌ بِالأَمْرَيْنِ، فلبس الْعَبَاءَ، وَخَرَجُوا إِلَى الْقِفَارِ وَالْفَيَافِي وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ**»(١).

**المسألة الخامسة**: لم يعن الله تعالى بابتدعوها طريقة الذم، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها، ولذلك قال تعالى بعده: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾.

**المسألة السادسة**: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوبة بفعل مضمر، يفسره الظاهر، تقديره: ابتدعوا رهبانية ابتدعوها، وقال أبو علي الفارسي: الرهبانية لا يستقيم حملها على ﴿جَعَلْنَا﴾، لأن ما يبتدعونه هم لا يجوز أن يكون مجعولاً لله تعالى، وأقول: هذا الكلام إنما يتم لو ثبت امتناع مقدور بين قادرين، ومن أين يليق بأبي على أن يخوض في أمثال هذه الأشياء.

**ثم قال تعالى**: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي لم نفرضها نحن عليهم.

**أما قوله**: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه استثناء منقطع. أي ولكنهم

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، الثاني: أنه استثناء متصل، والمعنى أنا ما تعبدناهم بها إلا على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى، والمراد أنها ليست واجبة، فإن المقصود من فعل الواجب، دفع العقاب وتحصيل رضا الله، أما المندوب فليس المقصود من فعله دفع العقاب، بل المقصود منه ليس إلا تحصيل مرضاة الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ففيه أقوال: أحدها: أن هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية ما رعوها حق رعايتها، بل ضموا إليها التثليث والاتحاد، وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمدًا عليه الصلاة والسلام فآمنوا به فهو قوله: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، وثانيها: أنا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلا ليتوسلوا بها إلى مرضاة الله تعالى، ثم إنهم أتوا بتلك الأفعال، لكن لا لهذا الوجه، بل لوجه آخر، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة، وثالثها: أنا لما كتبناها عليهم تركوها، فيكون ذلك ذمًّا لهم من حيث إنهم تركوا الواجب، ورابعها: أن الذين لم يرعوها حق رعايتها هم الذين أدركوا محمدًا عليه الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا به، وقوله: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي الذين آمنوا بمحمد ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الذين لم يؤمنوا به، ويدل على هذا ما روي أنه عليه السلام قال: «**مَنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي وَاتَّبَعَنِي فَقَدْ رَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي فَأُولَئِكَ هُمُ الْهَالِكُونَ**»[(١)] وخامسها: أن الصالحين من قوم عيسى عليه السلام ابتدعوا الرهبانية وانقرضوا عليها، ثم جاء بعدهم قوم اقتدوا بهم في اللسان، وما كانوا مقتدين بهم في العمل، فهم الذين ما رعوها حق رعايتها، قال عطاء: لم يرعوها كما رعاها الحواريون، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ والمعنى أن بعضهم قام برعايتها وكثير منهم أظهر الفسق وترك تلك الطريقة ظاهرًا وباطنًا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أنه لما قال في الآية الأولى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾ أي من قوم عيسى: ﴿أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٧] قال في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمراد به أولئك فأمرهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ثم قال: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي نصيبين من رحمته لإيمانكم

---

(١) إسناده ضعيف جدًّا: أخرجه الطبراني في (الكبير) (١٠/ ٢٢٠) حديث رقم (١٠٥٣١) وفي (الأوسط) (٤/ ٣٧٦) حديث رقم (٤٤٧٩)، وفي (الصغير) (١/ ٣٧٢) حديث رقم (٦٢٤)، والمروزي في (السنة) (١/ ٢١) حديث رقم (٥٤) وأبو نعيم في (الحلية) (٤/ ١٧٧) جميعًا من طريق الصعق بن حزن أخبرني عقيل الجعدي عن أبي إسحاق السبيعي عن سويد ابن غفلة عن ابن مسعود... به وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ١٦٣) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه عقيل بن الجعد قال البخاري منكر الحديث.

أولاً بعيسى، وثانيًا بمحمد عليه الصلاة والسلام، ونظيره قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ [القصص: ٥٤]عن ابن عباس أنه نزل في قوم جاءوا من اليمن من أهل الكتاب إلى الرسول وأسلموا فجعل الله لهم أجرين **وهاهنا سؤالان:**

**السؤال الأول:** ما الكفل في اللغة؟ الجواب: قال المؤرج: الكفل: النصيب بلغة هذيل، وقال غيره بل هذه لغة الحبشة، وقال المفضل ابن مسلمة: الكفل: كساء يديره الراكب حول السنام حتى يتمكن من القعود على البعير.

**السؤال الثاني:** أنه تعالى لما آتاهم كفلين وأعطى المؤمنين كفلاً واحدًا كان حالهم أعظم والجواب: روي أن أهل الكتاب افتخروا بهذا السبب على المسلمين، وهو ضعيف لأنه لا يبعد أن يكون النصيب الواحد أزيد قدرًا من النصيبين، فإن المال إذا قسم بنصفين كان الكفل الواحد نصفًا، وإذا قسم بمائة قسم كان الكفل الواحد جزءًا من مائة جزء، فالنصيب الواحد من القسمة الأولى أزيد من عشرين نصيبًا من القسمة الثانية، فكذا هاهنا، ثم قال تعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ﴾ أي يوم القيامة ﴿نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ وهو النور المذكور في قوله ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢]﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ما أسلفتم من المعاصي ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

**فيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قال الواحدي: هذه آية مشكلة وليس للمفسرين فيها كلام واضح في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها.

واعلم أن أكثر المفسرين على أن (لا) هاهنا صلة زائدة، والتقدير: ليعلم أهل الكتاب، وقال أبو مسلم الأصفهاني وجمع آخرون: هذه الكلمة ليست بزائدة، ونحن نفسر الآية على القولين بعون الله تعالى وتوفيقه. أما القول المشهور: وهو أن هذه اللفظة زائدة، فاعلم أنه لا بد هاهنا من تقديم مقدمة وهي: أن أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل كانوا يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين، إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى لما أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام وعدهم بالأجر العظيم على ذلك الإيمان أتبعه بهذه الآية، والغرض منها أن يزيل عن قلبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم وغير حاصلة إلا في قومهم، فقال: إنما بالغنا في هذا البيان، وأطنبنا في الوعد والوعيد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ولا اعتراض عليه في ذلك أصلاً، أما القول الثاني: وهو أن لفظة (لا) غير زائدة، فاعلم أن

الضمير في قوله: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ عائد إلى الرسول وأصحابه، والتقدير: لئلا يعلم أهل الكتاب أن النبي والمؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأنهم إذا لم يعلموا أنهم لا يقدرون عليه فقد علموا أنهم يقدرون عليه، ثم قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي وليعلموا أن الفضل بيد الله، فيصير التقدير: إنا فعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد أهل الكتاب أنهم يقدرون على حصر فضل الله وإحسانه في أقوام معينين، وليعتقدوا أن الفضل بيد الله، واعلم أن هذا القول ليس فيه إلا أنا أضمرنا فيه زيادة، فقلنا في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ تقدير وليعتقدوا أن الفضل بيد الله وأما القول الأول: فقد افتقرنا فيه إلى حذف شيء موجد، ومن المعلوم أن الإضمار أولى من الحذف، لأن الكلام إذا افتقر إلى الإضمار لم يوهم ظاهره باطلاً أصلاً، أماإذا افتقر إلى الحذف كان ظاهره موهمًا للباطل، فعلمنا أن هذا القول أولى، والله أعلم.

**المسألة الثانية**: قال صاحب الكشاف: قرئ: (لِكَيْ يَعْلَمَ)، و(لِكَيْلاَ يَعْلَمَ)، و(لِيَعْلَمَ)، و(لِأَنْ يَعْلَمَ)، بإدغام النون في الياء، وحكى ابن جني في (المحتسب) عن قطرب: أنه روي عن الحسن: (لِيلاَ)، بكسر اللام وسكون الياء، وحكى ابن مجاهد عنه: (لَيْلا) بفتح اللام وجزم الياء من غير همز، قال ابن جني: وما ذكر قطرب أقرب، وذلك لأن الهمزة إذا حذفت بقي لِنَلاَّ فيجب إدغام النون في اللام فيصير (للا) فتجتمع اللامات فتجعل الوسطى لسكونها وانكسار ما قبلها ياء فيصير (لِيلا)، وأما رواية ابن مجاهد عنه، فالوجه فيه أن لام الجر إذا أضفته إلى المضمر فتحته تقول: فمنهم من قاس المظهر عليه، حكى أبو عبيدة أن بعضهم قرأ: (وَإِن كانَ مَكْرُهُم لَتَزولُ مِنهُ الجِبَالُ) [إبراهيم: ٤٦].

**وأما قوله تعالى**: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي في ملكه وتصرفه واليد مثل ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لأنه قادر مختار يفعل بحسب الاختيار ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والعظيم لا بد وأن يكون إحسانه عظيمًا، والمراد تعظيم حال محمد ﷺ في نبوته وشرعه وكتابه، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

# سورة الحديد

مدنيَّةٌ في قول الجميع، وهي تسع وعشرون آية[1].

عن العِرباض بن سارية أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد، ويقول: «إنَّ فيهنَّ آيةً أفضلُ من ألفِ آيةٍ»[2] يعني بالمسبِّحات: «الحديد» و«الحشر» و«الصف» و«الجمعة» و«التغابن».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مجَّد الله، ونزّهه عن السوء. وقال ابن عباس: صلَّى لِله «مَا فِي السَّمَواتِ» ممن خَلَق من الملائكة «وَالأَرْض» من شيء فيه رُوح أو لا رُوح فيه. وقيل: هو تسبيح الدلالة. وأنكر الزجَّاج[3] هذا وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهورِ آثار الصنعة لكانت مفهومةً؛ فلِمَ قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وإنَّما هو تسبيح مقال. واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] فلو كان هذا تسبيح دلالة، فأيُّ تخصيص لداود؟! قلت: وما ذكره هو الصحيح، وقد مضى بيانه والقول فيه في «سبحان»[4] عند قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الآية: ٤٤]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٥٧)، والترمذي (٢٩٢١)، والنسائي في الكبرى (٧٩٧٢)، وأحمد (١٧١٦٠). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ١٢١.

(٤) ١٣/ ٨٩.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: انفرد بذلك. والمُلْك عبارة عن المَلْك ونفوذ الأمر، فهو سبحانه الملك القادر القاهر. وقيل: أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق. ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يميت الأحياء في الدنيا، ويحيي الأموات للبعث. وقيل: يُحيي النُّطَف وهي موات، ويُميت الأحياء. وموضع «يُحْيِي وَيُمِيتُ» رفع على معنى: وهو يحيي ويميت. ويجوز أن يكون نصباً بمعنى «لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ» محيياً ومميتاً على الحال من المجرور في «لَهُ» والجار عاملاً فيها[١]. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: الله لا يُعجِزه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ اختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيَّنَّاها في الكتاب «الأسنى»[٢]. وقد شرحها رسول الله ﷺ شرحاً يغني عن قول كلِّ قائل، فقال في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «اللهمَّ أنت الأوَّل فليس قَبْلك شيء، وأنت الآخِر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدَّيْن، واغننا من الفقر»[٣] عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم، والله أعلم. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما كان أو يكون، فلا يخفى عليه شيء.

**قوله تعالى:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢١ .

(٢) ص ١٣٣ ، ١٥١ ، ٢٠٩ .

(٣) مسلم (٢٧١٣) : (٦١) ، وهو عند أحمد (٨٩٦٠) .

تقدّم في «الأعراف»[١] مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يَدخُل فيها من مطر وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من رِزْق ومطر ومَلَك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد[٢] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني: بقدرته وسلطانه وعِلْمه[٣] ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يبصر أعمالكم ويراها، ولا يخفى عليه شيء منها. وقد جمع في هذه الآية بين «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» وبين «وَهُوَ مَعَكُمْ» والأخذ بالظاهرين تناقض، فدلَّ على أنَّه لا بُدَّ من التأويل، والإعراضُ عن التأويل اعتراف بالتناقض. وقد قال الإمام أبو المعالي: إنَّ محمَّداً ﷺ ليلةَ الإسراء لم يكن بأقربَ إلى الله عزَّ وجلَّ من يونس بنِ متى حين كان في بطن الحوت. وقد تقدَّم[٤].

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا التكرير؛ للتأكيد، أي: هو المعبود على الحقيقة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمور الخلائق في الآخرة.

وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حَيْوة وابن مُحَيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخَلَف: «تَرْجِع»[٥] بفتح التاء وكسر الجيم، الباقون: «تُرْجَعُ».

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٦]. ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: لا تخفى عليه الضمائر[٧]، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يُعبَد من سواه.

---

(١) ٩/ ٢٣٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٠.

(٤) ١٨/ ٩٦.

(٥) النشر ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٦) ٥/ ٨٥ - ٨٦.

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٨٨.

**قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾**

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: صدِّقوا أنَّ الله واحد، وأنَّ محمداً رسوله[1] ﴿وَأَنفِقُوا﴾ تصدَّقوا. وقيل: أنفقوا في سبيل الله. وقيل: المراد الزكاة المفروضة. وقيل: المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه[2] ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ دليل على أنَّ أصل الملك لله سبحانه، وأنَّ العبد ليس له فيه إلا التصرُّف الذي يُرضِي الله، فيثيبه على ذلك بالجنَّة، فمن أنفق منها في حقوق الله وهانَ عليه الإنفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه، كان له الثواب الجزيل والأجْر العظيم[3]. وقال الحسن: «مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» بوراثتكم إيَّاه عمَّن كان قبلكم[4]. وهذا يدلُّ على أنَّها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النُّوَّاب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحقِّ قبل أن تُزال عنكم إلى من بعدكم[5]. ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وعملوا الصالحات ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُوا﴾ في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام يُراد به التوبيخ. أي: أيُّ عُذْرٍ لكم في ألَّا تؤمنوا وقد أُزيحت العلل؟! ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ بيَّن بهذا أنَّه لا حكم قبل ورود الشرائع.

وقرأ أبو عمرو: «وقد أُخِذَ ميثاقُكم» على غير مسمَّى الفاعل[6]. والباقون على

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٢.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧١.
(٣) الكشاف ٤/ ٦١ بنحوه.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧١.
(٥) الكشاف ٤/ ٦١.
(٦) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٢٠٨.

مسمّى الفاعل؛ أي: أخذ الله ميثاقكم. قال مجاهد: هو الميثاق الأوّل الذي كان وهم في ظهر آدم بأنَّ الله ربّكم لا إله لكم سواه[١]. وقيل: أخذ مِيثاقكم بأن ركَّب فيكم العقول، وأقام عليكم الدلائل والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ﷺ[٢]. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إذ كنتم. وقيل: أي: إن كنتم مؤمنين بالحُجَج والدلائل[٣]. وقيل: أي: إن كنتم مؤمنين بحقٍّ يوماً من الأيام؛ فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا؛ لقيام الحُجَج والأعلام ببعثة محمَّد ﷺ، فقد صحَّت براهينه[٤]. وقيل: إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم. وكانوا يعترفون بهذا. وقيل: هو خطاب لقوم آمنوا، وأخذ النبيُّ ﷺ ميثاقهم، فارتدُّوا. وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أي: إن كنتم تقرُّون بشرائط الإيمان.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يريد القرآن[٥]. وقيل: المعجزات؛ أي: لزمكم الإيمان بمحمَّد ﷺ؛ لما معه من المعجزات، والقرآنُ أكبرها وأعظمها. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي: بالقرآن. وقيل: بالرسول. وقيل: بالدعوة. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهو الإيمان[٦]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

**فيه خمس مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أيُّ شيء يمنعكم من

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٦ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٩٠ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤ .

(٣) زاد المسير ٨/ ١٦٣ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢٤٥ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤ .

الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقرِّبكم من ربِّكم، وأنتم تموتون وتخلِّفون أموالكم، وهي صائرة إلى الله تعالى[١]. فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: إنَّهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحقِّ له[٢].

**الثانية**: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أكثر المفسِّرين على أنَّ المراد بالفتح فتح مكة. وقال الشعبيُّ والزهريُّ: فتح الحُدَيْبية[٣]. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضلُ من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضلُ من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكَّة أفضلَ من القتال والنفقة بعد ذلك[٤]. وفي الكلام حذف، أي: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف؛ لدلالة الكلام عليه[٥]. وإنَّما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأنَّ حاجة الناس كانت أكثر؛ لضعف الإسلام، وفِعْلُ ذلك كان على المنفقين حينئذٍ أشقّ، والأَجْر على قدر النَّصَب[٦]، والله أعلم.

**الثالثة**: روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يُقدَّم أهل الفَضْل والعزم، وقد قال الله تعالى: «لا يَسْتَوي مِنْكُم من أَنْفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ وقَاتَلَ». وقال الكلبيُّ: نزلت في أبي بكر ﷺ؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر ﷺ وتقديمه؛ لأنَّه أوَّل من أسلم. وعن ابن مسعود: أوَّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ ﷺ وأبو بكر؛ ولأنَّه أوَّل من أنفق على نبيِّ الله ﷺ. وعن ابن عمر قال: كنت عند النبيِّ ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّلَها في صدره بِخِلال، فنزل جبريل فقال: يا نبيَّ الله! ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧١.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٩٣.
(٥) الكشاف ٤/ ٦٢.
(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٩، وما بعده منه أيضاً.

قد خلَّلَها في صدره بِخِلال؟ فقال: «قد أنفق عليَّ ماله قبل الفتح» قال: فإنَّ الله يقول لك: اقرأ على أبي بكر السلام وقل له: أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرأ عليك السلام، ويقول: أراضٍ أنتَ في فقرك هذا أم ساخط»؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربِّي؟ إنِّي عن ربِّي لراضٍ! إنِّي عن ربِّي لراضٍ! إنِّي عن ربِّي لراضٍ! قال: «فإنَّ الله يقول لك: قد رضيتُ عنك كما أنتَ عنِّي راضٍ» فبكى أبو بكر، فقال جبريل عليه السلام: والذي بعثكَ يا محمد بالحقِّ، لقد تَخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تَخلَّل صاحبك هذا بالعباءة[1]. ولهذا قدَّمته الصحابة على أنفسهم، وأقرُّوا له بالتقدُّم والسَّبق.

وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: سبق النبيُّ ﷺ وصلَّى أبو بكر وَثَلَّثَ عمر؛ فلا أوتى برجل فَضَّلني على أبي بكر إلا جلدته حدَّ المفتري ثمانين جلدةً وطرح الشهادة[2]. فنال المتقدِّمون من المشقَّة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضًا أنفذ.

**الرابعة**: التقدُّم والتأخُّر قد يكون في أحكام الدنيا، فأمَّا في أحكام الدِّين فقد قالت عائشة رضي الله عنها: أَمَرَنا رسول الله ﷺ أن نُنْزِل الناسَ منازلهم. وأعظم المنازل مرتبةً الصلاة. وقد قال ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس»

(١) الوسيط ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٣١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٤ - ٢٩٥، والحديث أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٨٥، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ١٠٥ - ١٠٦، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٢/ ١٠٥ من طرق ودون الزيادة الأخيرة، وهي من قوله ﷺ: فإن الله يقول لك: «قد رضيت عنك...» إلى آخر الحديث، ولم نقف عليها. وفي إسناد بعض طرقه: العلاء بن عمرو، قال عنه ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به بحال. اهـ. وفي بعضها الآخر: محمد بن بابشاذ، قال عنه البغدادي: في حديثه غرائب ومناكير.

(٢) أخرجه أحمد (١٠٢٠)، وابن سعد في الطبقات ٦/ ١٣٠، وأبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٥٨، والطبراني في الأوسط (١٦٦١) من طرق ومقتصرين على شطره الأول مع زيادة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٥٤: رواه أحمد، وقال: ثم خبطتنا فتنة، يريد أن يتواضع بذلك. رواه الطبراني في الأوسط، ورجال أحمد ثقات. اهـ. ومعنى قوله ﷺ: وصلَّى أبو بكر. أي: أتى ثانياً، والمصلِّي في خيل الحلبة هو الثاني، سُمِّي به؛ لأن رأسه يكون عند صَلَا الأول، وهو ما عن يمين الذَّنَب وشماله. النهاية (صلا).

الحديث[١]. وقال: «يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله» وقال: «وليؤمّكما أكبركما» من حديث مالك بن الحُوَيْرث وقد تقدَّم[٢]. وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كِبر المنزلة، كما قال ﷺ: «الولاء لِلكبر»[٣] ولم يَعْنِ كِبَرَ السِّنِّ. وقد قال مالك وغيره: إنَّ للسنِّ حقاً. وراعاه الشافعيُّ وأبو حنيفة، وهو أحقُّ بالمراعاة؛ لأنَّه إذا اجتمع العِلْم والسِّنُّ في خيِّرين، قُدِّم العِلْم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتَّبة على أحكام الدِّين، فمن قُدِّم في الدين قُدِّم في الدنيا. وفي الآثار: «ليس مِنَّا من لم يُوقِّر كبيرَنَا، ويرحمْ صغيرنا، ويعرفْ لعالمنا حقَّه»[٤]. ومن الحديث الثابت في الأفراد: «ما أكرم شابٌّ شيخاً لسِنِّه إلا قَيَّض الله له عند سنِّه من يُكرِمه»[٥]. وأنشدوا:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٩، وما بعده منه أيضاً، وحديث عائشة أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) وقال: ميمون لم يدرك عائشة. اهـ. وأورده مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ٦. والحديث الآخر سلف ٢/ ٣٧.

(٢) الحديث الأول سلف ٢/ ٣٦، والثاني سلف ٨/ ٦٢ - ٦٣.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠، وما بعده منه أيضاً، والحديث لم نقف عليه مرفوعاً، وإنما أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٦٢٣٨)، والدارمي (٣٠٢٢) عن علي وعمر وزيد بن ثابت أنهم كانوا يجعلون الولاء للكبر. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٤٠٤ عن عمر وعبد الله وزيد، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٣٠٦ عن علي وعبد الله وزيد بن ثابت من قولهم. وورد عند بعضهم: الولاء للكبير. وذكره الزيلعي في نصب الراية ٤/ ١٥٥ وعزاه للقاسم بن حزم السرقسطي في كتابه «غريب الحديث» وقال: وقال في موضع آخر: قال يعقوب: الولاء للكُبْر - بضمِّ الكاف - وهو أكبر ولد الرجل المعتق. انتهى.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠، وقول مالك في المدونة ١/ ٨٣، والحديث أخرجه أحمد (٦٩٣٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٨)، والترمذي (١٩٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو، ودون قوله ﷺ: «ويعرف لعالمنا حقَّه» وأخرجها أحمد (٢٢٧٥٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣٢٨) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٢٧: رواه أحمد والطبراني في الكبير، وإسناده حسن. اهـ. وقال الترمذي عن حديث عبد الله بن عمرو: حديث حسن صحيح.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠، والحديث أخرجه الترمذي (٢٠٢٢)، والعقيلي في الضعفاء الكبير ٤/ ٣٧٥ عن أنس ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ يزيد ابن بيان. اهـ. وقال العقيلي: لا يتابع عليه ولا يعرف إلا به.

يا عائبًا للشيوخ مِن أشَر — دَاخَلَهُ في الصِّبَا ومِن بَذَخِ
اذكر إذا شئتَ أن تُعيِّبهُمْ — جَدَّكَ واذكر أباك يابن أخِ
واعلم بأن الشباب منسلِخٌ — عنك وما وِزْرُه بمنسلِخِ
من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ — يوماً به سِنُّه إلى الشَّيَخِ[1]

**الخامسة**: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المتقدِّمون المتناهون السابقون، والمتأخِّرون اللاحقون، وعَدَهم الله جميعاً الجنَّة مع تفاوت الدرجات[2].

وقرأ ابن عامر: «وَكُلٌّ» بالرفع، وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام[3]. الباقون: «وَكُلًّا» بالنصب على ما في مصاحفهم، فمن نصب؛ فعلى إيقاع الفعل عليه، أي: وَعد الله كلًّا الحسنى. ومن رفع؛ فلأنَّ المفعول إذا تقدَّم ضَعُفَ عمل الفعل، والهاء محذوفة من وَعَدَه[4].

**قوله تعالى**: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ندب إلى الإنفاق في سبيل الله. وقد مضى في «البقرة»[5] القول فيه. والعرب تقول لكلٍّ من فَعَلَ فِعْلًا حسنًا: قد أقرض. كما قال:

وإذا جُوزِيتَ قَرْضاً فَاجْزِهِ — إنَّما يَجْزِي الفتى ليس الْجَمَلْ[6]

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠، ونسبه لابن عبد الصمد السرقسطي، وورد فيه وفي (م): تُعيِّرهم، بدل: تُعيِّبهم.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٣.

(٣) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٢٠٨.

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٥) ٤/ ٢١٩.

(٦) القائل لبيد، وسلف ٤/ ٢٢٢.

وَسُمِّيَ قرضاً؛ لأنَّ القرض أُخرِج لاسترداد البدل. أي: من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدِله الله بالأضعافِ الكثيرة. قال الكلبي: «قرضاً» أي: صدقة «حَسَناً» أي: محتسباً مِن قلبه بلا مَنٍّ ولا أذًى. ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ ما بين السبع إلى سبع مئة، إلى ما شاء الله من الأضعاف[١]. وقيل: القرض الحسن هو أن يقول: سبحانَ الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، رواه سفيان عن أبي حيان. وقال زيد ابن أسلم: هو النفقة على الأهل. الحسن: التطوُّع بالعبادات. وقيل: إنَّه عمل الخير، والعرب تقول: لي عند فلان قرضُ صِدْقٍ، وقرضُ سُوء[٢]. القشيريُّ: والقرض الحسن أن يكون المتصدِّق صادقَ النِّيَّة، طيِّب النفس، يبتغي به وجه الله، دون الرياء والسُّمعة، وأن يكون من الحلال.

ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الرديء فيخرجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وأن يتصدَّق في حال يأمل الحياة؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ سئل عن أفضلِ الصدقة فقال: «أن تُعطِيَه وأنت صحيح شحيح تأمل العيشَ، ولا تُمْهِلْ حتى إذا بلغت التراقي قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا»[٣]. وأن يُخفيَ صدقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وألَّا يَمُنَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وأن يستحقرَ كثيرَ ما يُعطي؛ لأنَّ الدنيا كلَّها قليلة، وأن يكون من أحبِّ أمواله؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وأن يكون كثيراً؛ لقوله ﷺ: «أفضل الرِّقاب أغلاها ثمنًا، وأَنْفَسُها عند أهلها»[٤].

«فَيُضَاعِفَهُ لَهُ» وقرأ ابن كثير وابن عامر: «فَيُضَعِّفُه» بإسقاط الألف إلا ابنَ عامر

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢١ و٣٠/ ٢٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٢، وقول أبي حيان أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥١٠، وابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٤٦١ (٢٤٣٣)، وقول زيد بن أسلم أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٤٦٠ (٢٤٣٢).

(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٧، وما بعده منه أيضاً، والحديث سلف تخريجه ٣/ ٦٢ بالهامش.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٧، والحديث سلف تخريجه ١٠/ ٥٨.

ويعقوب نصبوا الفاء. وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة: «فَيُضَاعِفُهُ» بالألف وتخفيف العين إلا أنَّ عاصماً نصب الفاء، ورفع الباقون[١] عطفاً على «يُقْرِضُ». وبالنصب جواباً على الاستفهام. وقد مضى في «البقرة»[٢] القول في هذا مستوفى. ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ يعني الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ»[٣]، وفي الكلام حذف، أي: «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» في «يَوْم تَرَى» فيه ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ أي: يمضي على الصراط، في قول الحسن[٤]، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: قدَّامهم. ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ قال الفرَّاء[٥]: الباء بمعنى «في» أي: في إيمانهم. أو بمعنى «عن» أي: عن أيمانهم. وقال الضحَّاك[٦]: «نُورُهُم» هُدَاهُم «وَبِأَيْمَانِهِمْ» كتبهم، واختاره الطبريُّ[٧]. أي: يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم. فالباء على هذا بمعنى «في». ويجوز على هذا أن يوقف على «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» ولا يوقف إذا كانت بمعنى «عن».

وقرأ سهل بن سعد الساعدي وأبو حيوة: «وبِإِيمانِهِم» بكسر الألف[٨]، أراد الإيمان الذي هو ضدُّ الكفر. وعطف ما ليس بظرف على الظرف؛ لأنَّ معنى الظرف الحال، وهو متعلِّق بمحذوف. والمعنى: يسعى كائنًا «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» وكائنًا «بِإِيْمَانِهِمْ»، وليس قوله: «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» متعلِّقًا بنفس «يَسْعَى».

(١) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

(٢) ٤/ ٢٢٧.

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧١٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٣.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٢.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٥.

(٧) في تفسيره ٢٢/ ٣٩٨ بإسناده عنه.

(٨) القراءات الشاذة ص ١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١١، وما بعده منه.

وقيل: أراد بالنور: القرآن. وعن ابن مسعود: يُؤْتَوْنَ نورهم على قَدْر أعمالهم، فمنهم من يُؤتَى نوره كالنخلة، ومنهم من يُؤتَى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً مَن نوره على إبهام رِجْله، فيُطفأ مرَّةً ويُوقَد أخرى[١]. وقال قتادة: ذكر لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ مِن المؤمنين من يُضِيءُ نُوره كما بين المدينة وعدنٍ [أَبْيَنَ من اليَمَن أو صنعاء[٢]]، ودون ذلك، حتى يكون منهم من لا يُضِيءُ نوره إلا موضع قدميه». قال الحسن: ليستضيؤوا به على الصراط، كما تقدَّم. وقال مقاتل: ليكون دليلاً لهم إلى الجنَّة[٣]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ التقدير: يقال لهم: «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جنَّاتٍ. ولا بُدَّ من تقدير حذف المضاف؛ لأنَّ البشرى حدث، والجنَّة عين، فلا تكون هي هي[٤]. «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» أي: من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الدخول المحذوف، التقدير: «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جنَّاتٍ «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» مقدرين الخلود فيها، ولا تكون الحال من بشراكم؛ لأنَّ فيه فصلاً بين الصلة والموصول. ويجوز أن يكون مما دلَّ عليه البشرى، كأنَّه قال: تبشرون خالدين. ويجوز أن يكون الظرف الذي هو «الْيَوْمَ» خبراً عن «بُشْرَاكُمْ»، و«جَنَّاتٌ» بدلاً من البشرى، على تقدير حذف المضاف، كما تقدَّم. و«خَالِدِينَ» حال حسب ما تقدَّم. وأجاز الفرَّاء[٥] نصب «جَنَّات» على الحال، على أن يكون «الْيَوْمَ»

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/٢٩٩، والطبري ٢٢/٣٩٨.

(٢) ما بين حاصرتين في (د) هكذا: أو ما بين اليمن وصنعاء. وفي (م): أو ما بين المدينة وصنعاء. والمثبت من (ظ)، وتفسير البغوي ٤/٢٩٥، وتفسير الطبري ٢٢/٣٩٧ - ٣٩٨ بإسناده عنه، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/٢٧٥. قال الحَمَوي في معجم البلدان ٤/٨٩: عَدَن، بالتحريك، وآخره نون: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ... وتضاف إلى أَبْيَن، وهو مخلاف عدن من جملته.

(٣) النكت والعيون ٥/٤٧٣.

(٤) البيان لابن الأنباري ٢/٤٢١، والمشكل لمكي ٢/٧١٧.

(٥) في معاني القرآن له ٣/١٣٢، ونقله عنه المصنف بواسطة مكي بن أبي طالب في المشكل ٢/٧١٧.

خبراً عن «بُشْرَاكُمُ» وهو بعيد، إذ ليس في «جَنَّات» معنى الفعل. وأجاز أن يكون «بُشْرَاكُمُ» نصبًا على معنى: يبشرونهم بشرى، وينصب «جنَّات» بالبشرى، وفيه تفرقة بين الصلة والموصول.

**قوله تعالى:** ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ». وقيل: هو بدل من اليوم الأول[(١)]. ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ قراءة العامَّة: بوصل الألف مضمومة الظاء، من نظر، والنظر: الانتظار، أي: انتظرونا. وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثَّاب: «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء[(٢)]، من الإنظار. أي: أمهلونا وأخِّرونا، أنظرته: أخَّرته. واستنظرته أي: استمهلته[(٣)]. وقال الفرَّاء[(٤)]: تقول العرب: أنظِرني: انتظرني، وأنشد لعمرو بنِ كُلْثوم:

أبا هِندٍ فلا تَعْجلْ علَيْنَا ... وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليقينَا

أي: انتظرنا. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضيء من نوركم[(٥)]. قال ابن عباس وأبو أمامة: يغشى الناسَ يوم القيامة ظلمةٌ ـ قال الماورديُّ[(٦)]: أظنُّها بعد فصل القضاء ـ ثم يعطون نوراً يمشون فيه. قال المفسِّرون: يُعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على

(١) المشكل لمكي ٢/٧١٨.

(٢) السبعة ص ٦٢٥ – ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، وتفسير الطبري ٢٢/ ٤٠٠.

(٣) الصحاح (نظر).

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٣، والبيت الآتي سلف ٢/ ٢٩٨.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٤٧٤ وما قبله منه أيضاً، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٠١ عن ابن عباس.

قَدْر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويُعطي المنافقين أيضًا نوراً خديعةً لهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[1] [النساء: ١٤٢] وقيل: إنَّما يُعطَون النور؛ لأنَّ جميعَهم أهلُ دعوة دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره؛ لنفاقه، قاله ابن عباس[2]. وقال أبو أمامة: يُعطى المؤمن النور، ويُترَك الكافر والمنافق بلا نور[3]. وقال الكلبيُّ: بل يَستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يُعطَون النور، فبينما هم يمشون، إذ بعث الله فيهم ريحًا وظلمة، فأطفأ بذلك نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يقوله المؤمنون؛ خشيةَ أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضعَ أقدامهم قالوا للمؤمنين: «انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ».

﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: «ارْجِعُوا». وقيل: بل هو قول المؤمنين لهم[4]: «ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ» إلى الموضع الذي أخذنا منه النور، فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً، فإنَّكم لا تقتبسون من نورنا. فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور، ضرب بينهم بسور. وقيل: أي: هلَّا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا. «بِسُورٍ» أي: سُورٌ؛ والباء صلة[5]. قاله الكسائيُّ. والسُّور: حاجز بين الجنَّة والنار. وروي أنَّ ذلك السُّور ببيت المَقْدس عند موضع يعرف بوادي جهنَّم[6]. ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ يعني: ما يلي منه المؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: ما يلي المنافقين. قال كعب الأحبار: هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة. وقال عبد الله ابن عمرو: إنَّه سُور بيت المقدس الشرقيُّ، باطنه فيه المسجد «وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٧ (١٨٨٢٢) و(١٨٨٢٣) بنحوه .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦ .

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٠١ - ٤٠٢ ، وأخرج القول الأخير عن ابن عباس وكعب وعبد الله بن عمرو ، وسيوردهم المصنف قريباً .

﴿الْعَذَابُ﴾ يعني: جهنَّم. ونحوه عن ابن عباس[(١)]. وقال زياد بن أبي سوادة: قام عبادة بن الصامت على سُور بيت المقدس الشرقيِّ فبكى، وقال: من هَاهُنَا أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّه رأى جهنَّم[(٢)]. وقال قتادة: هو حائط بين الجنَّة والنار ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ يعني: الجنَّة ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ يعني: جهنَّم[(٣)]. وقال مجاهد: إنَّه حجاب كما في «الأعراف» وقد مضى القول فيه[(٤)]. وقد قيل: إنَّ الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين[(٥)].

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا، يعني: نصلِّي مثل ما تصلُّون [ونغزوا مثل ما تغزون[(٦)]] ونفعل مثل ما تفعلون ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: يقول المؤمنون: «بَلَى» قد كنتم معنا في الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: استعملتموها في الفتنة. وقال مجاهد: أهلكتموها بالنِّفاق. وقيل: بالمعاصي، قاله أبو سنان. وقيل: بالشهوات واللذات، رواه أبو نمير الهمْدانيُّ[(٧)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦ عن كعب وابن عمرو ، وسلف تخريجه عنهما - وعن ابن عباس - في التعليق السابق .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٢ ، والحديث أخرجه ابن حبان (٧٤٦٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٦٦)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٢٩ من طريق سعيد بن عبد العزيز، عن زياد بن أبي سوادة، به. وسعيد بن عبد العزيز قد اختلط قبل موته، وزياد بن أبي سوادة قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل ٣/ ٥٣٤ : لا أراه سمع من عبادة بن الصامت. اهـ. وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٨-٤٧٩ ، عن محمد بن ميمون، عن بلال بن عبد الله، عن عبادة، به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: بل منكر، وآخره باطل؛ لأنه ما اجتمع عبادة برسول الله ﷺ هناك، ثم من هو ابن ميمون وشيخه؟ وفي نسخة أبي مسهر: عن سعيد عن زياد بن أبي سوادة قال: رئي عبادة. . . فهذا المرسَل أجود. اهـ.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠٤ مختصراً.

(٤) ١١/ ٢٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥ .

(٦) ما بين حاصرتين جاءت في (ظ) و(د) هكذا: ونقرأ مثل ما تقرؤون. والمثبت من (م) ، والنكت والعيون ٥/ ٤٧٦ والكلام منه .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥ .

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: «تَرَبَّصْتُمْ» بالنبيِّ ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر. وقيل: «تَرَبَّصْتُمْ» بالتوبة «وارْتَبْتُمْ» أي: شككتم في التوحيد والنبوَّة. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي: الأباطيل[١]. وقيل: طول الأمل[٢]، وقيل: هو ما كانوا يتمنَّونه من ضَعْفِ المؤمنين ونزول الدوائر بهم[٣]. وقال قتادة: الأماني هنا: خِدَع الشيطان. وقيل: الدنيا، قاله عبد الله بن عباس. وقال أبو سنان: هو قولهم: سَيُغْفَر لنا[٤]. وقال بلال بن سعد: ذِكْرك حسناتِك، ونسيانك سيئاتِك غِرَّة. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: الموت. وقيل: نصرة نبيِّه ﷺ. وقال قتادة: إلقاؤهم في النار[٥].

﴿وَغَرَّكُم﴾ أي: خدعكم ﴿بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان، قاله عكرمة. وقيل: الدنيا، قاله الضحاك[٦]. وقال بعض العلماء: إنَّ للباقي بالماضي معتَبَرًا، وللآخِر بالأوَّل مزدجَرًا، والسعيد من لا يغترُّ بالطمع، ولا يركن إلى الخُدَع، ومن ذكر المنيَّة نسي الأمنيَّة، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل. وجاء «الْغَرُورُ» على لفظ المبالغة للكثرة[٧].

وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْفَع وسِمَاك بن حرب: «الغُرُورُ» بضمِّ الغين[٨]، يعني: الأباطيل، وهو مصدر.

وعن ابن عباس: أنَّ نبيَّ الله ﷺ خطَّ لنا خطوطًا، وخطَّ منها خطًّا ناحية فقال: «أتدرون ما هذا؟ هذا مَثَلُ ابنِ آدم ومثل التمنِّي، وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت»[٩]. وعن ابن مسعود قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا مربعًا،

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٥.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٣.
(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٩.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٠٦ عن قتادة.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، دون قوله: وقيل: نصرة نبيِّه ﷺ. فمن معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٥.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥٩.
(٨) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١١.
(٩) لم نقف عليه.

وخطَّ وسطه خطًّا وجعله خارجًا منه، وخطَّ عن يمينه ويساره خطوطًا صغارًا فقال: «هذا ابن آدم، وهذا أَجَلُه محيط به، وهذا أَمَلُه قد جاوز أجلَه، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أَخْطَأه هذا نهشه هذا، وإن أَخْطَأه هذا نهشه هذا»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيُّها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ أيْأَسَهم من النجاة. وقراءة العامة: «يُؤْخَذُ» بالياء؛ لأنَّ التأنيثَ غيرُ حقيقيٍّ؛ ولأنَّه قد فصل بينها وبين الفعل. وقرأ ابن عامر ويعقوب: «تُؤْخَذُ» بالتاء[(٢)]، واختاره أبو حاتم؛ لتأنيث الفدية. والأوَّل اختيار أبي عبيد، أي: لا يقبل منكم بَدَل ولا عِوَض ولا نَفْس أخرى. ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ أي: مقامكم ومنزلكم ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾ أي: أَوْلَى بكم[(٣)]، والمولى: من يتولَّى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازمًا للشيء. وقيل: أي: النار تملك أمرهم[(٤)]، بمعنى أنَّ الله تبارك وتعالى يُركِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميَّز غيظًا على الكفَّار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: ساءت مرجعًا ومصيرًا.

**قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: يقرب ويحين[(٥)]، قال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٧)، قال ابن حجر في فتح الباري ١١/ ٢٣٨: الأعراض، جمع عَرَض - بفتحتين -: وهو ما ينتفع به في الدنيا في الخير والشر. ونَهَشَه: أصابه.

(٢) السبعة ص ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨٤، والكشف لمكي ٢/ ٣١٠ - ٣١١.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٢، وغريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٣.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٨، وما بعده منه.

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرِكَ الجهلا　　　وأن يُحْدِثَ الشَّيبُ المبينُ لنا عَقْلَا[١]

وماضيه: أَنَى ـ بالقصر ـ يَأْنِي[٢]. ويقال: آنَ لكَ ـ بالمد ـ أن تفعل كذا، يَئِينُ أَيْناً، أي: حَانَ، مثل أَنَى لك، وهو مقلوب منه[٣]. وأنشد ابن السِّكِّيت:

أَلَمَّا يَئِنْ لِي أَنْ تُجَلَّى عَمَايَتِي　　　وأُقْصِرُ عن لَيْلَى بَلَى قَدْ أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين.

وقرأ الحسن: «أَلَمَّا يَأْنِ»[٤]، وأصلها «أَلَمْ» زيدت «ما» فهي نفي لقول القائل: قد كان كذا، و«لم» نفي لقوله: كان كذا.

وفي «صحيح مسلم»[٥] عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا اللهُ بهذه الآية: «أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ» إلا أربعُ سنين.

قال الخليل: العتاب: مخاطبة الإدلال، ومذاكرة المَوْجِدة[٦]. تقول: عاتبته معاتبة ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ أي: تذلَّ وتلين ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ روي أنَّ المزاح والضحك كثر في أصحاب النبيِّ ﷺ لما ترفَّهوا بالمدينة، فنزلت الآية[٧]؛ ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إنَّ الله يستبطئكم بالخشوع»[٨] فقالوا عند ذلك: خَشَعنا. وقال ابن عباس: إنَّ الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاثة عشرة سنة من نزول القرآن[٩].

---

(١) القائل كُثَيِّر عزَّة، وهو في ديوانه ص ٢١٥، ورواية عجزه هكذا:

وأن يُحدِث الشيب الملمُّ ليَ العقلا

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٥٣.

(٣) الصحاح (أين)، وما بعده منه أيضاً.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١٢، وما بعده منه.

(٥) برقم (٣٠٢٧).

(٦) الصحاح (عتب)، وما بعده منه أيضًا، والمصنف نقله عنه بواسطة المفهم ٧/ ٤٠٦، وما بعده منه أيضاً.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٨ (١٨٨٢٣) عن مقاتل بن حيان.

(٨) لم نقف عليه.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٨ (١٨٨٢٥).

وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة. وذلك أنَّهم سألوا سلمانَ أن يُحدِّثهم بعجائب التوراة فنزلت: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية [يوسف:١-٣]؛ فأخبرهم أنَّ هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفُّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأوَّل فنزلت: «أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لِذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ» فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان[1].

قال السديُّ وغيره: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا» بالظاهر، وأسرُّوا الكفر «أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ». وقيل: نزلت في المؤمنين[2].

قال سعد: قيل: يا رسول الله، لو قصصتَ علينا، فنزل: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ» فقالوا بعد زمان: لو حدَّثْتَنَا، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣] فقالوا بعد مدَّة: لو ذكَّرتنا، فأنزل الله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لِذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ»[3]. ونحوه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول: ما أَحدثنا؟ قال الحسن: استبطأهم وهم أحبُّ خَلْقه إليه[4].

وقيل: هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام؛ لأنَّه قال عقيب هذا: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ» أي: ألم يَأْنِ للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلينَ قلوبهم للقرآن، وألَّا يكونوا كمتقدِّمي قوم موسى وعيسى، إذ طال عليهم الأَمَد بينهم وبين نبيِّهم فقست قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ أي: وألَّا يكونوا، فهو منصوب عطفاً على «أَنْ

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧ وعزاه لابن عباس وابن مسعود والقاسم بن محمد.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٢ بإسناده عنه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧، وسلف تخريجه قريباً عن ابن مسعود.

تَخْشَعَ». وقيل: مجزوم على النهي[١]، مجازه: ولا يكونن، ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب: «لَا تَكُونوا» بالتاء[٢]، وهي قراءة عيسى وابن إسحاق. يقول: لا تسلكوا سبيلَ اليهود والنصارى، أُعطوا التوراةَ والإنجيلَ فطالت الأزمان بهم.

قال ابن مسعود: إنَّ بني إسرائيل لما طال عليهم الأمَد قست قلوبُهم، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استحلته أنفسهم، وكان الحقُّ يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون، ثم قالوا: اعْرِضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم فاتركوهم، وإلا فاقتلوهم. ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أَبَى قتلناه، فلا يختلف علينا بعده أحد، فأرسلوا إليه، فكتب كتابَ الله في ورقة وجعلها في [قَرنٍ] وعَلَّقها فِي عنقه، ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم، فعرضوا عليه كتابَهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنتُ بهذا. يعني: المعلَّق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بِضْع وسبعين مِلَّة، وخير مللهم أصحاب ذِي القَرْن. قال عبد الله: ومن يَعِشْ منكم فسيرى منكَراً، وبِحَسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيِّره أن يُعلِم اللهَ من قلبه أنَّه له كاره[٣].

وقال مقاتل بن حيان: يعني: مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد واستبطؤوا بَعْثَ النبيِّ ﷺ[٤].

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ يعني: الذين ابتدعوا الرهبانيَّة أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتديَّن به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى، ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعِث النبيُّ ﷺ فآمنوا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٠.

(٢) النشر ٢/ ٣٨٤.

(٣) أخرجه بتمامه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٩ (١٨٨٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٨٩)، وأخرجه مختصراً الطبري ٢٢/ ٤١٠، وما بين حاصرتين من مصادر التخريج، والقَرْن: الجعبة. اللسان (قرن).

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣٠ عن مقاتل بن سليمان.

به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فَسَّقهم اللهُ. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكَّة مجدِبِين، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة، ففتروا عمَّا كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا.

وذكر ابن المبارك[1]: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغني أنَّ عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تُكثِروا الكلام بغير ذِكْر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإنَّ القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنَّكم أرباب، وانظروا فيها ـ أو قال: في ذنوبكم ـ كأنَّكم عبيد، فإنَّما الناس رجلان، معافًى ومبتلًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

وهذه الآية: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ» كانت سببَ توبة الفُضيل بن عياض وابنِ المبارك ـ رحمهما الله تعالى. ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن ابن مروان القَلَانسيُّ قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق، قال: حدَّثنا علي بن يعقوب الزيَّات، قال: حدَّثنا إبراهيم بن هشام، قال: حدَّثنا زكريا بن أبي أبان، قال: حدَّثنا الليث بن الحارث، قال: حدَّثنا الحسن بن داهر، قال: سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال: كنت يوماً مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعًا بضَرْب العودِ والطُّنبور، فقمت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له: راشين السَّحَر، وأراد سنان يغنِّي، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان ـ يعني العود الذي بيده ـ ويقول: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ» قلت: بلى واللهِ! وكسرتُ العودَ، وصَرَفتُ مَن كان عندي، فكان هذا أوَّل زهدي وتشميري[2]. وبلغنا عن الشعر الذي أراد ابن المبارك أن يضرب به العود:

أَلَمْ يَأْنِ لي منك أن تَرْحَمَا ... وتَعْصِ العَواذِلَ واللُّوَّمَا

(١) في كتابه الزهد (١٣٥)، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية ٦/٣٢٨.
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣١٧) - ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٢/٤٠٧ بإسناد آخر عن ابن المبارك، ودون ذكر قوله: فضربت بصوت يقال له ... إلى قوله: يغني.

وتَــرْثِــي لِــصَــبٍّ بِــكــم مُــغْــرَم ... أقــام عــلــى هــجــرِكــم مَــأْتَــمَــا
يَــبِــيــتُ إِذَا جَــنَّــهُ لَــيْــلُــهُ ... يُــراعِــي الــكَــواكِــبَ والأَنْــجُــمَــا
ومــاذا عــلــى الــظَّــبــيِ لَــوْ أَنَّــهُ ... أَحَــلَّ مِــن الــوَصْــلِ مــا حَــرَّمَــا

وأما الفُضيل بن عياض فكان سبب توبته أنَّه عشق جاريةً، فواعدته ليلًا، فبينما هو يرتقِي الجدران إليها إذ سمع قارئًا يقرأ: «أَلَمْ يَأْنِ للَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ» فرجع القهقرى وهو يقول: بلى واللهِ قد آن! فآواه الليل إلى خَرِبَة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إنَّ فضيلًا يقطع الطريق. فقال الفضيل: أَوَّاه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهمَّ إنِّي قد تبتُ إليك، وجعلتُ توبتِي إليك جوار بيتك الحرام[1].

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: «يُحْيِي الْأَرْضَ» الجَدْبة «بَعْدَ مَوْتِهَا» بالمطر. وقال صالح المُرِّيُّ: المعنى: يُلَيِّن القلوب بعد قساوتها[2]. وقال جعفر بن محمد: يُحييها بالعدل بعد الجَوْر. وقيل: المعنى: فكذلك يُحيي الكافرَ بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة. وقيل: كذلك يُحيِي الله الموتى من الأمم، ويميِّز بين الخاشع قلبه وبين القاسي قلبه[3]. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنَّه لمحيي الموتى.

**قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣١٦)، والخَرِبة: موضع الخراب. والسابلة: المارُّون على الطرقات المتردِّدون في حوائجهم. المعجم الوسيط (خرب) و(سبل).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤ بنحوه.

الصاد فيهما[١]، من التصديق، أي: المصدِّقين بما أنزل الله تعالى. الباقون بالتشديد، أي: المتصدِّقين والمتصدِّقات، فأدغِمت التاء في الصاد، وكذلك في مصحف أُبيٍّ[٢]. وهو حثٌّ على الصدقات، ولهذا قال: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله. قال الحسن: كلُّ ما في القرآن من القَرْض الحسن فهو التطوُّع[٣]. وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبًا صادقًا. وإنَّما عطف بالفعل على الاسم؛ لأنَّ ذلك الاسم في تقدير الفعل، أي: إنَّ الذين صدَّقوا وأقرضوا ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ أمثالها. وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ الأعمش: «يُضَاعِفُه» بكسر العين وزيادة هاء[٤]. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: «يُضَعَّفُ» بفتح العين وتشديدها[٥]. ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ اختلف في «الشُّهَدَاء» هل هو مقطوع مما قبل، أو متَّصل به. فقال مجاهد وزيد بن أسلم: إنَّ الشهداء والصدِّيقين هم المؤمنون، وأنَّه متصل، وروى معناه عن النبيِّ ﷺ، فلا يُوقَف على هذا على قوله: «الصِّدِّيقُونَ» وهذا قول ابن مسعود في تأويل الآية[٦]. قال القشيريُّ: قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩] فالصدِّيقون هم الذين يتلون الأنبياء، والشهداء هم الذين يتلون الصدِّيقين، والصالحون يتلون الشهداء، فيجوز أن تكون

---

(١) السبعة ص ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٥٢.

(٣) سلف تخريجه عند الآية (١١) من هذه السورة.

(٤) لم نقف عليها.

(٥) السبعة ص ١٨٤ – ١٨٥، والتيسير ص ٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

(٦) أخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٤١٤ – ٤١٥، إلا أن خبر زيد بن أسلم أخرجه عنه، عن البراء بن عازب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مؤمنو أمتي شهداءُ. قال: ثم تلا النبيُّ ﷺ: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله فأولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾. وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٨، وينظر المكتفى في الوقف والابتداء للداني ص ٥٥٥ – ٥٥٦.

هذه الآية في جملة من صدَّق بالرسل، أعني: «والَّذين آمَنُوا باللهِ ورسلِه أولئك هُمُ الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ». ويكون المعنى بالشهداء، مَن شهِدَ لله بالوحدانية، فيكون صدِّيق فوق صدِّيق في الدرجات، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهل الجنَّات العلا ليراهم مَن دونهم، كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أُفق السماء، وإنَّ أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا»(١).

وروي عن ابن عباس ومسروق أنَّ الشهداءَ غيرُ الصدِّيقين(٢). فالشهداء على هذا منفصل مما قبله، والوقف على قوله: «الصِّدِّيقُونَ» حسن(٣). والمعنى: «والشهداء عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم» أي: لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم. وفيهم قولان:

أحدهما: أنَّهم الرسل يَشهدون على أُممهم بالتصديق والتكذيب، قاله الكلبيُّ، ودليله قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

الثاني: أنَّهم أُمم الرسل يَشهدون يوم القيامة، وفيما يشهدون به قولان: أحدهما: أنَّهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية. وهذا معنى قول مجاهد(٤). الثاني: يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أُممهم، قاله الكلبيُّ. وقال مقاتل قولاً ثالثاً: إنَّهم القتلى في سبيل الله تعالى. ونحوه عن ابن عباس أيضاً قال: أراد شهداء المؤمنين. والواو واو الابتداء. والصدِّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء(٥).

وقد اختلف في تعيينهم، فقال الضحَّاك: هم ثمانية نفر؛ أبو بكر وعليٌّ وزيد

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٦، والحديث لم نقف عليه مسنداً.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٨، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٤١٣، وعن مسروق - وحده - أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦.

(٣) ذكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٢٥، والداني في المكتفى في الوقف والابتداء ص ٥٥٥ أن الوقف على قوله تعالى: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ تامٌّ.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٩، وما بعده منه أيضاً.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦١.

وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة. وتابعهم عمر بن الخطاب ﷺ، ألحقه اللهُ بهم لما صدَّق نبيَّه ﷺ(١). وقال مقاتل بن حبان: الصدِّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفةَ عين(٢)، مثل مؤمن آل فرعون، وصاحب آل ياسين، وأبي بكر الصديق، وصاحب أصحاب الأخدود(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بالرسل والمعجزات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فلا أجر لهم ولا نور.

**قوله تعالى:** ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ وجه الاتصال أنَّ الإنسان قد يَترُك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل، وخوفًا من لزوم الموت، فبيَّن أنَّ الحياة الدنيا منقضِية فلا ينبغي أن يترك أَمْرَ الله محافظةً على ما لا يبقى.

و«ما» صلة، تقديره: اعلموا أنَّ الحياة الدنيا لعِب باطل ولهو فرح ثم ينقضي(٤).

وقال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. وقيل: إنَّه على المعهود من اسمه. قال مجاهد:

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٥١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٨، وجاءت تتمة العبارة فيهما هكذا: وتاسعهم عمر بن الخطاب ألحقه الله بهم؛ لما عرف من صدق نيته.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٥١، ونسبه إلى المقاتِلَيْن ابن حبان، وابن حيان.

(٣) في (م): وأصحاب الأخدود.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٨.

كلُّ لعب لهو[١]. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»[٢]، وقيل: اللَّعب: ما رَغَّب في الدنيا. واللَّهو: ما ألهى عن الآخرة، أي: شَغل عنها. وقيل: اللعب: الاقتناء. واللهو: النساء[٣]. ﴿وَزِينَةٌ﴾ الزينة: ما يتزيَّن به، فالكافر يتزيَّن بالدنيا ولا يعمل للآخرة[٤]، وكذلك من تزيَّن في غير طاعة الله.

﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخِلْقة والقوَّة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء[٥]. وفي «صحيح مسلم» عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد»[٦]. وصحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «أربع في أمتي من أَمْرِ الجاهلية: الفخر في الأحساب»[٧] الحديث. وقد تقدَّم جميع هذا. ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ لأنَّ عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة[٨]. قال بعض المتأخِّرين: «لَعِبٌ» كلعب الصبيان «وَلَهْوٌ» كلهو الفتيان «وَزِينَةٌ» كزينة النسوان «وَتَفَاخُرٌ» كتفاخر الأَقْران «وَتَكَاثُرٌ» كتكاثر الدُّهقان[٩]. وقيل: المعنى أنَّ الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء[١٠].

وعن عليٍّ ﷺ أنَّه قال لعمَّار: لا تحزن على الدنيا؛ فإنَّ الدنيا ستَّة أشياء: مأكول

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٢) ٨/ ٣٦١ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٧١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٦) مسلم (٢٨٦٥) : (٦٤) ، وسلف ١١/ ١٢٩ .

(٧) سلف ص٢٢٨ من هذا الجزء.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٩) الدهقان ، بكسر الدال وضمها : التاجر ، فارسي معرَّب . اللسان (دهق) .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٢ .

ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الدِّيباج وهو نَسْجُ دودة، وأفضل المشموم المِسْك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال، واللَّهِ، إنَّ المرأة لتزيّن أحسنها يراد به أقبحها.

ثم ضرب الله تعالى لها مثَلا بالزرع في غيث فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الكفَّار هنا: الزرَّاع؛ لأنَّهم يغطُّون البَذْر. والمعنى أنَّ الحياة الدنيا كالزرع يُعجِب الناظرين إليه، لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشِيمًا كأنْ لم يكن، وإذا أعجب الزرَّاع فهو غاية ما يستحسن[(١)]. وقد مضى هذا المثل في «يونس» و«الكهف»[(٢)] وقيل: الكفَّار هنا الكافرون بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين[(٣)]. وهذا قول حسن؛ فإنَّ أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها. وفي الموحِّدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلَّل عندهم وتدِقُّ إذا ذكروا الآخرة. وموضع الكاف رفع على الصفة[(٤)].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجفُّ بعد خضرته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: متغيِّرًا عما كان عليه من النضرة. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتًا وتِبْنًا فيذهب بعد حُسْنه، كذلك دنيا الكافر[(٥)]. ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: للكافرين. والوقف عليه حسن[(٦)]، ويبتدئ:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧ .

(٢) ١٠/ ٤٧٧ ، وعند الآية (٤٥) من سورة الكهف .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٨ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٦) لم نقف عليه .

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ﴾ أي: للمؤمنين. وقال الفرَّاء(١): «وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ» تقديره: إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يُوقَف على «شَدِيدٌ». ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هذا تأكيد ما سبق، أي: تغرُّ الكفَّار، فأما المؤمن فالدنيا له متاعُ بلاغٍ إلى الجنَّة(٢). وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرورِ، تزهيداً في العمل للدنيا، وترغيباً في العمل للآخرة.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: سارعوا بالأعمال الصالحة التي تُوجِب المغفرة لكم من ربِّكم(٣). وقيل: سارعوا بالتوبة(٤)؛ لأنَّها تؤدي إلى المغفرة، قاله الكلبيُّ. وقيل: التكبيرة الأولى مع الإمام، قاله مكحول. وقيل: الصف الأول(٥). ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لو وصل بعضها ببعض(٦). قال الحسن: يعني جميع السماوات والأرضين مبسوطتان، كلٌّ واحدة إلى صاحبتها. وقيل: يريد لرجل واحد، أي: لكلِّ واحد جنَّة بهذه السَّعَة. وقال ابن كيسان: عنى به جنَّة واحدة من الجنَّات. والعَرْض أقلُّ من الطول، ومن عادة العرب أنَّها تعبِّر عن سَعِة الشيء بعَرْضه دون طوله. قال:

كَأَن بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ      على الْخَائِفِ المطْلوبِ كفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كلُّه في «آلِ عمران»(٧). وقال طارق بن شهاب: قال قوم من أهل الحِيْرَة لعمر ﷺ: أرأيتَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْض» فأين النارُ؟ فقال لهم عمر: أرأيتم الليل إذا وَلَّى وجاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزعت بما في التوراة مثله(٨).

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٥ .
(٢) الوسيط ٤/ ٢٥٢ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٣ .
(٤) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٥٥ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨١ .
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ .
(٧) ٥/ ٣١٣ - ٣١٧ ، والبيت سلف تخريجه هناك ٥/ ٣١٥ .
(٨) سلف تخريجه ٥/ ٣١٥ .

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ شَرط الإيمانَ لا غير، وفيه تقويةُ الرجاء[١]. وقد قيل: شَرَط الإيمانَ هنا، وزاد عليه في «آل عمران» فقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [الآيـة: ١٣٤]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: إنَّ الجنَّة لا تُنال ولا تُدخَل إلا برحمة الله تعالى وفَضْله[٢]. وقد مضى هذا في «الأعراف»[٣] وغيرها. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَـٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: القَحْط وقلَّة النبات والثمار. وقيل: الجوائح في الزرع[٤]. ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بالأوصاب والأسقام، قاله قتادة. وقيل: إقامة الحدود، قاله ابن حيان. وقيل: ضيق المعاش، وهذا معنى رواية ابن جريج[٥]. ﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ الضمير في «نَبْرَأَهَا» عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع. وقال ابن عباس: من قبل أن يَخْلق المصيبة[٦]. وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس[٧]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: خَلْق ذلك وحِفْظ جميعه «عَلَى الله يَسِيرٌ»

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٥٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩.

(٣) ٩/ ٢٢٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨١ دون عزوه لمقاتل، والجوائح: جمع جائحة، وهي الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المالَ من سَنَة أو فتنة. اللسان (جوح).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٥، والطبري ٢٢/ ٤١٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٢٠.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ دون عزو، وما بعده منه أيضاً.

هيِّن. قال الربيع بن صالح: لما أُخِذَ سعيد بن جبير ﷺ بَكَيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بكَ، ولما تذهب إليه. قال: فلا تَبْكِ؛ فإنَّه كان في عِلْم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية[١]. وقال ابن عباس: لما خَلَق الله القَلَم قال له: اكتب. فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[٢]. ولقد ترك لهذه الآية جماعةٌ من الفضلاء الدواءَ في أمراضهم فلم يستعملوه؛ ثقةً بربِّهم، وتوكُّلًا عليه، وقالوا: قد علم الله أيَّام المرض وأيَّام الصحة، فلو حرص الخَلْق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا، قال الله تعالى: «مَا أَصَابَ من مُصِيبَةٍ في الأرضِ ولا في أنفسِكم إلَّا في كتابٍ من قَبْلِ أن نَبْرَأها».

وقد قيل: إنَّ هذه الآية تتَّصل بما قبل، وهو أنَّ الله سبحانه هوَّن عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قَتْلٍ وجَرْح، وبيَّن أنَّ ما يخلِّفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكلُّ مكتوب مقدَّر لا مدفع له، وإنَّما على المرء امتثال الأمر.

ثم أدَّبهم فقال هذا: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق. وذلك أنَّهم إذا علموا أنَّ الرزق قد فُرِغ منه لم يَأْسَوْا على ما فاتهم منه. وعن ابن مسعود أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «لا يجد أحدكم طَعْمَ الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» ثم قرأ: «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ»[٣]. أي: كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا ، فإنَّه لم يُقدَّر لكم، ولو قُدِّر

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/٣٢٨ .

(٢) سلف ١/٣٥٨ .

(٣) لم نقف عليه هكذا مرفوعاً ، بل أخرج عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٨٢) - ومن طريقه الطبراني في الكبير (٨٧٩٠) - عن معمر ، عن قتادة أن ابن مسعود قال : ثلاث من كنَّ فيه يجد حلاوة الإيمان : ترك المراء في الحق ، والكذب في المزاحة ، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٥٥ : رواه الطبراني ، وقتادة لم يسمع من ابن مسعود. اهـ .
وفي الباب عن جابر أنه قال: قال رسول الله ﷺ : لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشرِّه ، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . قال الترمذي : حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون ، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث .

لكم لم يفتْكم ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: من الدنيا، قاله ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: من العافية والخِصْب[١]. وروى عِكرمة عن ابن عباس: ليس مِن أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرًا، وغنيمته شكراً[٢]. والحزن والفرح المنهيُّ عنهما هم اللَّذان يتعدَّى فيهما إلى ما لا يجوز، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبِّر بما أُوتِيَ من الدنيا، فخور به على الناس.

وقراءة العامة: «آتَاكُمْ» بمدِّ الألف، أي: أعطاكم من الدنيا. واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو: «أَتَاكُمْ» بقَصْر الألف، واختاره أبو عبيد[٣]. أي: جاءكم، وهو معادل لـ«فَاتَكُمْ» ولهذا لم يقل: أفاتكم.

قال جعفر بن محمد الصادق: يا بنَ آدمَ مالَكَ تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفَوْت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت[٤]. وقيل لِبُزُرْجُمِهْر: أيُّها الحكيم! مالك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آتٍ؟ قال: لأنَّ الفائت لا يتلافى بالْعَبْرةِ، والآتي لا يُستدام بالحَبْرةِ[٥]. وقال الفضيل بن عِياض في هذا المعنى: الدنيا مُبِيد ومُفِيد، فما أباد فلا رجعةَ له، وما أفاد آذن بالرحيل. وقيل: المختال: الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار. والفخور: الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار. وكلاهما شِرْكٌ خفيٌّ. والفخور بمنزلة المُصَرَّاةِ تُشَدُّ أخلافها ليجتمع فيها

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢ ، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٢/ ٤٢١ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٠ (١٨٨٣٢) .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢ ، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٣ - ٣٧٤ ، والطبري ٢٢/ ٤٢١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٥ ، والقراءة في السبعة ص ٦٢٦ ، والتيسير ص ٢٠٨ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٧٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ .

(٥) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٥٦ ، والحَبْرة : السرور . القاموس (حبر). وبُزُرْجُمِهْر: وزير أنوشروان، واسمه مركَّب من جزأين : بُزُرْج ، وهو معرَّب بزرك ، أي : عظيم . ومهر بمعنى : شمس . تاج العروس (بزرج) ، وإعجام الأعلام لمحمود مصطفى ص ٧٣ - ٧٤ .

اللبن، فيتوهَّم المشتري أنَّ ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك الذي يرى من نفسه حالًا وزينةً وهو مع ذلك مدَّع فهو الفخور.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ أي: لا يحب المختالين «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ» فـ«الَّذِينَ» في موضع خفض، نعتًا للمختال[1]. وقيل: رفع بابتداء[2]، أي: الذين يبخلون فالله غنيٌّ عنهم. قيل: أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمَّد ﷺ التي في كتبهم؛ لِئلا يؤمنَ به الناس، فتذهب مأكلتهم، قاله السديُّ والكلبيُّ. وقال سعيد بن جبير: «الَّذِينَ يَبْخَلُون» يعني: بالعلم[3] ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ أي: بألَّا يعلِّموا الناس شيئاً. زيد بن أسلم: إنَّه البخل بأداء حقِّ الله عزَّ وجلَّ. وقيل: إنَّه البخل بالصدقة والحقوق، قاله عامر بن عبد الله الأشعريُّ. وقال طاوس: إنَّه البخل بما في يديه[4]. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وفرَّق أصحاب الخواطِر بين البخل والسخاء بفرقين: أحدهما: أنَّ البخيل الذي يلتذُّ بالإمساك. والسخيَّ الذي يلتذُّ بالإعطاء. الثاني: أنَّ البخيل الذي يُعطي عند السؤال، والسخيَّ الذي يعطي بغير سؤال.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ غنيٌّ عنه[5]. ويجوز أن يكون لما حثَّ على الصدقة أعلمهم أنَّ الذين يبخلون بها، ويأمرون الناس بالبخل بها، فإنَّ الله غنيٌّ عنهم.

وقراءة العامة: «بِالْبُخْلِ» بضمِّ الباء وسكون الخاء. وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائيُّ: «بِالْبَخَلِ»

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وما بعده منه أيضاً.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٩.

بفتحتين[١]، وهي لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْفع «بِالْبَخْلِ» بفتح الباء وإسكان الخاء. وعن نصر بن عاصم: «الْبُخُلِ» بضمَّتين، وكلُّها لغات مشهورة. وقد تقدَّم الفرق بين البخل والشحِّ في آخر «آل عمران»[٢].

وقرأ نافع وابن عامر: «فَإِنَّ اللّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» بغير «هُوَ»[٣]. والباقون: «هُوَ الْغَنِيُّ» على أن يكون فصلًا. ويجوز أن يكون مبتدأ، و«الْغَنِيُّ» خبره، والجملة خبر «إنَّ». ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلًا؛ لأنَّ حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ[٤].

**قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات البيِّنة والشرائع الظاهرة[٥]. وقيل: الإخلاص للَّه تعالى في العبادة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بذلك دعت الرسل، نوح فمَن دونه إلى محمَّد ﷺ. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الكتب، أي: أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ قال ابن زيد: هو ما يُوزَن به ويتعامل[٦] ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل في معاملاتهم[٧]. وقوله: «بِالْقِسْطِ»

(١) السبعة ص ٦٣٣، والتيسير ص ٩٦.
(٢) ٥/ ٤٤١.
(٣) السبعة ص ٦٢٧، والتيسير ص ٢٠٨.
(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٧٦.
(٥) الكشاف ٤/ ٦٦.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧.
(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٩.

يدلُّ على أنَّه أراد الميزان المعروف. وقال قوم: أراد به العدل[١]. قال القشيريُّ: وإذا حملناه على الميزان المعروف، فالمعنى: أنزلنا الكتابَ ووضعنا الميزان، فهو من باب:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبـنًـا ومـاءً بـاردًا[٢]

ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن:٧-٩] وقد مضى القول فيه .﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ روى عمر ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله أنزل أربع بركاتٍ من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح»[٣]. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدمَ عليه السلام: الحجر الأسود وكان أشدَّ بياضاً من الثلج، وعصا موسى وكانت من آسِ الجنَّة، طولها عشرة أَذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء: السندان والكَلْبَتَان والمِيقَعة، وهي المِطرقة، ذكره الماورديُّ[٤].

وقال الثعلبيُّ: قال ابن عباس: نزل آدم من الجنَّة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدَّادين: السَّنْدان، والْكَلْبَتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة. وحكاه القشيريُّ قال: والمِيقَعة: ما يحدَّد به؛ يقال: وَقَعْتُ الحديدَةُ أَقَعُها، أي: حَدَدتها[٥]. وفي «الصحاح»[٦]: والمِيقَعة: الموضع الذي يألفه البازِيُّ[٧] فيقع عليه، وخشبة القَصَّار التي يَدقُّ عليها، والمِطْرقة والمِسنُّ الطويل.

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٧٤ .

(٢) سلف ١/ ٢٩١ .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ٢٥٣ ، والديلمي في الفردوس ١/ ١٧٥ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٩٩ ، والطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ١٥٧ ، وابن حجر في الكافي الشاف ص ١٦٤ ولكن عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وعزاه - أي ابن حجر - للثعلبي ، وقال : وفي إسناده من لا أعرفه .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ ، وفيه : مثل طول موسى ، بدل : مع طول موسى .

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٣٧ .

(٦) مادة : (وقع) .

(٧) البازيُّ: واحد البُزاة التي تَصِيدُ، ضَرْبٌ من الصقور. اللسان (بزا).

وروي أنَّ الحديد أُنزل في يوم الثلاثاء. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» أي: لإهراق الدماء. ولذلك نُهِيَ عن الفَصْد والحِجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنَّه يوم جرى فيه الدم. وروي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم»[1]. وقيل: «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» أي: أنشأناه وخلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[2] [الزمر: ٦] وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء[3]. وقال أهل المعاني: أي: أخرج الحديد من المعادن وعلَّمهم صنعته بوحيه[4]. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعني: السلاح والكُرَاع والجُنَّة[5]. وقيل: أي: فيه من خشية القتل خوف شديد[6].

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: يعني: جُنَّة[7]. وقيل: يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه[8].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي: أنزل الحديد؛ ليعلم من ينصره. وقيل: هو عطف على قوله تعالى: «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أي: أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحقِّ، «وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرَهُ» وليرى الله من ينصر دينه[9] ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال ابن عباس: ينصرونهم: لا يكذِّبونهم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦٢) عن أبي بكرة نفيع الحارث الثقفي ﷺ، والراوية عنه ابنتُه كَيِّسة، ولا يُعرف حالها. كذا قال ابن حجر في لسان الميزان ٧/ ٥٢٩ . وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٥/ ٣٤٩: في إسناده: أبو بكرة بكَّار بن عبد العزيز بن أبي بكرة. قال يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به. اهـ. وعدَّه ابن الجوزي في الموضوعات (١٦٢٤). ومعنى يرقأ: ينقطع. اللسان (رقأ).

(٢) زاد المسير ٨/ ١٧٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

(٥) الكراع: السلاح، وقيل: اسم يجمع الخيل والسلاح. والجُنَّة: ما واراك من السلاح واستترت به منه. اللسان (كرع) و(جنن).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٢٦ .

(٨) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٤ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

ويؤمنون بهم «بِالْغَيْبِ» أي: وهم لا يرونهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ «قَوِيٌّ» في أخذه «عَزِيزٌ» أي: منيع غالب. وقد تقدَّم[1]. وقيل: «بِالْغَيْبِ» بالإخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ فصَّل ما أجمل من إرسال الرُّسل بالكتب، وأخبر أنَّه أرسل نوحًا وإبراهيم وجعل النبوَّة في نسلهما[2] ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جعلنا بعض ذرِّيَّتهما الأنبياء، وبعضهم أُمماً يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان[3]. وقال ابن عباس: الكتاب: الخطُّ بالقلم[4] ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: مَنِ ائتمَّ بإبراهيم ونوح ﴿مُّهْتَدٍ﴾. وقيل: «فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ» أي: من ذرِّيَّتهما مهتدون. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة.

**قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

**فيه أربع مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: على آثار الذرِّيَّة. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم[5] ﴿بِرُسُلِنَا﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فهو من ذرِّيَّة إبراهيم من جهة أمِّه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه. وقد تقدَّم اشتقاقه في أوَّل سورة «آل عمران»[6].

**الثانية:** قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينه، يعني الحواريين

---

(١) ١٤/ ٤١٢ - ٤١٣.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٩.

(٤) الكشاف ٤/ ٦٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧.

(٦) ٥/ ١١.

وأتباعهم[١] ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: مَودَّةً، فكان يوادُّ بَعضهم بعضًا[٢]. وقيل: هذا إشارة إلى أنَّهم أُمروا في الإنجيل بالصلح وتَرْكِ إيذاء الناس، وألانَ الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه. والرأفة: اللين، والرحمة: الشفقة. وقيل: الرأفة: تخفيف الْكَلِّ. والرحمة: تحمُّل الثقل[٣]. وقيل: الرأفة: أشدُّ الرحمة. وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: من قِبَلِ أنفسِهم. والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبةً بإضمار فعل[٤]، قال أبو عليٍّ: وابتدعوها رهبانيةً ابتدعوها. وقال الزجَّاج[٥]: أي: ابتدعوها رهبانيةً، كما تقول: رأيت زيداً وعَمْراً كلَّمتُ. وقيل: إنَّه معطوف على الرأفة والرحمة[٦]، والمعنى على هذا أنَّ الله تعالى أعطاهم إياها فغيَّروا وابتدعوا فيها.

قال الماورديُّ[٧]: وفيها قراءتان؛ إحداهما: بفتح الراء، وهي الخوف من الرَّهب. الثانية: بضمِّ الراء[٨]، وهي منسوبة إلى الرُّهبان، كالرُّضْوانيَّة من الرُّضْوان؛ وذلك لأنَّهم حَمَلوا أنفسهم على المشقَّات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلُّق بالكهوف والصوامع[٩]، وذلك أنَّ ملوكهم غيَّروا وبَدَّلوا، وبقي نفر قليل فترهَّبوا وتبتَّلوا. قال الضحَّاك: إنَّ ملوكًا بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلاث مئة سنة، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم، فقال قوم بقوا بعدهم: نحن إذا نهيناهم قتلونا، فليس يَسَعُنا المقام بينهم، فاعتزَلوا الناس واتَّخذوا

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٧٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ ، والكَلُّ: المصيبة تحدث. اللسان (كلل).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ .

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٣٠ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨ .

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ .

(٨) الكشاف ٤/ ٦٧ ، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٨ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

الصوامع[١]. وقال قتادة: الرهبانيَّة التي ابتدعوها رَفْضُ النساء واتِّخاذ الصوامع. وفي خبر مرفوع: هي لحوقهم بالبراري والجبال[٢].

﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها، قاله ابن زيد[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أمرناهم إلا بما يُرضِي الله، قاله ابن مسلم. وقال الزجَّاج[٤]: «مَا كَتَبنَاهَا عَلَيْهِم» معناه: لم نكتب عليهم شيئًا ألبتَّة. ويكون «ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ» بدلًا من الهاء والألف في «كَتَبْنَاهَا»، والمعنى: ما كتبناها عليهم، إلا ابتغاءَ رضوان الله. وقيل: «إِلَّا ابْتِغَاءَ» الاستثناء منقطع[٥]، والتقدير: ما كتبناها عليهم، لكن ابتدعوها؛ ابتغاءَ رضوان الله.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بها حقَّ القيام. وهذا خصوص؛ لأنَّ الذين لم يَرْعوها بعض القوم، وإنَّما تسبَّبوا بالترهُّب إلى طلب الرياسة على الناس وأكْلِ أموالهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] وهذا في قوم أدَّاهم الترهُّب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر.

وروى سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» قال: كانت ملوكٌ بعد عيسى بدَّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، ويَدْعُون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلتَ هذه الطائفة. فقال المؤمنون: نحن نكفيكم أنفسنا. فطائفة قالت: ابنوا لنا اسطوانةً ارفعونا فيها، وأعطونا شيئًا نَرفعُ به طعامنا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤، وفيه: فاعتزلوا النساء، بدل: فاعتزلوا الناس.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ والقول الثاني فيه هكذا: أنها لحوقهم بالجبال، ولزومهم البراري، وروي فيه خبر مرفوع. اهـ. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢٨، والحديث المرفوع سيأتي ص٢٧٤-٢٧٥ من هذا الجزء عن ابن مسعود ﷺ، وثمة تخريجه هناك.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦، والطبري ٢٢/ ٤٢٨.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ - ٣٦٨، وما بعده منه أيضاً.

وشرابنا ولا نَرِدُ عليكم. وقالت طائفة: دعونا نهيم في الأرض ونسيح، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرِّيَّة، فإذا قَدَرْتم علينا فاقتلونا. وطائفة قالت: ابنوا لنا دُوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار، ونَحترِث البقول، فلا ترونا ـ وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ـ ففعلوا، فمضى أولئك على منهاج عيسى، وخَلَف قوم من بعدهم ممن قد غيَّر الكتاب فقالوا: نسيح ونتعبَّد كما تعبَّد أولئك، وهم على شِرْكهم لا عِلْم لهم بإيمانِ مَن تقدَّم من الذين اقْتَدَوْا بهم، فذلك قوله تعالى: «ورهبانيَّةً ابتدعُوها ما كَتَبْنَاها عَلَيْهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ» الآية[1]. يقول: ابتدعها هؤلاء الصالحون «فَمَا رَعَوْهَا» المتأخِّرون «حَقَّ رِعَايَتِهَا» ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الذين ابتدعوها أوَّلًا ورَعوها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ يعني المتأخِّرين، فلما بعث الله محمَّدًا ﷺ ولم يَبْقَ منهم إلا قليل، جاؤوا من الكهوف والصَّوَامع والغِيران فآمنوا بمحمَّد ﷺ[2].

**الثالثة**: وهذه الآية دالَّة على أنَّ كلَّ مُحدَثة بدعةٌ، فينبغي لمن ابتدعَ خيراً أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضدِّه؛ فيدخل في الآية[3]. وعن أبي أمامة الباهلي ـ واسمه: صُدَيُّ بن عَجْلان ـ قال: أَحدثتم قيامَ رمضان ولم يُكتَب عليكم، إنَّما كُتِبَ عليكم الصيام، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإنَّ ناسًا من بني إسرائيل ابتدعوا بِدَعًا لم يكتبها الله عليهم، ابتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها حقَّ رعايتها، فعاتَبهم الله بتَرْكها فقال: «ورهبانيَّة ابتدعُوها ما كَتَبْنَاها عَلَيهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ فَمَا رَعَوْها حقَّ رعايَتِها»[4].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠١، والأثر أخرجه النسائي في المجتبى ٨/ ٢٣١-٢٣٣، وفي الكبرى (٥٩٠٨) و(١١٥٠٣) من طريق الفضل بن موسى، عن سفيان، به. والأسطوانة: السارية. المعجم الوسيط (أسطوانة).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٠١.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٦ - ٤١٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٣٣، والخبر أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٣٣ عن أبي أمامة موقوفاً. وأخرجه عنه مرفوعاً الطبراني في الأوسط (٧٤٤٦)، وقال: لا يروى هذا الحديث عن أبي أمامة إلا بهذا الإسناد، تفرَّد به إسماعيل بن عمرو. اهـ. وهو إسماعيل بن عمرو بن نجيح البَجَلي الكوفي ثم =

**الرابعة**: وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيُّر الأصدقاء والإخوان. وقد مضى بيان هذا في سورة «الكهف»[١] مستوفًى، والحمد لله.

وفي «مسند أحمد بن حنبل» من حديث أبي أمامة الباهليِّ ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَرِيَّة من سراياه قال: فمَرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيءٌ من ماء، فحدَّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغارِ، فَيَقُوته ما كان فيه من ماء، ويُصِيب ما حوله من البَقْل، ويتخلَّى عن الدنيا. قال: لو أنِّي أتيت النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له، فإن أَذِنَ لي، فَعَلْتُ، وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبيَّ الله! إنِّي مررتُ بغارٍ فيه ما يَقُوتني من الماء والبقل، فحدَّثتني نفسي بأن أُقيم فيه وأتخلَّى من الدنيا. قال: فقال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لم أُبعَث باليهوديَّة ولا بالنصرانيَّة، ولكنِّي بُعِثتُ بالحنيفيَّة السَّمْحة، والذي نفسُ محمَّد بيده لغَدْوةٌ أو رَوْحةٌ في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولَمَقام أحدِكم في الصفِّ الأوَّل خيرٌ من صلاته ستِّين سنةً»[٢].

وروى الكوفيون عن ابن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل تدرِي أيُّ الناس أَعلم»؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «أعلم الناس أبصرهم بالحقِّ إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصِّرًا في العمل، وإن كان يزحف على اسْتِهِ، هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانيَّة؟ ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاثَ مرَّات، فلم يَبْقَ منهم إلا القليل فقالوا: إن أفنونا فلم يَبْقَ للدِّين أَحَدٌ يدعوا إليه، فتعالوا نفترق في

---

= الأصبهاني، قال ابن عدي: حدَّث بأحاديث لا يتابع عليها. وقال أبو حاتم والدارقطني: ضعيف. ميزان الاعتدال ١/ ٢٣٩.

(١) ١٣/ ٢١٧.

(٢) أحمد (٢٢٢٩١)، وأخرجه أيضًا الطبراني في الكبير (٧٨٦٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٩: رواه أحمد والطبراني، وفيه: علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف. اهـ. وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ بنحو هذه القصة أخرجه عنه الترمذي (١٦٥٠)، وأحمد (٩٧٦٢). قال الترمذي: حديث حسن.

الأرض إلى أن يبعث الله النبيَّ الأُمِّيَّ الذي وعدنا عيسى ـ يعنون محمَّداً ﷺ ـ فتفرَّقوا في غِيران الجبال وأحدثوا رهبانيةً، فمنهم من تمسَّك بدينه، ومنهم من كفر ـ وتلا: «وَرَهْبَانِيَّةً» الآية ـ أتدري ما رهبانيَّة أُمَّتي: الهجرة: والجهاد، والصوم، والصلاة، والحجُّ، والعمرة، والتكبير على التلاع، يا ابن مسعود اختلف مَن كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فنجا منهم ثلاثة، وهلك سائرها[١]، فرقة أزَّت[٢] الملوكَ وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ـ عليه السلام ـ حتى قُتِلوا، وفرقة لم تكن لهم طاقة بمؤازاة[٣] الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بمؤازاة الملوك، ولا بأن يقيموا بين ظهراني قومهم فيدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فساحوا في الجبال وترهَّبوا فيها، وهي التي قال الله تعالى فيهم: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» ـ الآية ـ فمَن آمن بي واتَّبعني وصدَّقني، فقد رعاها حقَّ رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون»[٤]. يعني الذين تهوَّدوا وتنصَّروا. وقيل:

---

(١) في (ظ): سائرهم. وكذا في الموضع الآتي.

(٢) في (ظ) و(ق): وارت. وفي (م): وازت. والمثبت من مصادر التخريج، ومن النهاية (أزي) حيث قال: وفي الحديث: «وفرقة آزت الملوك» أي: قاومتهم. يقال: فلانٌ إزاءٌ لفلانٍ: إذا كان مقاوماً له.

(٣) في (ظ): بمواراة. وفي (م): بموازاة. وكذا في الموضع الآتي.

(٤) من قوله: وروى الكوفيون ... إلى قوله: وإن كان يزحف على استه. فمن أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٢. ومن قوله: هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ... إلى نهاية الحديث، فمن تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ - ٣٠١، والحديث أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٢٩، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٧) من طريق بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود بنحوه مقطَّعًا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٠ - ٢٦١: رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير بكير بن معروف، وثَّقه أحمد وغيره، وفيه ضعف.

وأخرجه أيضاً المروزي في السنة (٥٤)، والطبري ٢٢/ ٤٣٠ - ٤٣١، والطبراني في الكبير (١٠٥٣١)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٠ من طريق الصَّعِق بن حَزْن، عن عقيل، عن أبي إسحاق الهمداني، عن سويد بن غفلة، عن ابن مسعود ﷺ بنحوه مقطَّعًا. قال الحاكم: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: ليس بصحيح، فإن الصعق بن حزن، وإن كان موثقاً، فإن شيخه منكر الحديث، قاله البخاري. اهـ.

هؤلاء الذين أدركوا محمداً ﷺ فلم يؤمنوا به، فأولئك هم الفاسقون[١]. وفي الآية تسلية للنبيِّ ﷺ؛ أي: إنَّ الأوَّلين أصرُّوا على الكفر أيضًا، فلا تَعْجَبْ من أهل عصرك إن أصرُّوا على الكفر. والله أعلم.

**قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: آمنوا بموسى وعيسى ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ بمحمَّد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: مِثْلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله[٢] عليهما وسلم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٤] وقد تقدَّم القول فيه[٣]. والكِفْل: الحظُّ والنصيب، وقد مضى في «النساء»[٤]، وهو في الأصل كِساء يكتفل به الراكب، فيحفظه من السقوط، قاله ابن جريج[٥]. ونحوه قال الأزهريُّ[٦]، قال[٧]: اشتقاقه من الكِساء الذي يُحوِّيه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه، لئلا يسقط. فتأويله: يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي، كما يحفظ الكِفْلُ الراكبَ[٨]. وقال أبو موسى الأشعريُّ: «كِفْلَينِ»: ضعفين، بلسان الحبشة[٩]. وعن ابن زيد: «كِفْلَيْن» أجر الدنيا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨.

(٢) تكررت هذه العبارة في (ظ) مرَّة ثانية، والكلام من النكت والعيون ٥/ ٤٨٥.

(٣) ١٦/ ٢٩٥.

(٤) ٦/ ٤٨٥.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٧ دون نسبة.

(٦) في تهذيب اللغة ١٠/ ٢٥٠.

(٧) ليست في (ظ).

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣١.

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٠/ ٤١٧، ومجاهد في التفسير ٢/ ٦٥٨، والطبري ٢٢/ ٤٣٨.

والآخرة[١]. وقيل: لمَّا نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية[٢].

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذه الآية على أنَّ الحسنة إنَّما لها من الأجر مِثْل واحد، فقال: الحسنة اسم عامٌّ ينطلق على كلِّ نوع من الإيمان، وينطلق على عمومه، فإذا انطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مِثْل واحد. وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين، كان الثواب عليها مِثْلين؛ بدليل هذه الآية فإنَّه قال: «كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» والكِفْل: النصيب، كالمِثْل، فجعل لمن اتقى الله وآمن برسوله نصيبين؛ نصيباً لتقوى الله، ونصيباً لإيمانه برسوله، فدلَّ على أنَّ الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية بكمالها. فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها، فيكون لكلِّ نوع منها مِثْل، وهذا تأويل فاسد؛ لخروجه عن عموم الظاهر في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] بما لا يحتمله تخصيص العموم؛ لأنَّ ما جمع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كلِّ حسنة إلا بِمِثْلها. وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها، والأخبار دالَّة عليه. وقد تقدَّم ذكرها[٣]. ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرقان.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ أي: بيانًا وهدًى، عن مجاهد. وقال ابن عباس: هو القرآن[٤]. وقيل: ضياء ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنَّة. وقيل: تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام، فتكونون رؤساء في دين

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٣٨.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٨، وتفسير الرازي ٢٩/ ٢٤٧.

(٣) ٩/ ١٣٦، ١٦/ ٢٢٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٣٠٢، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٤٤٢، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٨.

الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها، وذلك أنَّهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمَّد عليه السلام. وإنَّما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضَّعَفَة بتحريف أحكام الله، لا الرياسة الحقيقيَّة في الدين. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ليعلم، و«أن لا» صلة زائدة مؤكدة؛ قاله الأخفش. وقال الفرَّاء: معناه: لأن يعلم، و«لا» صلة زائدة في كلِّ كلام دخل عليه جَحْد[1]. قال قتادة: حسَد أهلُ الكتاب المسلمين فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ»[2]. أي: لأن يعلم أهل الكتاب أنَّهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾. وقال مجاهد: قالت اليهود: يُوشِك أن يخرج منا نبيٌّ يقطع الأيدي والأرجل. فلما خرج من العرب كفروا، فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمَ» أي: ليعلم أهل الكتاب «أَنْ لَا يَقْدِرُونَ» أي: أنَّهم لا يقدرون[3]، كقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩].

وعن الحسن: «لَيْلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ» وروي ذلك عن ابن مجاهد. وروى قُطْرُب: بكسر اللام وإسكان الياء[4]. وفتح لام الجرِّ لغة معروفة. ووجه إسكان الياء أنَّ همزة «أَنْ» حذفت فصارت «لَنْ» فأدغمت النون في اللام، فصار «لَلَّا» فلما اجتمعت اللَّامات أُبدلت الوسطى منها ياء، كما قالوا في أمَّا: أَيْمَا. وكذلك القول في قراءة من قرأ: «لِيْلَا» بكسر اللام، إلا أنَّه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها، فهو أقوى من هذه الجهة.

وعن ابن مسعود: «لِكَيْلَا يَعْلَمَ»[5]، وعن حِطَّان بنِ عبد الله: «لأَنْ يَعْلَمَ»[6]،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦، وكلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٧٠٥، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٣٧.

(٢) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦، والطبري ٢٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٢.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٣، والمحتسب ٢/ ٣١٤، وما بعده منه أيضًا.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٥٣ عن عبد الله بن أبي سلمة، والكشاف ٤/ ٦٨ ولم ينسبها.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٥٣.

وعن عِكرمة «لِيَعْلَمَ»(١)، وهو خلاف المرسوم.

﴿مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: الإسلام. وقيل: الثواب. وقال الكلبيُّ: من رزق الله. وقيل: نِعَمُ الله التي لا تُحصى(٢). «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ» ليس بأيديهم فيصرفون النبوَّة عن محمَّد ﷺ إلى من يحبُّون. وقيل: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: هو له ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وفي «البخاري»: حدَّثنا الحكم بن نافع، قال: حدَّثنا شعيب، عن الزهريِّ، قال: أخبرني سالم بن عبد الله: أنَّ عبد الله بن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: «إنَّما بقاؤكم فيما سلف قَبْلَكم من الأُمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أُعطي أهلُ التوراةِ التوراةَ، فعملوا بها حتى انتصف النهار، ثم عَجَزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُعطي أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فعملوا به حتى صلاة العصر، ثم عَجَزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُعطيتم القرآنَ، فعملتم به حتى غروب الشمس، فأُعطيتم قيراطين قيراطين، قال أهل التوراة: ربَّنا هؤلاءِ أقلُّ عملًا وأكثرُ أجراً؟ قال: هل ظلمتكم من أَجْرِكم من شيء؟ قالوا: لا. فقال: فَضْلي أُوتيه من أشاء». وفي رواية: «فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: ربنا» الحديث(٣).
﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

تم تفسير سورة الحديد، والحمد لله

(١) القراءات الشاذة ص ١٥٣ عن عبد الله، والكشاف ٤/ ٦٨ ولم ينسبها.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦ دون ذكر قوله: وقيل: الثواب.
(٣) البخاري (٧٤٦٧)، وهو عند أحمد (٦٠٢٩)، والرواية الأخرى برقم (٢٢٦٨) و(٢٢٦٩)، وهي عند أحمد (٤٥٠٨).

# تفسير سورة الحديد

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بَقيَّة بن الوليد ، حدثنى بحير بن سعد ، عن خالد بن مَعْدان ، عن ابن أبى بلال ، عن عِرْباض بن سارية ، أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » .

وهكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من طرق عن بقية ، به[١] . وقال الترمذى : حسن غريب .

ورواه النسائى عن ابن أبى السرح ، عن ابن وهب ، عن معاوية بن صالح ، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان قال : كان رسول الله ﷺ . . . فذكره مُرْسَلا ، لم يذكر عبد الله بن أبى بلال ، ولا العرباض بن سارية [٢] .

والآية المشار إليها فى الحديث هى ــ والله أعلم ــ قوله : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله وبه الثقة [٣] .

﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)** ﴾ .

يخبر تعالى أنه يسبح له ما فى السموات والأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقوله : ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ أى : الذى قد خضع له كل شىء ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ فى خلقه وأمره وشرعه ﴿ **لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ أى : هو المالك المتصرف فى خلقه ، فيحيى ويميت ، ويعطى من يشاء ما يشاء ، ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى : ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ** ﴾ : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث العرباض ابن سارية : أنها أفضل من ألف آية .

(١) المسند (٤/١٢٨) وسنن أبى داود برقم (٥٠٥٧) وسنن الترمذى برقم (٣٤٠٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٢٦) .
(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٥١) .
(٣) فى م ، أ : « سيأتى بيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وقال أبو داود : حدثنا عباس بن عبد العظيم ، حدثنا النضر بن محمد ، حدثنا عكرمة ـ يعنى ابن عمار ـ حدثنا أبو زُمَيل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده فى صدرى ؟ قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال : فقال لى : أشيء من شك ؟ قال ـ وضحك ـ قال : ما نجا من ذلك أحد . قال : حتى أنزل الله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ [ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ] (١) ﴾الآية [يونس:٩٤] قال: وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولا .

وقال البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً (٣) .

قال شيخنا الحافظ المزّى : يحيى هذا هو ابن زياد الفراء ، له كتاب سماه : « معانى القرآن » .

وقد ورد فى ذلك أحاديث ، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا ابن عياش ، عن سُهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو(٤) عند النوم : « اللهم ، رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول ليس (٥) قبلك شيء ، وأنت الآخر ليس (٦) بعدك شيء ، وأنت الظاهر ليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ليس دونك شيء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » (٧) .

ورواه مسلم فى صحيحه : حدثنى زهير بن حرب ، حدثنا جرير عن سُهَيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام : أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم ، ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم ، ربَّنا وربّ كل شيء ، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر .

وكان يَروى ذلك ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ (٨) .

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن عائشة أم المؤمنين نحو هذا ، فقال : حدثنا عقبة ، حدثنا يونس ، حدثنا السرى بن إسماعيل ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه فيفرش له مستقبل القبلة ، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى ، ثم همس ـ ما يُدرى ما يقول ـ فإذا كان فى آخر الليل رفع صوته فقال :« اللهم ، رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، إله كل شيء ، ورب كل شيء ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ،

(١) زيادة من م .
(٢) سنن أبى داود برقم (٥١١٠) .
(٣) صحيح البخارى (١٣/ ٣٦١) « فتح ».
(٤) فى م : « يقول».
(٥ ، ٦) فى م : « فليس » .
(٧) المسند (٢ / ٤٠٤) .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٧١٣) .

فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته . اللهم،أنت الأول الذى ليس [١] قبلك شيء ، وأنت الآخر الذى ليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » [٢].

السرى بن إسماعيل هذا ابن عم الشعبى ، وهو ضعيف جداً ، والله أعلم .

وقال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية :حدثنا عبدُ بن حميد وغير واحد ــ المعنى واحد ــ قالوا : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة قال : حدث الحسن ، عن أبى هريرة قال : بينما رسول الله ﷺ جالس وأصحابه ، إذ أتى عليهم سَحَاب ، فقال نبى الله ﷺ : « هل تدرون ما هذا ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا العَنَان ، هذه رَوَايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يَدْعُونه » . ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ ، وموج مكفوف » . ثم قال : « هل تدرون كم بينكم وبينها » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « بينكم وبينها خمسمائة سنة » . ثم قال : «هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم.قال : « فإن فوق ذلك سماء [٣] بُعدُ ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة ــ حتى عَدّ سبع سموات ــ ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض». ثم قال: « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بعدُ [٤] ما بين السماءين » . ثم قال : « هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ » .قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الأرض » . ثم قال: « هل تدون ما الذى تحت ذلك ؟ » . قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : «فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة ــ حتى عدّ [٥] سبع أرضين ــ بين كل أرْضَين مسيرة خمسمائة سنة » . ثم قال : « والذى نفس محمد بيده ، لو أنكم دَلَيتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » ، ثم قرأ : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ .

ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ويُروى عن أيوب ويونس ــ يعنى ابن عبيد ــ وعلى بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبى هريرة . وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقالوا : إنما هَبَط على علْم الله وقدرته وسلطانه ، وعلم الله وقدرته وسلطانه فى كل مكان ، وهو على العرش ، كما وصف فى كتابه. انتهى كلامه [٦] .

وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث عن سُريج ، عن الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، فذكره ، وعنده بُعدُ ما بين الأرْضين مسيرة سبعمائة عام ، وقال : « لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة لهبط على الله » ، ثم قرأ : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [٧] .

---

(١) فى م : « فليس » .
(٢) مسند أبى يعلى (٨/ ٢١٠) .
(٣) فى م :« سماء بعد سماء » . (٤) فى م ، أ : « مثل بعد » . (٥) فى م : « عدد » .
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٨) .
(٧) المسند (٢/ ٣٧٠) .

ورواه ابن أبى حاتم والبزار من حديث أبى جعفر الرازى ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبى هريرة . . . فذكر الحديث ، ولم يذكر ابن أبى حاتم آخره وهو قوله : « لو دليتم بحبل » ، وإنما قال: « حتى عدّ سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام » ، ثم تلا : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقال البزار : لم يروه عن النبى ﷺ إلا أبو هريرة .

ورواه ابن جرير ، عن بشر ، عن يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ ، ذكر لنا أن نبى الله ﷺ بينما هو جالس فى أصحابه إذ ثار عليهم سحاب ، فقال : « هل تدرون ما هذا ؟ »(١) ، وذكر الحديث مثل سياق الترمذى سواء ، إلا أنه مرسل من هذا الوجه ، ولعل هذا هو المحفوظ ، والله أعلم . وقد روى من حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه وأرضاه ، رواه البزار فى مسنده ، والبيهقى فى كتاب الأسماء والصفات (٢) ، ولكن فى إسناده نظر ، وفى متنه غرابة ونكارة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال ابن جرير عند قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢] : حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن قتادة قال : التقى أربعة من الملائكة بين السماء والأرض ، فقال بعضهم لبعض : من أين جئت ؟ قال أحدهم : أرسلنى ربى ، عز وجل ، من السماء السابعة وتركته ثَمّ ، قال الآخر : أرسلنى ربى ، عز وجل ، من الأرض السابعة وتركته ثَمّ ، قال الآخر : أرسلنى ربى من المشرق وتركته ثَمّ ، قال الآخر : أرسلنى ربى من المغرب وتركته ثَمّ (٣) .

وهذا [ حديث ] (٤) غريب جداً ، وقد يكون الحديث الأول موقوفاً على قتادة كما روى هاهنا من قوله ، والله أعلم .

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ⑤ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥ ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها فى سورة « الأعراف (٥) » بما أغنى عن إعادته هاهنا .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٤) .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى (ص ٥٠٦) من طريق أحمد بن عبد الجبار ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش، عن أبى نصر ، عن أبى ذر ، ومن طريق البيهقى رواه الجوزقانى فى الأباطيل (١/ ٦٨) وقال : « هذا حديث منكر » .

(٣) تفسير الطبرى (٢٨/ ٩٩) .

(٤) زيادة من م .

(٥) عند تفسير الآية : ٥٤.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من زرع ونَبات وثمار ، كما قال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الأنعام : ٥٩ ] .

وقوله : ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من الأمطار ، والثلوج والبرَد ، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام ، وقد تقدم فى سورة « البقرة » أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقرّرها فى المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء تعالى .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الملائكة والأعمال ، كما جاء فى الصحيح : « يُرْفَع إليه عَمَلُ الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل » (١) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، فى ليل أو نهار ، فى البيوت أو القفار ، الجميع فى علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [ هود : ٥ ] . وقال : ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [ الرعد : ١٠ ] ، فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ، لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلى من حديث نصر بن خزيمة بن جنادة بن محفوظ بن علقمة ، حدثنى أبى ، عن نصر بن علقمة ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن عائذ قال : قال عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : زودنى كلمة أعيش بها . فقال : « استَحِ الله كما تستحى رجلا من صَالِح عشيرتك لا يفارقك » (٢) .

هذا حديث غريب ، وروى أبو نعيم من حديث عبد الله بن معاوية الغاضرى مرفوعاً : « ثلاث من فَعَلَهُنّ فقد طَعِم الإيمان : من عبد اللّه وحده ، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه فى كل عام ، ولم يعط الهَرِمة ولَا الدَرِنة ، ولا الشَّرِط اللئيمة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم . وزكى نَفْسَه » .وقال رجل :يا رسول الله ،ما تزكية المرء نفسه ؟ فقال:« يعلم أن الله معه حيث كان » (٣) .

وقال نُعيم بن حَمّاد ، رحمه الله : حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصى ، عن محمد بن مهاجر ، عن عُروَةَ بن رُوَيم ، عن عبد الرحمن بن غَنْم ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » . غريب (٤) .

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٩) من حديث أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه .

(٢) وذكره المؤلف فى مسند عمر بن الخطاب (٦٠٩/٢) من طريق الإسماعيلى وقال : « إسناده غريب، وفى حديث القدر : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وله شاهد من حديث سعيد بن يزيد عن ابن عم له قال : قلت: يارسول الله أوصنى ، قال : « استح من الله كما تستحى من الرجل الصالح من قومك» » . أخرجه مجشل فى تاريخ واسط (ص٢٠٩) .

(٣) ورواه البيهـقى فى السنن الكبرى (٩٦/٤) من طريق الزبيدى عن يحيى بن جابر ، أن عبد الرحمن بن جبير حدثه أن أباه حدثه أن عبد الله بن معاوية الغاضرى به ، ورواه أبو داود من طريق الزبيدى عن يحيى بن جابر ،عن جبير بن نفير به نحوه ، والأول أصح .

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٧) «مجمع البحرين » عن مطلب ، عن نعيم بن حماد به وقـال : « تفرد به عثمان ».=

وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين :

إذَا ما خَلوتَ الدهرَ يوماً فَلا تَقُلْ خَلَوتُ ولكن قُـل : عَلَيّ رَقيبُ
وَلاَ تَحْسَبَنّ اللهَ يَغفَـلُ سَاعَـةً وَلا أنّ ما يخْفـى عَليـه يَغيـبُ

وقوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : هو المالك للدنيا والآخرة ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ [الليل:١٣] ، وهو المحمود على ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ ﴾ [القصص:٧٠] ، وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبأ:١] . فجميع ما فى السموات والأرض ملك له ، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣ـ٩٥ ] . ولهذا قال : ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم فى خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذى لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ، ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠] . وكما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

وقوله : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أى : هو المتصرف فى الخلق ، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين . وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ، ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت ، وإن خفيت .

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) ﴾ .

= ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٤) عن الطبرانى ، عن يحيى بن عثمان ، عن نعيم بن حماد به ، وقال : « غريب من حديث عروة لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر » . وعثمان بن سعيد لم يعرفه الهيثمى فى المجمع (١/ ٦٠) ، وذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٦/ ١٥٢) ونقل عن يحيى بن معين أنه ثقة .

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ، أى : مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال فى طاعته ، فإن [1] يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه .

وقوله : ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ : فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصى الله فيه فتكون قد سعيت فى معاونته على الإثم والعدوان .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدّث ، عن مُطَرِّف ـ يعنى ابن عبد الله بن الشّخّير ـ عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر:١] ، يقول ابن آدم : مالى مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ » .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به [2]، وزاد : « وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب فى الإيمان والإنفاق فى الطاعة ، ثم قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ أى : وأى شىء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟ . وقد روينا فى الحديث من طُرُق فى أوائل شرح « كتاب الإيمان » من صحيح البخارى : أن رسول ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أىّ المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة . قال : « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟» قالوا : فالأنبياء. قال:« وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟». قالوا : فنحن ؟ قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيؤون بعدكم ، يجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها » [3] .

وقد ذكرنا طرفاً من هذا فى أول سورة « البقرة » عند قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ كما قال : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة:٧] . ويعنى بذلك : بيعة الرسول ﷺ .

وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ، وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى :حججاً واضحات ، ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات ، ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى : من ظلمات الجهل والكفر ، والآراء

---

(١) فى م: « وإن لم » .

(٢) المسند (٤/ ٢٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٨) .

(٣) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية :٣ من سورة البقرة .

المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس ، وإزاحة العلل وإزالة الشُبه .

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ، ثم حثهم على الإيمان ، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه ، حثهم(١) أيضاً على الإنفاق فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى: أنفقوا ولا تخشَوا فقراً (٢) وإقلالاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ، وبيده مقاليدهما ، وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩] ،وقال : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق ، ولم يخش من ذى العرش إقلالاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه :

وقوله : ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ؛ ولهذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ .

والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة . وعن الشعبى وغيره أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية ، وقد يُستدل لهذا القول بما قال الإمام أحمد :

حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا زُهَير ، حدثنا حُمَيد الطويل ، عن أنس قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبى ﷺ فقال : « دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفقتم مثل أحد ــ أو : مثل الجبال ــ ذهباً ، ما بلغتم أعمالهم » (٣) .

ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جَذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون : « صبأنا ، صبأنا » ، فلم يحسنوا أن يقولوا : « أسلمنا » ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمر وغيرهما . فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك (٤) .

والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه » (٥) .

وروى ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث ابن وهب : أخبرنا هشام بن سعد ، عن زيد بن

---

(١) فى م : « ثم حثهم » . (٢) فى أ : « قتراً » .
(٣) المسند (٣/ ٢٦٦).
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٨٩) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنه .
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٤١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يأتى قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم » . فقلنا : من هم يا رسول الله ؟ أقريش ؟ قال : « لا ، ولكن أهل اليمن ، هم أرق أفئدةً وألين قلوباً » . فقلنا : هم خير منا يا رسول الله ؟ قال : « لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ، ما أدرك مُدّ أحدكم ولا نَصيفه ، ألا إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس ، ﴿ **لا يَسْتَوِى منكُم مَّنْ أَنفَقَ من قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرجَةً مِّنَ الَّذِينَ أنفقوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ » (١) .

[وهذا الحديث غريب بهذا السياق ، والذى فى الصحيحين من رواية جماعة ، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد ــ ذكَرَ الخوارج ــ : « تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » (٢). الحديث . ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر ، فقال :

حدثنى ابن البرقى ، حدثنا ابن أبى مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ، أخبرنى زيد بن أسلم ، عن أبى سعيد التمار ، عن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يأتى قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم » . قلنا : من هم يا رسول الله ؟ قريش ؟ قال : « لا ، ولكن أهل اليمن ، لأنهم أرق أفئدة ، وألين قلوباً » . وأشار بيده إلى اليمن ، فقال : « هم أهل اليمن ، ألا إن الإيمان يمان ، والحكمة يمانية » . فقلنا : يا رسول الله ، هم خير منا ؟ قال : « والذى نفسى بيده ، لو كان لأحدهم جبل من ذهب ينفقه ما أدى مُدّ أحدكم ولا نصيفه » . ثم جمع أصابعه ومد خنْصره ، وقال: « ألا ،إن هذا فضلُ ما بيننا وبين الناس، ﴿ **لا يَسْتَوِى منكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾]»(٣) (٤) .

فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديبية ، فإن كان ذاك محفوظاً كما تقدم ، فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده ، كما فى قوله تعالى فى سورة «المزمل » ــ وهى مكية ، من أوائل ما نزل ــ: ﴿ **وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾الآية [المزمل: ٢٠] فهى بشارة بما يستقبل ،وهكذا هذه.والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ يعنى :المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء ، كما قال : ﴿ **لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٥] . وهكذا (٥) الحديث الذى فى الصحيح : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ،

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٧) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٩٣١) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤) .

(٣) زيادة من م ، أ .

(٤) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٧) .

(٥) فى م ، أ : « وهذا » .

وفي كل خير»[١]، وإنما نَبّه بهذا لئلا يُهدرَ جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ أى : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام ، وإنفاقه فى حال الجهد والقلة والضيق . وفى الحديث: « سبق درهم مائة ألف »[٢]. ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر ، رضى الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

وقد قال أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى عند تفسير هذه الآية : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحى[٣] ، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ، أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد ، أخبرنا أحمد بن إسحاق بن أيوب ، أخبرنا محمد بن يونس ، حدثنا العلاء بن عمرو الشيبانى ، حدثنا أبو إسحاق الفزارى ، حدثنا سفيان بن سعيد ، عن آدم بن على ، عن ابن عمر قال: كنت عند النبى ﷺ وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءة قد خَلَّها فى صدره بخلال ، فنزل جبريل فقال : مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خَلَّها فى صدره بخلال ؟ فقال : « أنفقَ ماله علىّ قبل الفتح » . قال : فإن الله يقول : اقرأ عليه السلام ، وقل له : أراض أنتَ عَنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال رسول الله : « يا أبا بكر ، إن الله يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أراض أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ » فقال : أبو بكر ، رضى الله عنه : أسخط على ربى عز وجل ؟ ! إنى عن ربى راض[٤] .

هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ قال عمر بن الخطاب : هو الإنفاق فى سبيل الله، قيل : هو النفقة على العيال . والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق فى سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية ؛ ولهذا قال : ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ﴾، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[٥] ﴾ [البقرة: ٢٤٥ ] أى : جزاء جميل ، ورزق باهر ــ وهو الجنة ــ يوم القيامة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا خلف بن خليفة ، عن حميد الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم ، يا أبا الدحداح » . قال : أرنى يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطى ــ وله حائط[٦] فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ــ قال : فجاء

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه النسائى فى السنن (٥٩/٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « الشرعى » .

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٤) وفيه :« إنى عن ربى راض» مرتين ،ووجه ضعفه أنه فيه العلاء بن عمرو . قال ابن حبان :« يروى عن أبى إسحاق الفزارى العجائب ، لا يجوز الاحتجاج به بحال » وساق الحديث .

(٥) فى أ ، م ، هـ : « أضعافاً كثيرة وله أجر كريم » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٦) فى أ :« وحائط له » .

أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح. قالت : لبيك. فقال: اخرجى ، فقد أقرضته ربى ، عز وجل ـ وفى رواية : أنها قالت له : رَبح بيعك يا أبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وأن رسول الله ﷺ قال : « كم من عَذْق رَدَاح فى الجنة لأبى الدحداح » . وفى لفظ : « رب نخلة مدلاة عروقها درّ وياقوت ، لأبى الدحداح فى الجنة » (١) .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين : أنهم (٢) يوم القيامة يسعَى نورهم بين أيديهم فى عَرصات القيامة ، بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم مَن نوره مثل النخلة ، ومنهم مَن نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً مَن نوره فى إبهامه يتّقد مرة ويطفأ مرة (٣) . ورواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير .

وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضىء نُوره من المدينة إلى عَدَن أبين وصنعاء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه » (٤) .

وقال سفيان الثورى ، عن حُصَين ، عن مجاهد عن جُنَادة بن أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم ، وسيماكم وحُلاكم ، ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك . يا فلان ، لا نور لك . وقرأ : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

وقال الضحاك : ليس لأحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفئ نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين ، فقالوا : ربنا ، أتمم لنا نورنا .

وقال الحسن [ فى قوله ] (٥) : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ : يعنى : على الصراط .

---

(١) ورواه أبو يعلى فى مسنده (٨/ ٤٠٤) عن محرز بن عون ، عن خلف بن خليفة به ، وضعفه الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية برقم (٤٠٨٠) كما ذكره المحقق الفاضل حسين أسد .

(٢) فى م : « أنه » .

(٣) فى م : « ويطفأ أخرى » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٢٨) .

(٥) زيادة من أ .

وقد قال ابن أبي حاتم ، رحمه الله: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب ، أخبرنا عمى [١]، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سعد [٢] بن مسعود : أنه سمع عبد الرحمن بن جُبَير يحدث : أنه سَمعَ أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النبى ﷺ قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن له برفع رأسه ، فأنظر من بين يدى ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، فأعرف أمتى من بين الأمم » . فقال له رجل : يا نبى الله ، كيف تعرف أمتك من بين الأمم ، ما بين نوح إلى أمتك؟ قال: « أعرفهم ، مُحَجَّلون من أثر الوضوء ،ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ،وأعرفهم يُؤتَون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم وذريتهم[٣] » [٤] .

وقوله : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ : قال الضحاك : أى وبأيمانهم كتبهم ، كما قال : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الإسراء: ٧١].

وقوله : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أى : يقال لهم : بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ : وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأهوال المزعجة،والزلازل العظيمة،والأمور الفظيعة [٥] ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله ، وترك ما عنه زجر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا صفوان بن عمرو ، حدثنى سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة فى باب دمشق ، ومعنا أبو أمامة الباهلى ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا ــ يشير إلى القبر ــ بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم فى بعض تلك المواطن [حتى] [٦] يغشى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذى ضربه الله فى كتابه ، قال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠] ، فلا يستضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضىء الأعمى بنور [٧] البصير ، ويقول المنافقون للذين آمنوا : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ ، وهى خدعة الله التى خدع

---

(١) فى أ : « أخى » . (٢) فى م : «سعيد » . (٣) فى م : « وبأيمانهم » .

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٧٨) من طريق عبد الله بن صالح ، عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبى حبيب به نحوه ، وله طريق آخر سيأتى عند تفسير سورة التحريم .

(٥) فى أ : « العظيمة » . (٦) فى هـ : « يوم » ، والمثبت من م ، أ . (٧) فى م : « ببصر » .

بها المنافقين (١) حيث قال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢] . فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور ، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ، ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الآية . يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق .

ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا ابن حيوة ، حدثنا أرطاة بن المنذر ، حدثنا يوسف بن الحجاج ، عن أبى أمامة قال : تُبعَثُ ظلمة يوم القيامة ، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه ، حتى يبعثَ الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم ، فيتبعهم المنافقون فيقولون : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ .

وقال العوفى ، والضحاك ، وغيرهما ، عن ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور (٢) دليلا من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ ، فإنا كنا معكم فى الدنيا . قال المؤمنون : ﴿ ارْجِعُوا ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا هنالك النور .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا الحسن بن علوية القطان ، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا إسحاق بن بشر أبو (٣) حذيفة ، حدثنا ابن جريج ، عن ابن أبى مُلَيْكة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله يعطى كل مؤمن نوراً ، وكل منافق نورا ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ . وقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحريم:٨] . فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً » (٤) .

وقوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ : قال الحسن ، وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :هو الذى قال الله تعالى : ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] . وهكذا رُوى عن مجاهد ، رحمه الله ، وغير واحد ، وهو الصحيح .

﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أى : الجنة وما فيها ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أى : النار . قاله قتادة ، وابن زيد ، وغيرهما .

قال ابن جرير : وقد قيل : إن ذلك السور سورُ بيت المقدس عند وادى جهنم . ثم قال :

حدثنا ابن البرقى ، حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، عن سعيد بن عطية بن قيس ، عن أبى العوام ـ

---

(١) فى م : « المنافقون » وهو خطأ . (٢) فى م ، أ : « النور لهم » .

(٣) فى م ، أ ، هـ : « ابن » ، والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير .

(٤) المعجم الكبير ( ١١ / ١٢٢ ) وقال الهيثمى فى المجمع ( ١٠ / ٣٩٥ ) : « فيه إسحاق بن بشر وهو متروك » .

مؤذن بيت المقدس ــ قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إن السور الذى ذكر [١] الله فى القرآن: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ هو السور الشرقى باطنه المسجد وما يليه ، وظاهره وادى جهنم .

ثم روى عن عبادة بن الصامت ، وكعب الأحبار ، وعلى بن الحسين زين العابدين ، نحو ذلك. وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك ، لا أن هذا هو الذى أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادى المعروف بوادى جهنم ؛ فإن الجنة فى السموات فى أعلى عليين ، والنار فى الدركات أسفل سافلين . وقول كعب الأحبار : إن الباب المذكور فى القرآن هو باب الرحمة الذى هو أحد أبواب المسجد ، فهذا من إسرائيلياته وتُرّهاته . وإنما المراد بذلك :سورٌ يُضرَب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دُخولهم أغلق الباب وبقى المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وجهل وشك وحيرة ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين : أما [٢] كنا معكم فى الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أى : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى ، قد كنتم معنا ، ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ ، قال بعض السلف : أى فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قتادة : ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أى: بالبعث بعد الموت ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ أى : قلتم : سيغفر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى : مازلتم فى هذا حتى جاء الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أى : الشيطان .

قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار .

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : أنكم كنتم معنا [أى] [٣] : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك ، فكنتم تُراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتاً ، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويُماز بينهم حينئذ .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الذى أخبر الله به عنهم ، حيث يقول ــ وهو أصدق القائلين ــ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا

---

(١) فى م : « ذكره » . (٢) فى م : « إنا » . (٣) زيادة من م .

نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٣٨ ـ ٤٧] ، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ. ثم قال تعالى :﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر:٤٨] ،كما قال تعالى هاهنا: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ، ما قبل منه .

وقوله : ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى : هى مصيركم وإليها منقلبكم .

وقوله : ﴿ هِيَ مَوْلاكُمْ ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ، وبئس المصير .

**﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾ .**

يقول الله تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقادُ له وتسمع له وتطيعه .

قال عبد الله بن المبارك : حدثنا صالح المُرّى ، عن قتادة ، عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن ، فقال : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية ، رواه ابن أبى حاتم ، عن الحسن بن محمد بن الصباح ، عن حسين المروزى ، عن ابن المبارك ، به .

ثم قال هو ومسلم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال ـ يعنى الليث ـ عن عون بن عبد الله ، عن أبيه ، عن ابن مسعود، رضى الله عنه ، قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الآية] (١) إلا أربع سنين (٢) .

كذا رواه مسلم فى آخر الكتاب . وأخرجه النسائى عند تفسير هذه الآية ، عن هارون بن سعيد الأيلى ، عن ابن وهب ، به (٣) . وقد رواه ابن ماجة من حديث موسى بن يعقوب الزمعى (٤) ، عن أبى حزم ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، مثله (٥) . فجعله من مسند ابن الزبير . لكن رواه البزار فى مسنده من طريق موسى بن يعقوب ، عن أبى حازم ، عن عامر ، عن ابن الزبير،

---

(١) زيادة من م .
(٢) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٧) .
(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٦٨) .
(٤) فى أ : « الربعى » .
(٥) سنن ابن ماجة برقم (٤١٩٢) .

عن ابن مسعود ، فذكره [١] .

وقال سفيان الثورى ، عن المسعودى ، عن القاسم قال : مَلّ أصحاب رسول الله ﷺ ملة ، فقالوا : حدثنا يا رسول الله . فأنزل الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣] قال : ثم ملّوا ملة فقالوا : حدِّثنا يا رسول الله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر:٢٣] . ثم ملوا ملة فقالوا : حدثنا يا رسول الله . فأنزل الله : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [٢] .

وقال قتادة : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : ذُكِرَ لنا أن شداد بن أوس كان يروى عن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما يرفع [٣] من الناس الخشوع » [٤] .

وقوله : ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد .

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى : فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة . كما قال : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة :١٣] ، أى : فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التى أمروا بها ، وارتكبوا مانهو عنه ؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شىء من الأمور الأصلية والفرعية .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا شهاب بن خراش ، حدثنا حجاج بن دينار ، عن منصور بن المعتمر ، عن الربيع بن عَمِيلة الفزارى قال : حدثنا عبد الله بن مسعود حديثاً ما سمعت أعجب إلىّ منه ، إلا شيئاً من كتاب الله ــ أو : شيئاً قاله النبى ﷺ ــ قال : « إن بنى إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم ، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم [٥] واستلذته ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم فقالوا : تعالوا ندع

---

(١) مسند البزار برقم (١٤٤٣) وقال : « لا نعلم روى ابن الزبير عن ابن مسعود إلا هذا الحديث » .

(٢) روى ابن جرير فى تفسيره (١٥/ ٥٥٢) ط ــ المعارف ، من طريق المسعودى عن عون بن عبد الله نحوه مرسلاً دون ذكر الشاهد هنا .

(٣) فى أ : « يرفع الله » .

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٧/ ١٣١) ووصله الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ٢٩٥) فرواه من طريق عمران القطان ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن شداد بن أوس مرفوعاً به ، وعمران القطان متكلم فيه .

(٥) فى أ : « أنفسهم » .

بنى إسرائيل إلى كتابنا هذا ، فمن تابعنا عليه تركناه ، ومن كره أن يتابعنا (١) قتلناه . ففعلوا ذلك ، وكان فيهم رجل فقيه ، فلما رأى ما يصنعون عَمَدَ إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه فى شىء لطيف، ثم أدرجه ، فجعله فى قرن ثم علق ذلك القرن فى عنقه ، فلما أكثروا القتل قال بعضهم لبعض: ياهؤلاء ، إنكم قد أفشيتم القتل فى بنى إسرائيل ، فادعوا فلانا فاعرضوا عليه كتابكم ، فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس ، وإن أبى فاقتلوه . فدعوا فلاناً ذلك الفقيه فقالوا: تؤمن بما فى كتابنا ؟ قال: وما فيه ؟ اعرضوه علىّ . فعرضوه عليه إلى آخره ، ثم قالوا : أتؤمن بهذا ؟ قال : نعم ، آمنت بما فى هذا وأشار بيده إلى القرن ــ فتركوه ، فلما مات نبشوه فوجدوه مُتَعلّقا (٢) ذلك القرن ، فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله ، فقال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ، ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة . فافترقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة ، وخير ملَلهم ملة أصحاب ذى القرن » .

قال ابن مسعود : [وإنكم] (٣) أوشك بكم إن بقيتم ــ أو : بقى من بقى منكم (٤) ــ أن تروا أموراً تنكرونها ، لا تستطيعون لها غِيَراً ، فبحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره .

وقال أبو جعفر الطبرى : حدثنا ابن(٥) حُميد ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن أبى معشر ، عن إبراهيم قال : جاء عتريس بن عُرقوب (٦) إلى ابن مسعود فقال : يا عبد الله (٧)، هلك من لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فقال عبد الله : هلك من لم يعرف قلبُه معروفاً ولم ينكر قلبه منكراً ؛ إن بنى إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ، اخترعوا كتاباً من بين أيديهم وأرجلهم ، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم ، وقالوا : نعرض بنى إسرائيل على هذا الكتاب فمن آمن به تركناه، ومن كفر به قتلناه . قال : فجعل رجل منهم كتاب الله فى قَرْن ، ثم جعل القرن بين ثُنْدُوتيه فلما قيل له : أتؤمن بهذا ؟ قال : آمنت به ــ ويومئ إلى القرن بين ثندوتيه ــ ومالى لا أومن بهذا الكتاب ؟ فمن خير مِلَلِهم اليوم ملّةَ صاحب القَرن (٨).

وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ : فيه إشارة إلى أنه ، تعالى ، يلين القلوب بعد قسوتها ، ويَهدى الحَيَارى بعد ضَلَتها ، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان [الوابل] (٩)، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

(١) فى أ : « يتابعنا عليه » . (٢) فى أ : « معلقاً » . (٣) زيادة من م .
(٤) فى م : « معكم » . (٥) فى أ : « أبو » . (٦) فى أ : « جابر بن سويد عن قرب » .
(٧) فى أ : « يا أبا عبد الله » .
(٨) تفسير الطبرى ( ٢٧ / ١٣٢ ) .
(٩) زيادة من أ .

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عما يثيب به المُصَّدقين والمُصَّدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أى: دفعوه بنية خالصة ابتغاء وجه الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً ؛ ولهذا قال : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أى: ثواب جزيل حسن ، ومرجع صالح ومآب ﴿كَرِيمٌ﴾ .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ : هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون .

قال العوفى ، عن ابن عباس قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ : هذه مفصولة ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ .

وقال أبو الضحى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وهكذا قال مسروق ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم .

وقال الأعمش عن أبى الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله فى قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم ثلاثة أصناف : يعنى المصدقين ، والصديقين ، والشهداء ، كما قال [الله] (١) تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء:٦٩] ، ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان . ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما رواه الإمام مالك بن أنس ، رحمه الله ، فى كتابه الموطأ ، عن صفوان بن سليم ، عن عطاء بن يَسَار ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال : « بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » .

اتفق البخارى ومسلم على إخراجه من حديث مالك ، به (٢) .

وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء . حكاه ابن جرير عن مجاهد ، ثم قال ابن جرير :

---

(١) زيادة من أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١) .

حدثنى صالح بن حرب أو مَعْمَر ، حدثنا إسماعيل بن يحيى ، حدثنا ابن عَجْلان ، عن زيد بن أسلم ، عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مؤمنو أمتى شهداء » . قال : ثم تلا ﷺ هذه الآيـة : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ** [ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ** ] (١) ﴾ . هذا حديث غريب (٢) .

وقال أبو إسحاق ، عن عمرو بن ميمون فى قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾ قال : يجيؤون يوم القيامة معاً كالإصبعين .

وقوله : ﴿**وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ أى : فى جنات النعيم ، كما جاء فى الصحيحين : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خُضْر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قُتلنا أول مرة . فقال: إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون » (٣) .

وقوله : ﴿**لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾ أى : لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم فى ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن أبى يزيد الخولانى قال : سمعت فضالة بن عُبَيد يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدو فصدق الله فقتل ، فذلك (٤) الذى ينظر الناس إليه هكذا ــ ورفع رأسه حتى سقطت قَلَنسُوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر ــ والثانى مؤمن (٥) لقى العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح ، جاءه سهم غَرْب فقتله ، فذاك فى الدرجة الثانية ، والثالث رجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الثالثة، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً ، لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الرابعة » (٦) .

وهكذا رواه على بن المدينى ، عن أبى داود الطيالسى ، عن ابن المبارك ، عن ابن لَهيعة ، وقال: هذا إسناد مصرى صالح . ورواه الترمذى من حديث ابن لهيعة وقال : حسن غريب (٧) .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ : لما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

---

(١) زيادة من م .

(٢) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٣ ) .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود ، رضى الله عنه ، ولم أقع عليه عند البخارى .

(٤) فى م : « فذاك » . (٥) فى أ : « رجل » .

(٦) المسند (١/ ٢٣) .

(٧) سنن الترمذى برقم (١٦٤٤) .

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) ﴾ .

يقول تعالى مُوهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها : ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤] .

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو : المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس، كما قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا [وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ] (١)﴾ [الشورى: ٢٨] .

وقوله : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً (٢) نضرا ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أى : يصير يَبَساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه ويَنْفَد (٣) بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشىء اليسير ، كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] . ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حَذّر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير ، فقال : ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : هى متاع فانٍ غارٌّ (٤) لمن ركن إليه ، فإنه يغتر

(١) زيادة من أ . (٢) فى أ : « ما أخضر » . (٣) فى أ : « ويفقد » .
(٤) فى أ : « عارٍ » .

بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها،وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة .

قال ابن جرير : حدثنا على بن حرب الموصلى ، حدثنا المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها . اقرؤوا : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ » (١) .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيح بدون هذه الزيادة (٢) ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ووكيع ، كلاهما عن الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَلْجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » .

انفرد بإخراجه البخارى فى « الرقاق » ، من حديث الثورى ، عن الأعمش ، به (٣) .

ففى هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلهذا حثه الله (٤) على المبادرة إلى الخيرات ، من فعل الطاعات ، وترك المحرمات ، التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له الثواب والدرجات ، فقال تعالى : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ : والمراد جنس السماء والأرض ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ آل عمران:١٣٣]. وقال هاهنا : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : هذا الذى أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ،كما قدَّمنا فى الصحيح:أن فقراء المهاجرين قالوا : يارسول الله ، ذهب أهل الدُّثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . قال : « وما ذاك ؟ » . قالوا : يُصَلُّون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويُعتقون ولا نُعْتق . قال : « أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم : تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » . قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فَعَلنا ، ففعلوا مثله ! فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٥) .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٣٤) وليس فى المطبوع هذه الزيادة ، فلعل الحافظ رآها فى نسخة أخرى .
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤١٥) من حديث سهل بن سعد ، رضى الله عنه .
(٣) المسند (١/ ٣٨٧) وصحيح البخارى برقم (٦٤٨٨) .
(٤) فى م : « فلهذا حث تعالى » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٨٤٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩٥) .

**مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)** ﴾ .

يخبر تعالى عن قدره السابق فى خلقه قبل أن يبرأ البرية ، فقال : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ** ﴾ ، أى : فى الآفاق وفى نفوسكم ﴿ **إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا** ﴾ أى : من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة .

وقال بعضهم : ﴿ **مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا** ﴾ : عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية ؛ لدلالة الكلام عليها ، كما قال ابن جرير :

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن منصور بن عبد الرحمن قال : كنت جالساً مع الحسن ، فقال رجل : سله عن قوله : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا** ﴾ فسألته عنها ، فقال : سبحان الله ! ومن يشك فى هذا ؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ، ففى كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة [(١)] .

وقال قتادة : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ** ﴾ قال : هى السنون . يعنى : الجَدْب ، ﴿ **وَلا فِي أَنفُسِكُمْ** ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض . قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قَدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدَرية نُفاة العلم السابق ـ قبحهم الله ـ وقال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة وابن لَهِيعة قالا : حدثنا أبو هانئ الخولانى : أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلى يقول : سمعت عبد الله بن عَمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قَدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » .

ورواه مسلم فى صحيحه ، من حديث عبد الله بن وَهب وحيوة بن شُرَيح ونافع بن يزيد ، ثلاثتهم عن أبى هانئ ، به . وزاد ابن وهب : « وكان عرشه على الماء » . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح [(٢)] .

وقوله : ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ أى : إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد فى حينها ، سهل على الله ، عز وجل [(٣)] ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٣٥) .

(٢) المسند (٢/ ١٦٩) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) وسنن الترمذى برقم (٢١٥٦) .

(٣) فى أ : « تعالى » .

وقوله : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ أى : أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا [١] للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، فإنه [٢] لو قدر شيء لكان ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ أى :جاءكم ، ويقرأ : « أتاكُم » أى :أعطاكم . وكلاهما متلازمان ، أى: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخذوا نعم [٣] الله أشراً وبطراً ، تفخرون بها على الناس ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ، أى : مختال فى نفسه متكبر فخور ، أى : على غيره .

وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفَرَح شكراً والحزن صبراً .

ثم قال : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨] .

**﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ .**

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو : النقل المصدق ﴿وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو : العدل . قاله مجاهد، وقتادة ، وغيرهما . وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ، كما قال : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود:١٧] ، وقال : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، وقال : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٧] ؛ ولهذا قال فى هذه الآية : ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أى : بالحق والعدل وهو : اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذى جاؤوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق ، كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام:١١٥] أى : صدقاً فى الإخبار ، وعدلاً فى الأوامر والنواهى . ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣] .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أى : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل ، فلما قامت الحجة على من

---

(١) فى أ : « كتابنا » . (٢) فى م : « لأنه » . (٣) فى أ : « نعمة » .

خالف [١] ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود ، من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عن حسان بن عطية ، عن أبي المنيب [٢] الجرشي الشامي ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثتُ بالسيف بين يَدَى الساعة حتى يُعبَد الله وحده لا شريك له ، وجُعِل رزقى تحت ظِلّ رُمْحى ، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمرى ، ومن تَشبَّه بقوم فهو منهم » [٣] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعنى : السلاح كالسيوف ، والحراب ، والسنان ، والنصال، والدروع ، ونحوها . ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أى : فى معايشهم كالسكة والفأس والقدوم ، والمنشار ، والإزميل ، والمجرفة ، والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك .

قال علْباء[٤] بن أحمد ، عن عِكرِمة ، عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم : السندان[٥] والكلْبَتان والميقعَة [٦] ــ يعنى المطرقة . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أى : من نيته فى حمل السلاح نصرة الله ورسله، ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : هو قوى عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ، عليه السلام ، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم ، عليه السلام ، خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده ، إلا وهو من سلالته ،كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [يعنى] [٧] :حتى كان آخر أنبياء بنى إسرائيل عيسى ابن مريم الذى بشر بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

---

(١) فى م : « على من تخلف منهم » .
(٢) فى أ : « المسيب » .
(٣) المسند (٢/ ٥٠) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣١) .
(٤) فى أ : « قال علياء » .
(٥) فى أ : « السنداب » .
(٦) فى م : « المدقة » ، وفى أ : « والمنفعة » .
(٧) زيادة من أ .

وآتَيْنَاهُ الإنجيلَ ﴾ وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوه﴾ وهم الحواريون ﴿رأفةً ورَحْمَةً ﴾ أى : رأفة وهى الخشية ﴿ ورحْمَةً ﴾ بالخلق .

وقوله : ﴿ورَهْبَانيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أى : ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله : ﴿ إلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ : فيه قولان ، أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة . والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقوله : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام . وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما : فى الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ، عز وجل .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا إسحاق بن أبى حمزة أبو يعقوب الرازى ، حدثنا السندى بن عبدويه [١] ، حدثنا بُكَيْر بن معروف ، عن مُقاتِل بن حَيَّان ، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود ، عن أبيه ، عن جده ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا ابن مسعود » . قلت : لبيك يا رسول الله . قال : « هل علمت أن بنى إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ؟ لم ينج منها إلا ثلاث فرق ، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت الجبابرة فقُتلت فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة ، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقتلت وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران ، فصبرت ونجت . ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت ، وهم الذين ذكرهم الله ، عز وجل: ﴿ ورَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ » [٢] .

وقد رواه ابن جرير بلفظ آخر من طريق أخرى فقال : حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا داود ابن المحبر ، حدثنا الصَّعق بن حَزْن ، حدثنا عقيل الجعدى ، عن أبى إسحاق الهمدانى ، عن سُوَيْد ابن غفلة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « اختلف من كان قبلنا على ثلاث وسبعين فرقة ، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم . . . » وذكر نحو ما تقدم ، وفيه : « ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ هم الذين آمنوا بى وصدقونى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهم الذى كذبونى وخالفونى » [٣] .

ولا يقدح فى هذه المتابعة لحال داود بن المحبر ، فإنه أحد الوضاعين للحديث ، لكن[٤] قد أسنده

---

(١) فى م : « السندى بن عبد ربه » ، وفى أ : « السرى بن عبد ربه » .

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/٢١١) من طريق هشام بن عمار ، عن الوليد بن مسلم ، عن بكير بن معروف به نحوه ، وبكير بن معروف متكلم فيه .

(٣) تفسير الطبرى ( ٢٧ / ١٣٨ ) .

(٤) فى م : « ولكن » .

أبو يعلى ، وسنده [١] عن شيبان بن فَرُّوخ ، عن الصَّعق بن حَزْن ، به مثل ذلك [٢]. فقوى الحديث من هذا الوجه .

وقال ابن جرير ، وأبو عبد الرحمن النسائى ــ واللفظ له ــ : أخبرنا الحسين بن حُرَيث ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن سفيان بن سعيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس، رضى الله عنهما [٣] ، قال : كان ملوك بعد عيسى ، عليه السلام ، بدلت التوراة والإنجيل ، فكان منهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ، فقيل لملوكهم : ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمونا هؤلاء ، إنهم يقرؤون : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] ، هذه [٤] الآيات ، مع ما يعيبوننا به من أعمالنا فى قراءتهم ، فادعهم فليقرؤوا كما نقرأ ، وليؤمنوا كما آمنا . فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل ، إلا ما بدلوا منها ، فقالوا : ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا : فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة ، ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نسيح فى الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش ، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا . وقالت طائفة : ابنوا لنا دوراً فى الفيافى، ونحتفر الآبار ونحترث [٥] البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم . وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ، ففعلوا ذلك فأنزل الله ، عز وجل : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ والآخرون قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم [٦] ، فلما بُعث النبى ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل ، انحط منهم رجل من صومعته ، وجاء سائح من سياحته ، وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه ، فقال الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى ابن مريم وبالتوراة والإنجيل ، وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم قال[٧] : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد:٢٨] : القرآن ، واتباعهم النبى ﷺ، قال : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [٨] .

هذا السياق فيه غرابة ، وسيأتى تفسير هاتين الآيتين الأُخريين على غير هذا ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أحمد بن عيسى ، حدثنا عبد الله بن وهب ، حدثنى سعيد بن عبد الرحمن بن أبى العمياء : أن سهل بن أبى أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن

---

(١) فى أ : « فى مسنده » .

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير ( ١٠ / ٢٧٢ ) من طريق محمد الحضرمى ، عن شيبان به ، ورواه الحاكم فى المستدرك ( ٢/ ٤٨٠) من طريق عبد الرحمن بن المبارك ، عن الصعق بن حزن به . قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبى . قلت : « ليس بصحيح ، فإن فيه الصعق بن حزن ، عن عقيل بن يحيى ، والصعق وإن كان موثقاً ، فإن شيخه قال فيه البخارى : منكر الحديث » .

(٣) فى م ، أ : « عنه » . (٤) فى م ، أ : « هؤلاء » . (٥) فى م : « ونحرث » .

(٦) فى م : « به » . (٧) فى م : « كما قال » .

(٨) تفسير الطبرى (٢٧ / ١٣٨ ) وسنن النسائى ( ٨ / ٢٣١ ) .

مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير ، وهو يصلى صلاة خفيفة (١) ، كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها ، فلما سلم قال : يرحمك الله ، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة ، أم شيء تنفلته ؟ قال : إنها المكتوبة ، وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه ، إن رسول الله ﷺ كان يقول: « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » . ثم غدوا من الغد فقالوا : نركب فننظر ونعتبر . قال : نعم ، فركبوا جميعاً ، فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا ، خاوية على عروشها فقالوا: تعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفنى بها وبأهلها . هؤلاء أهل الديار ، أهلكهم البغى والحسد ، إن الحسد يطفئ نور الحسنات ، والبغى يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزنى والكف والقدم والجسد واللسان ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعمُر ، حدثنا عبد الله ، أخبرنا سفيان ، عن زيد العَمِّى ، عن أبى إياس ، عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « لكل نبى رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله ، عز وجل » (٣) .

ورواه الحافظ أبو يعلى ، عن عبد الله بن محمد بن أسماء ، عن عبد الله بن المبارك به ولفظه : «لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله » (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين ــ هو ابن محمد ــ حدثنا ابن عياش ــ يعنى إسماعيل ــ عن الحجاج بن مروان (٥) الكلاعى ،وعقيل بن مدرك السلمى ،عن أبى سعيد الخدرى ،رضى الله عنه ، أن رجلاً جاءه فقال : أوصنى . فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض . تفرد به أحمد (٦) .

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾** .

قد تقدم فى رواية النسائى عن ابن عباس : أنه حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما فى الآية التى فى القصص (٧) ، وكما فى حديث الشعبى عن أبى بُرْدَة ، عن

---

(١) فى أ ، م « خفيفة وقعة » .
(٢) مسند أبى يعلى ( ٦ / ٣٦٥ ) .
(٣) المسند ( ٣ / ٢٦٦ ) وفيه زيد العمى ضعيف .
(٤) مسند أبى يعلى ( ٧ / ٢١٠ ) .
(٥) فى م : « هارون » .
(٦) المسند ( ٣ / ٨٢ ) وقال الهيثمى فى المجمع ( ٤ / ٢١٥ ) : « رجال أحمد ثقات » .
(٧) عند تفسير الآية : ٥٤ .

أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » . أخرجاه فى الصحيحين (١) .

ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك ، وعتبة بن أبى حكيم ، وغيرهما ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهلُ الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية فى حق هذه الأمة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أى: ضعفين ، وزادهم : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعنى : هدى يُتَبصَّر به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم . فضلهم بالنور والمغفرة . ورواه ابن جرير عنه .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩] .

وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل عمر بن الخطاب حَبراً من أحبار يهود : كم أفضل ما ضعفت(٢) لكم حسنة ؟ قال : كفل ثلاثمائة وخمسون (٣) حسنة . قال : فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين. [ثم] (٤) ذكر سعيد قول الله ، عز وجل : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد : والكفلان فى الجمعة مثل ذلك . رواه ابن جرير (٥) .

ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً ، فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود . ثم قال: من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى . ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذى عملتم. فغضبت النصارى واليهود ، وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئا ؟ قالوا : لا . قال : فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء » (٦) .

قال أحمد : وحدثناه مُؤَمَّل ، عن سفيان ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، نحو حديث نافع ، عنه (٧) .

انفرد بإخراجه البخارى ، فرواه عن سليمان (٨) بن حرب ، عن حماد ، [ عن أيوب ] (٩) ، عن

---

(١) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤) .
(٢) فى م : « ضعف » . (٣) فى م : « وخمسين » . (٤) زيادة من أ .
(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٤١) .
(٦) المسند (٢/ ٦) .
(٧) المسند (٢/ ١١١) .
(٨) فى أ : « سليم » .
(٩) زيادة من صحيح البخارى .

نافع، به [١]. وعن قتيبة ، عن الليث ، عن نافع ، بمثله [٢] .

وقال البخارى : حدثنى محمد بن العلاء ، حدثنا أبو أسامة ، عن بَريد [٣] ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا ، وما عملنا باطل . فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبو وتَرَكُوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ماعملنا باطل ، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم ؛ فإن ما بقى من النهار شىء يسير . فأبوا ، فأستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قَبلوا من هذا النور » انفرد به البخارى [٤] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أى : ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رَدّ ما أعطاه الله ، ولا [على] [٥] إعطاء ما منع الله ، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قال ابن جرير : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ أى : ليعلم . وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها : « لكى يعلم». وكذا حطَّان [٦] بن عبد الله ، وسعيد بن جبير ، قال ابن جرير : لأن العرب تجعل « لا » صلة فى كل كلام دخل فى أوله أو آخره جحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف: ١٢] ، ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ، ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥] .

(١) صحيح البخارى برقم (٢٢٦٨) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٣٤٥٩) .
(٣) فى أ : « يزيد » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٢٧١) .
(٥) زيادة من أ .
(٦) فى م : « حطاب » .

## تفسير سورة المجادلة

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وَسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلةُ إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية (١) .

وهكذا رواه البخارى فى كتاب التوحيد تعليقاً فقال : وقال الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة ، فذكره (٢) . وأخرجه النسائى ، وابن ماجة ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من غير وجه ، عن الأعمش ، به (٣) .

وفى رواية لابن أبى حاتم عن الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة ، أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ، أَكَلَ شبابى ، ونَثَرَتْ (٤) له بطنى ، حتى إذا كَبُرَت سِنِّى ، وانقطع ولدى ، ظَاهَرَ منِّى ، اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ . وقال (٥) : وزوجها أوس بن الصامت .

وقال ابن لَهِيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة : هو أوس بن الصامت ــ وكان أوس امرأ به لمم، فكان إذا أخذه لممه (٦) واشتد به يظاهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

وهكذا روى هشام بن عروة ، عن أبيه : أن رجلاً كان به لممٌ ، فذكر مثله .

---

(١) المسند (٦/٤٦) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٣٨٥) .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٠) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٨) وتفسير الطبرى (٢٨/٥) .

(٤) فى أ : « وبرت » . (٥) فى م : « وقالت » .

(٦) فى م : « أخذه لمم » .

## سورة الحديد

مكّيّة، وهي تسع وعشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ التسبيح تنزيه الله تعالى اعتقادًا / وقولًا [١٦٥و] وعملًا عمّا لا يليق بجَنابه سبحانه مِن "سبَّح في الأرض والماء" إذا ذهب وأبعد فيهما، وحيث أُسنِد ههنا إلى غير العقلاء أيضًا فإنّ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يعمّ جميع ما فيهما سواءٌ كان مستقرًّا فيهما أو جزءًا منهما، كما مرّ في آية الكرسي. أريدَ به معنى عامّ مجازيٌّ شامل لِما نطق به لسانُ المقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين مِن الثقلين ولسانُ الحال كتسبيح غيرهم، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الموجودات يدلّ بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجبِ الوجودِ المتّصف بالكمال المنزَّه عن النقصان، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء، ٤٤/١٧]، وهو متعدّ بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح، ٩/٤٨].

و"اللام" إمّا مزيدة للتأكيد، كما في "نصحتُ له وشكرتُ له" أو للتعليل، أي: فَعَلَ التسبيح لأجل الله تعالى وخالصًا لوجهه. ومجيئُه في بعض الفواتح ماضيًا وفي البعض مضارعًا للإيذان بتحقّقه في جميع الأوقات. وفيه تنبيهٌ على أنّ حقّ مَن مِن شأنه التسبيح الاختياري أن يسبِّحه تعالى في جميع أوقاته، كما عليه الملأ الأعلى، حيث يسبِّحون الليلَ والنهار لا يفتُرون.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الغالب الذي لا يُمانعه ولا ينازِعه شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة والمصلحة. والجملة اعتراضٌ تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله مشعِر بعلّة الحُكم، وكذا[1] قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: التصرّف الكلّي فيهما وفيما فيهما مِن الموجودات، مِن حيث الإيجادُ والإعدام وسائر التصرّفات ممّا نعلمه وما لا نعلمه.

وقوله تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ استئناف مبيّن لبعض أحكام المُلك. وجعلُه حالًا مِن ضمير ﴿لَهُۥ﴾[2] ليس كما ينبغي. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جُملتها ما ذُكر مِن الإحياء والإماتة ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالِغ في القدرة.

[١٦٥ظ] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابق على سائر الموجودات / لِما أنّه مُبدئها ومُبدعها ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها حقيقةً أو نظرًا إلى ذاتها مع قطع النظر عن مُبْقِيها، فإنّ جميع الموجودات الممكنة إذا قُطع النظر عن علّتها فهي فانية.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ وجودًا لكثرة دلائله الواضحة ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ حقيقةً فلا تحوم حولها العقول. و"الواو" الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين المكتنفين بهما، والوسطى للجمع بين المجموعين فهو متّصف باستمرار الوجود في جميع الأوقات والظهور والخفاء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن عِلمه شيء مِن الظاهر والخفيّ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ[3] ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بيان لبعض أحكام مُلكهما، وقد مرّ تفسيره مرارًا. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ مرّ بيانه في سورة سبأ.[4]

---

١ وفي هامش م: أي: في الإشعار بها. «منه».

٢ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥٤.

٣ م س - في ستّة أيّام.

٤ في الآية الثانية منها.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ تمثيل لإحاطة عِلمه تعالى بهم وتصويرٌ لعدم خروجهم عنه أينما داروا. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبارة عن إحاطته بأعمالهم، فتأخيرُه عن الخلق لِما أنّ المراد به ما يدور عليه الجزاء مِن العِلم التابع للمعلوم، لا لِما قيل: مِن أنّه دليل عليه.[1]

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إليه وحدَه لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا ترجع جميع الأمور، على البناء للمفعول مِن "رَجَع رَجْعًا". وقُرِئ على البناء للفاعل[2] مِن "رَجَع رُجوعًا".

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ مرّ تفسيره مرارًا. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ﴾ أي: مبالِغ في العِلم ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بمكنوناتها اللازمة لها، بيانٌ لإحاطة عِلمه تعالى بما يُضمِرونه مِن نيّاتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يُظهرونها.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: جعلكم خلفاء في التصرّف فيه مِن غير أن تملكوه حقيقةً، عُبّر عمّا بأيديهم مِن الأموال والأرزاق بذلك تحقيقًا للحقّ وترغيبًا لهم في الإنفاق، / فإنّ مَن عَلِم أنّها لله عزّ وجلّ وإنّما [١٦٦و] هو بمنزلة الوكيل يصرِّفها إلى ما عيَّنه الله تعالى مِن المصارف هان عليه الإنفاقُ؛ أو جَعَلكم خلفاءَ ممّن قبلكم فيما كان بأيديهم بتوريثه إيّاكم، فاعتبِروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينتقل منكم إلى مَن بعدكم، فلا تبخلوا به.

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٧١.

٢ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ﴾ حسبما أُمِروا به ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. وفيه مِن المبالغات ما لا يخفى، حيث جُعِل الجملة اسميّة، وأعيدَ ذِكرُ الإيمان والإنفاقِ وكُرِّر الإسنادُ وفخِّم الأجرُ بالتنكير ووُصِف بالكبير.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استئناف مسوق لتوبيخهم على تَرْك الإيمان حسبما أُمِروا به بإنكار أن يكون لهم في ذلك عذرٌ ما في الجملة، على أنّ ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، والعامل ما فيه مِن معنى الاستقرار، أي: أيُّ سببٍ[1] حصل لكم غيرَ مؤمنين، على توجيه الإنكارِ والنفي إلى السبب فقط، مع تحقّق المسبَّب لا إلى السبب والمسبَّب جميعًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس، ٣٦/٢٢].

فإنّ همزة الاستفهام كما تكون تارةً لإنكار الواقع كما في "أتضربُ أباك؟" وأخرى لإنكار الوقوع كما في "أأضرِب أبي؟"، كذلك "ما" الاستفهاميّة قد تكون لإنكار سبب الواقع ونفيه فقط، كما فيما نحن فيه، وفي قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح، ٧١/١٣]، فيكون مضمون الجملة الحاليّة محقّقًا، فإنّ كلًّا مِن عدم الإيمان وعدمِ الرجاء أمرٌ محقَّق قد أُنكِر ونُفيَ سببُه، وقد تكون لإنكار سبب الوقوع ونفيه فيسريان إلى المسبَّب أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾... إلخ [يس، ٣٦/٢٢]، فيكون مضمون الجملة الحاليّة مفروضًا قطعًا، فإنّ عدم العبادة أمرٌ مفروضٌ حتمًا قد أُنكِر ونُفيَ سببُه فانتفى نفسه أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ مفيدةٌ لتوبيخهم على الكفر مع تحقّق ما يُوجِب عدمَه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يُوجِبه، أي: وأيُّ / عُذر في تَرْك الإيمان، والرسولُ يدعوكم [١٦٦ظ]
إليه وينبِّهكم عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ حال مِن مفعول ﴿يَدْعُوكُمْ﴾، أي: وقد أخَذ الله تعالى ميثاقكم بالإيمان مِن قبلُ، وذلك بنَصْب الأدلّة والتمكينِ مِن النظر.

---

١ م س: شيء [صُحِّح في هامش م].

وقُرئ: "وَقَدْ أُخِذَ"[١] مبنيًا للمفعول برفع "مِيثَاقُكُمْ". ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجبٍ ما، فإنّ هذا مُوجِب لا مُوجِبَ وراءه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ حسبما يعِنّ لكم مِن المصالح ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي: الله تعالى أو العبدُ بها ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ مِن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيلِ الآيات بعد نَصْب الحُجج العقليّة.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به بعد توبيخهم على ترك الإيمان بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضًا عُذرٌ مِن الأعذار. وحَذفُ المفعول لظهور أنّه الذي بيِّن حاله فيما سبق وتعيينُ المُنفَقِ فيه لتشديد التوبيخ، أي: وأيُّ شيء لكم في ألّا تنفقوا فيما هو قُربة إلى الله تعالى ما هو له في الحقيقة، وإنّما أنتم خلفاؤه في صَرْفه إلى ما عيَّنه مِن المصارف.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حال مِن فاعل ﴿لَا تُنفِقُوا۟﴾ ومفعولِه مؤكِّدةٌ للتوبيخ، فإنّ ترك الإنفاق بغير سبب قبيحٌ منكَرٌ، ومع تحقّق ما يُوجِب الإنفاقَ أشدُّ في القبح وأدخَلُ في الإنكار، فإنّ بيان بقاءِ جميع ما في السماوات والأرض مِن الأموال بالآخرة لله عزّ وجلّ مِن غير أن يبقى مِن أصحابها أحدٌ أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم مِن بيان أنّها لله تعالى في الحقيقة، وهم خلفاؤه في التصرّف فيها، كأنّه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله / والحالُ أنّه لا يبقى لكم منها شيء؛ بل تبقى كلّها لله تعالى. وإظهارُ [١٦٧و] الاسم الجليل في موقع الإضمار لزيادة التقرير وتربيةِ المهابة.

---

[١] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ بيان لتفاوت درجاتِ المنفِقين حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق بعد بيان أنّ لهم أجرًا كبيرًا على الإطلاق حثًا لهم على تحرّي الأفضل. وعطفُ القتال على الإنفاق للإيذان بأنّه مِن أهمّ موادّ الإنفاق مع كونه في نفسه مِن أفضل العبادات، وأنّه لا يخلو مِن الإنفاق أصلًا. وقسيمُ ﴿مَنْ أَنفَقَ﴾ محذوفٌ لظهوره ودلالةِ ما بعده عليه. وقُرئ: "قَبْلَ الفَتْحِ"[١] بغير ﴿مِن﴾، والفتحُ فتح مكّة.

﴿أُوْلَـٰئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ﴿مَنْ أَنفَقَ﴾، والجمعُ بالنظر إلى معنى ﴿مَنْ﴾، كما أنّ إفراد الضميرين السابقين بالنظر إلى لفظها. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببُعد منزلتهم وعُلوّ طبقاتهم في الفضل، ومحلُّه الرفع على الابتداء، أي: أولئك المنعوتون بذينك النعتين الجميلين ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأرفعُ منزلةً ﴿مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾؛ لأنّهم إنّما فعلوا ما فعلوا مِن الإنفاق والقتالِ قبل عزّة الإسلام وقوّة أهله عند كمال الحاجة إلى النُّصرة بالنفس والمال، وهم السابقون الأوّلون مِن المهاجرين والأنصارِ الذين قال فيهم النبي صلّى الله عليه وسلّم: «لو أنفق أحدُكم مثلَ أحُدٍ ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نَصيفه»،[٢] وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدِّين ودخولِ الناس فيه أفواجًا وقلّةِ الحاجة إلى الإنفاق والقتال.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحد مِن الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنّة لا الأوّلين فقط. وقُرئ: "وَكُلٌّ"[٣] بالرفع على الابتداء، أي: وكلٌّ وَعَده الله تعالى... إلخ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بظواهره وبواطنه فيجازيكم بحسبه. وقيل: نزلت الآية في أبي بكر رضي الله عنه، فإنّه أوّل مَن آمن، وأوّل مَن أنفق في سبيل الله، وخاصم الكفّار حتّى ضُرب ضربًا أشرفَ به على الهلاك.[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٢.

٢ صحيح البخاري، ٨/٥ (٣٦٧٣)؛ صحيح مسلم، ١٩٦٧/٤ (٢٥٤٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٦/٤.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٤ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٣/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٦/٤.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ⑪﴾

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ / ندبٌ بليغ مِن الله تعالى [١٦٧ظ]
إلى الإنفاق في سبيله بعد الأمر به والتوبيخ على تركه وبيانِ درجات المنفِقين، أي: مَن ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى رجاءَ أن يُعوِّضه، فإنّه كمَن يُقرِضه. وحُسنُ الإنفاق بالإخلاص فيه وتحرّي أكرمِ المال وأفضلِ الجهات.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى، كأنّه قيل: أيُقرِض الله أحدٌ فيضاعفَه له؟ أي: فيُعطيه أجرَه أضعافًا. ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وذلك الأجر المضمومُ إليه الأضعافُ كريمٌ في نفسه حقيقٌ بأن يتنافس فيه المتنافسون وإن لم يُضاعَف، فكيف وقد ضُوعِف أضعافًا كثيرة. وقُرِئ بالرفع[١] عطفًا على ﴿يُقْرِضُ﴾، أو حملًا على تقدير مبتدأ، أي: فهو يُضاعفه. وقُرِئ: "يُضعِّفه" بالرفع[٢] وبالنصب.[٣]

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ⑫﴾

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾،[٤] أو لقوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾، أو منصوب بإضمار "اذكر" تفخيمًا لذلك اليوم، وقولُه تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ حال مِن مفعول ﴿تَرَى﴾. قيل: نورهم الضياء الذي يُرى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾.[٥] وقيل: هو هداهم و﴿بِأَيْمَٰنِهِم﴾ كُتبهم، أي: يسعى إيمانهم وعملُهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كُتب أعمالهم.[٦] وقيل: هو القرآن.[٧]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٣ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٨.

٦ مرويّ عن الضحاك في جامع البيان للطبري، ٣٩٨/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٥/٨.

٧ القول في اللباب لابن عادل، ٤٦٩/١٨.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «يؤتَون نورهم على قَدْر أعمالهم، فمنهم مَن يُؤتى نورَه كالنخلة، ومنهم مَن يُؤتى كالرجل القائم، وأدناهم نورًا مَن نوره على إبهام رجله ينطفئ تارةً ويلمع أخرى».[١] قال الحسن: يستضيئون به على الصراط. وقال مقاتل: يكون لهم دليلًا إلى الجنّة.[٢]

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ مقدَّر بقول هو حال أو استئناف، أي: يقال لهم: بشراكم، أي: ما تبشَّرون به جنّاتٌ، أو بشراكم دخولُ جنّات. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن النور والبشرى بالجنان المخلَّدة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا غايةَ وراءه. وقُرئ: "ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ".[٣]

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ١٣﴾

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا، يقولون ذلك لِما أنّ المؤمنين يُسرَع بهم إلى الجنّة كالبروق الخاطفة على ركاب تزفّ بهم وهؤلاء مُشاة، أو انظروا إلينا فإنّهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذي بين أيديهم. وقُرئ: "أَنْظِرُونَا"[٤] مِن "النَّظِرَة" وهي الإمهال، جُعل اتّئادهم في المُضيّ إلى أن يلحقوا بهم إنظارًا لهم. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضئ منه، وأصله اتّخاذ القَبَس.

﴿قِيلَ﴾ طردًا لهم وتهكّمًا بهم مِن جهة المؤمنين أو جهة الملائكة ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: إلى الموقف ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فإنّه مِن ثمّة يُقتبَس، أو إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مباديه مِن الإيمان والأعمال الصالحة، أو ارجعوا خائبين خاسئين فالتمسوا نورًا آخرَ، وقد علموا ألّا نورَ وراءهم وإنّما قالوه تخييبًا لهم، أو أرادوا بالنور ما وراءهم مِن الظلمة الكثيفة تهكّمًا بهم.

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ٣٥/٨.
٢ القولان في اللباب لابن عادل، ٤٦٩/١٨.
٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٥٦/٤.
٤ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين الفريقين ﴿بِسُورٍ﴾ أي: حائط، و"الباء" زائدة ﴿لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ﴾ أي: باطن السور أو الباب: وهو الجانب الذي يلي الجنّةَ. ﴿فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ﴾ وهو الطرف الذي يلي النارَ ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ مِن جهته ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾. / وقُرِئَ: [١٦٨ظ]
"فَضَرَبَ"[١] على البناء للفاعل.

﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾

﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا يفعلون بعد ضَرْب السُّور ومشاهدةِ العذاب فقيل: يُنادونهم: ﴿أَلَمۡ نَكُن﴾ في الدنيا ﴿مَّعَكُمۡ﴾ يريدون به موافقتَهم لهم في الظاهر. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ في أمر الدين ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ الفارغةُ التي مِن جملتها الطمعُ في انتكاس أمر الإسلام ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ﴾ الكريم ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ أي: غرّكم الشيطان بأنّ الله عفوٌّ كريم لا يعذِّبكم. وقُرئَ: "الغُرُورُ"[٢] بالضمّ.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ فِداء، وقُرِئ: "تُؤخَذُ"[٣] بـ"التاء"، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ظاهرًا وباطنًا ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ لا تبرحونها أبدًا ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ أي: أولى بكم، وحقيقتُه مكانُكم الذي يقال فيه: "هو أولى بكم"، كما يقال: "هو مَئِنّة الكرم"، أي: مكان لقول القائل: "إنّه لكريمٌ"، أو مكانُكم عن قريب مِن "الوَلْي" وهو القُرب، أو ناصركم على طريقة قوله:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سِماك بن حرب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

٣ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.

تـحـيّـةُ بـيـنـهـم ضـربٌ وجـيـعُ[١]

أو متولِّيكم، تتوَلّاكم كما توليتُم موجِباتِها. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: النار.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ١٦﴾

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ ناعٍ عليهم تثاقلَهم في أمور الدِّين ورخاوةَ عقدهم فيها واستبطاءٌ لانتدابهم لِما نُدبوا إليه بالترغيب والترهيب. ورُوي أنّ المؤمنين كانوا مُجدِبين بمكّة، فلمّا هاجروا أصابوا الرزق والنعمة وفتروا عمّا كانوا عليه، فنزلت.[٢] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عُوتبنا بهذه الآية إلّا أربعُ سنين.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: إنّ الله تعالى استبطأ / قلوبَ المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاثَ [١٦٩و]
عشرةَ سنةً مِن نزول القرآن،[٤] أي: ألم يجئ وقتُ أن تخشع قلوبهم لذِكره تعالى وتطمئنّ به ويُسارعوا إلى طاعته بالامتثال بأوامره والانتهاء عمّا نُهوا عنه مِن غير توانٍ ولا فتور، مِن "أَنَى الأمرُ" إذا جاء إناهُ، أي: وقته.

وقُرئ: "أَلَمْ يَئِنْ"[٥] مِن "آنَ يئينُ" بمعنى "أنى"، وقُرئ: "أَلَمَّا يَأْنِ"،[٦] وفيه دلالةٌ على أنّ المنفيّ مُتوقَّع.

---

[١] عجُز بيت أوّله:

وخـيـلٍ قـد دلـفـتُ لـهـا بـخـيـلٍ

والبيت لعمرو بن مَعْديكَرِب الزُّبيدي في ديوانه، ص ١٤٩، ولمُحقِّقه تفصيل في تخريجه ونسبته. وقال البغدادي فيه: «وهذا البيت نَسَبه شُرّاح أبيات الكتاب وغيرهم إلى عمرو بن مَعْديكَرِب الصحابي، ولم أره في شعره. والعجبُ مِن شيخنا الشهاب الخَفاجي أنّه نسبه إليه في حاشية البيضاوي. وقال: "هو مِن قصيدة مسطورة له في المُفضّليّات"، مع أنّه غير موجود شعره في المُفضّليّات لا مِن كثيره ولا مِن قليله». خزانة الأدب، ٢٦٥/٩. والبيت معزوّ لعمرو في كتاب سيبويه، ٥٠/١؛ والنوادر لأبي زيد، ص ٤٢٨.

[٢] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٧/٤.

[٣] بلفظ قريب في صحيح مسلم، ٢٣١٩/٤ (٣٠٢٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٧/٤.

[٤] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٤.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٤.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن إسماعيل بن الحسن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٤.

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: **القرآن**، وهو عطف على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن كان هو المراد به أيضًا فالعطف لتغاير العنوانين، فإنّه ذِكر وموعظة كما أنّه حقّ نازل مِن السماء، وإلّا فالعطف كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال، ٨/٢]، ومعنى الخشوع له الانقياد التامّ لأوامره ونواهيه والعكوفُ على العمل بما فيه مِن الأحكام التي مِن جملتها ما سبَق وما لحِق مِن الإنفاق في سبيل الله تعالى. وقُرئ: "نُزِّل" مِن "التنزيل" مبنيًا للمفعول[١] ومبنيًّا للفاعل،[٢] و"أَنْزَلَ".[٣]

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ عطفٌ على ﴿تَخْشَعَ﴾. وقُرئ بـ"التاء"[٤] على الالتفات؛ للاعتناء بالتحذير. وقيل: هو نهيٌ عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وُبِخوا، وذلك أنّ بني إسرائيلَ كان الحقّ يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا **التوراة والإنجيل** خشعوا لله تعالى ورقَّت قلوبهم،[٥] ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: الأجل -وقُرئ: "الأَمَدّ"[٦] بتشديد "الدال"، أي: الوقت الأطوَل- وغَلَبهم الجفاء وزالت عنهم الرَّوعة التي كانت تأتيهم[٧] مِن الكتابَين، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كالحجارة أو أشدّ قسوةً. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن حدود دينهم رافضون لِما في كتابهم بالكلّيّة.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذِّكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ التي مِن جملتها هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقِلوا ما فيها وتعملوا / بموجَبها فتفوزوا بسعادة الدارين. [١٦٩ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس ويونس عن أبي عمرو. **المغني في القراءات** للنُّوْزاوازي، ص ١٧٦٥.

٢ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر وخلف ورَوح، ورُويس بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والحسن والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٥؛ **المغني في القراءات** للنُّوْزاوازي، ص ١٧٦٥.

٤ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٥ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٨/٤.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٨/٤.

٧ س: تعتريهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١٨﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي: المتصدِّقين والمتصدِّقات، وقد قُرئ كذلك،[١] وقُرئ بتخفيف "الصاد"[٢] مِن التصديق، أي: الذين صدَّقوا الله ورسوله ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قيل: هو عطفٌ على ما في ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ مِن معنى الفعل، فإنّه في حُكم الذين اصّدّقوا أو صَدَّقوا على القراءتين.[٣] وعُقِّب بأنّ فيه فصلًا بين أجزاء الصلة بأجنبيّ وهو ﴿ٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾. وأجيبَ بأنّ المعنى: إنّ الناس الذين تصدّقوا وتصدّقنَ وأقرضوا، فهو عطفٌ على الصلة مِن حيث المعنى مِن غير فصل.[٤]

وقيل: إن ﴿ٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ ليس بعطف على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ بل هو منصوب على الاختصاص،[٥] كأنّه قيل: إنّ المصّدّقين على العموم تغليبًا وأخصُّ المصّدِّقات مِن بينهم، كما تقول: إنّ الذين آمنوا ولا سيّما العلماءُ منهم وعملوا الصالحات لهم كذا، لكن لا على أنّ مدار التخصيص مزيدُ استحقاقهنّ لمضاعفة الأجر كما في المثال المذكور؛ بل زيادةُ احتياجهنّ إلى التصدّق الداعيةُ إلى الاعتناء بحثهنّ على التصدّق، لِما رُوي أنّه عليه السلام قال: «يا معشرَ النساء تصدَّقنَ، فإنّي أُريتُكنّ أكثرَ أهل النار».[٦]

وقيل: هو صلة لموصول محذوف معطوفٍ على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾، كأنّه قيل: والذين أقرضوا.[٧]

والقرضُ الحسَن عبارة عن التصدّق مِن الطيِّب عن طِيبة النفس وخلوصِ النيّة على المستحِقّ للصدقة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٤.

٤ التعقيب والجواب للفالي في التقريب في التفسير ١٨٨ظ، ونقلهما عنه الطِّيبي في فتوح الغيب، ٢٤٧/١٥.

٥ ما وقفتُ على هذا القول فيما بين يديّ مِن المظانّ.

٦ صحيح البخاري، ٦٨/١ (٣٠٤)؛ صحيح مسلم، ٨٦/١ (٧٩).

٧ القول في اللباب لابن عادل، ٤٨٤/١٨.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ على البناء للمفعول مسندًا إلى ما بعده مِن الجارّ والمجرور. وقيل: إلى مصدر ما في حيّز الصلة على حذف مضاف، أي: ثوابُ التصدّق.[١] وقُرئ على البناء للفاعل،[٢] أي: يُضاعِف الله تعالى. وقُرئ: "يُضَعَّفُ"[٣] بتشديد العين وفتحها.[٤] ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ مرّ ما فيه مِن الكلام.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ كافّةً، وقد مرّ بيانُ كيفيّة الإيمان بهم في خاتمة سورة البقرة.[٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ / إشارة إلى الموصول الذي هو مبتدأ، وما [١٧٠و] فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه قد مرّ سرّه مرارًا، وهو مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿هُمُ﴾ مبتدأ ثالث خبرُه ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾، وهو مع خبره خبرٌ للثاني، وهو مع خبره خبرٌ للأول، أو ﴿هُمُ﴾ ضمير الفصل، وما بعده خبرٌ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والجملةُ خبرٌ للموصول، أي: أولئك ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ بمنزلة الصدِّيقين والشهداء المشهورين بعُلوّ الرُّتبة ورِفعة المحلّ، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستُشهدوا في سبيل الله تعالى، أو هم المبالغون في الصِّدق حيث آمنوا وصدَّقوا جميعَ أخباره تعالى ورسلَه، والقائمون بالشهادة لله تعالى بالوحدانيّة، ولهم بالإيمان أو على الأمم يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ بيان لثمرات ما وُصفوا به مِن نُعوت الكمال، على أنّه جملة مِن مبتدأ وخبر، محلُّها الرفع على أنّه خبر ثانٍ للموصول، أو الخبرُ هو الجارّ وما بعده مرتفعٌ به على الفاعليّة، والضميرُ الأوّل على الوجه الأوّل للموصول والأخيران للصدِّيقين والشهداء، أي: لهم مِثلُ أجرهم ونورهم المعروفَين بغاية الكمال وعزّة المنال.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٤٨٤/١٨.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.
٣ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.
٤ وفي هامش م: لباب. | انظر: اللباب لابن عادل، ٤٨٤/١٨.
٥ في تفسير البقرة، ٢٨٥/٢.

وقد حُذف أداة التشبيه تنبيهًا على قوّة المماثلة وبلوغها حدَّ الاتّحاد، كما فُعل ذلك حيث قيل: هم الصدِّيقون والشهداء، وليست المماثلة بين ما للفريق الأوّلِ مِن الأجر والنور وبين تمامِ ما للفريقين الأخيرين؛ بل بين تمام ما للأوّل مِن الأصل والأضعاف وبين ما للأخيرين مِن الأصل بدون الأضعاف، وأمّا على الوجه الثاني فمرجع الكلّ واحد، والمعنى لهم الأجر والنور الموعودان لهم. هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم. وقد قيل: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خبره، وقيل: الخبر ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾... إلخ.[١]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بحيث لا يفارقونها / أبدًا. [١٧٠ظ]

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بعد ما بُيِّن حال الفريقين في الآخرة، شُرح حال الحياة الدنيا[٢] التي اطمأنّ بها الفريق الثاني، وأشيرَ إلى أنّها مِن محقَّرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء فضلًا عن الاطمئنان بها، وأنّها مع ذلك سريعة الزوال وشيكةُ الاضمحلال حيث قيل: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: الحُرّاث ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي: النبات الحاصل به.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجف بعد خُضرته ونضارته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته ناضرًا مونقًا. وقُرئ: "مُصْفَارًّا"،[٣] وإنّما لم يُقل: "فيصفرّ" إيذانًا بأنّ اصفراره مقارِن لجفافه، وإنّما المترتّب عليه رؤيته كذلك. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ هشيمًا متكسّرًا. ومحلّ "الكاف" قيل: النصب على الحاليّة مِن الضمير في ﴿لَعِبٌ﴾؛

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٤.

٢ س – الدنيا.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٦.

لأنّه في معنى الوصف، وقيل: الرفع على أنّه خبر بعد خبر لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بتقدير المضاف، أي: مَثَل الحياة الدنيا كمَثَل... إلخ.[١]

وبعد ما بُيّن حقارة أمر الدنيا تزهيدًا فيها وتنفيرًا عن العكوف عليها أشيرَ إلى فخامة شأنِ الآخرة وعِظَم ما فيها مِن اللذّات والآلام ترغيبًا في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرًا مِن عذابها الأليم، وقُدِّم ذِكر العذاب فقيل: ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأنّه مِن نتائج الانهماك فيما فُصِّل مِن أحوال الحياة الدنيا، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ عظيم لا يُقادَر قَدْره.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: لمَن اطمأنّ بها ولم يجعلها ذريعةً إلى الآخرة. عن سعيد بن جبير: متاعُ الغرور إن ألهَتك عن طلب الآخرة، فأمّا إذا دعَتك إلى طلب رضوان الله تعالى[٢] فنِعَم المتاع ونِعَم الوسيلة.[٣]

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: إلى موجِباتها مِن الأعمال الصالحة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كعرضهما جميعًا، وإذا كان عرضها / كذلك فما ظنُّك [١٧١و]
بطولها؟ وقيل: المراد بالعرض البسطَة. وتقديمُ المغفرة على الجنّة لتقدُّم التخلية على التحلية. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيه دليل على أنّ الجنّة مخلوقة بالفعل وأنّ الإيمان وحدَه كافٍ في استحقاقها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وُعد مِن المغفرة والجنّة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ عطاؤه ﴿يُؤْتِيهِ﴾ تفضّلًا وإحسانًا ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إيتاءه إيّاه مِن غير إيجاب. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ولذلك يُؤتي مَن يشاء مِثل ذلك الفضل الذي لا غايةَ وراءه.

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ٤٨٨/١٨.
٢ م – تعالى.
٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٩/٨.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كجَدْب وعاهة في الزروع والثمار ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفة ﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ أي: إلّا مكتوبةً مثبتةً في عِلم الله تعالى، أو في اللوح ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: نخلق الأنفس، أو المصائب، أو الأرض. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: إثباتها في كتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه فيه عن العُدّة والمُدّة.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟﴾ أي: أخبرناكم بذلك لئلّا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ مِن نِعَم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أعطاكم الله تعالى منها، فإنّ مَن عَلِم أنّ الكلّ مقدَّر يفوت ما قُدِّر فواته ويأتي ما قُدِر إتيانه لا محالةَ، لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آتٍ.

وقُرئ: "بِمَا أَتَاكُمْ"[1] مِن الإتيان. وفي القراءة الأولى إشعار بأنّ فوات النِّعَم يلحقها إذا خُلِّيت وطباعَها، وأمّا حصولها وبقاؤها فلا بدّ لهما مِن سبب يُوجِدها ويُبقيها. وقُرئ: "بِمَا أُوتِيتُمْ"،[2] والمرادُ به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى والفرحِ الموجِب للبطر والاختيال، ولذلك عُقِّب بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فإنّ مَن فرح بالحظوظ الدنيويّة وعظُمت في نفسه اختال وافتخر بها لا محالةَ. وفي تخصيص التذييل بالنهي عن الفرح المذكور إيذانٌ بأنّه أقبح مِن الأسى.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بدل مِن ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾، فإنّ المختال بالمال يضنّ به غالبًا ويأمر غيرَه به. أو مبتدأ خبرُه محذوف يدلّ عليه قوله تعالى: / ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، فإنّ معناه ومَن يُعرِض عن الإنفاق [١٧١ظ]
فإنّ الله غنيّ عنه وعن إنفاقه محمود في ذاته لا يضرّه الإعراض عن شكره

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٣.

بالتقرّب إليه بشيء مِن نعمه، وفيه تهديدٌ وإشعارٌ بأنّ الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفِق. وقُرئ: "فَإِنَّ اللهَ الغَنِيُّ".[١]

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكةَ إلى الأنبياء، أو الأنبياءَ إلى الأمم، وهو الأظهرُ، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الحُجج والمعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتاب الشامل للكلّ، ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل. رُوي أن جبريلَ عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال: مُرْ قومك يزِنوا به.[٢] وقيل: أريدَ به العدل ليُقام به السياسة ويُدفع به العدوان.[٣]

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدمُ عليه السلام مِن الجنّة ومعه خمسة أشياءَ مِن حديد: السَّنَدان والكلبتان والمِيقَعة والمِطرَقة والإبرة. ورُوي ومعه المَرّ والمِسحاة. وعن الحسن: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾: خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ [الزمر، ٦/٣٩]،[٤] وذلك أنّ أوامره تعالى وقضاياه وأحكامه تنزل مِن السماء.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيد﴾ لأنّ آلات الحروب إنّما تُتّخذ منه، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما مِن صنعة إلّا والحديد أو ما يُعمَل بالحديد آلتها. والجملةُ حال مِن ﴿الْحَدِيدَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ عطفٌ على محذوف يدلّ عليه ما قبله، فإنّه حال متضمِّنة للتعليل، كأنّه قيل: ليستعملوه، وليعلم الله عِلمًا يتعلّق به الجزاء مَن ينصره ورسلَه باستعمال السيوف والرماح وسائرِ الأسلحة في مجاهدة أعدائه، أو متعلِّق بمحذوف مؤخَّر، و"الواو" اعتراضيّة، أي: وليعلم الله مَن ينصره

---

١ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٠/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٦/٣.

٤ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٠/٤.

ورسلَه أنزله. وقيل: عطفٌ على قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.[١] وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَنصُرُ﴾، أو مفعوله، أي: غائبًا منهم، أو غائبين منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتراض تذييلي جيء به تحقيقًا للحقّ وتنبيهًا على أنّ تكليفهم الجهادَ وتعريضَهم للقتال ليس لحاجته في إعلاء كلمته وإظهارِ دينه إلى نصرتهم؛ بل إنّما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب، وإلّا فهو غنيّ بقدرته وعزّته عنهم في كلّ ما يريده.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نوعُ تفصيل لِمَا أُجمِل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾... إلخ،[٢] وتكريرُ القسم لإظهار مزيدِ الاعتناء بالأمر، أي: وبالله لقد / أرسلناهما ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا [١٧٢و]
إليهم الكتب. وقيل: المراد بالكتاب الخطّ بالقلم.[٣]

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: مِن الذرّيّة أو مِن المُرسَل إليهم المدلول عليهم بذِكر الإرسال والمرسَلين ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحقّ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم. والعدول عن سَنن المقابلة للمبالغة في الذمّ والإيذانِ بغَلَبة الضُّلّال وكثرتهم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي: ثمّ أرسلنا بعدهم رسلَنا ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلنا رسولًا بعد رسول حتّى انتهى إلى عيسى عليه السلام. والضمير لنوح وإبراهيمَ ومَن أُرسِلا إليهم، أو مَن عاصراهم مِن الرسل لا للذرّيّة، فإنّ الرسل المقفّى بهم مِن الذرّيّة. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وقُرئ بفتح "الهمزة"،[٤] فإنّه أعجمي لا يلزم فيه مراعاة أبنية العرب.

---

[١] القول في اللباب لابن عادل، ٥٠٠/١٨.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٠/٤.
[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٧.

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ وقُرئ: "رَآفَةً"[١] على "فَعَالة" ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: وفّقناهم للتراحم والتعاطف بينهم، ونحوُه في شأن أصحاب النبيّ عليه السلام ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح، ٢٩/٤٨]. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوب إمّا بفعل مضمر يفسِّره الظاهر، أي: وابتدعوا رهبانيّةً ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وإمّا بالعطف على ما قبلها و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ صفة لها، أي: وجعلنا في قلوبهم رأفةً ورحمةً ورهبانيّةً مبتدَعة مِن عندهم، أي: وفّقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانيّة واستحداثها، وهي المبالغة في العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس، ومعناها الفِعْلة المنسوبة إلى "الرَّهبان" وهو الخائف "فَعْلان" مِن رَهِب كـ"خشيان" مِن "خشي". وقُرئ بضمّ "الراء"،[٢] كأنّها نسبة إلى "الرُّهبان" وهو جمع "راهب" كـ"رَاكب" و"رُكْبان".

وسببُ ابتداعهم إيّاها أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام فقاتلوهم ثلاث مرّات، فقُتلوا حتّى لم يبقَ منهم إلّا قليل، فخافوا أن يُفتَتَنوا / في دينهم فاختاروا الرهبانيّة في قُلَل الجبال فارّين بدينهم مخلِصين أنفسَهم للعبادة. [١٧٢ظ]

وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ جملة مستأنَفة. وقيل: صفة أخرى لـ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾.[٣] والنفيُ على الوجه الأوّل[٤] متوجِّه إلى أصل الفعل. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطِع، أي: ما فرضناها نحن عليهم رأسًا، ولكنّهم ابتدعوها ابتغاءَ رضوان الله، فذمُّهم حينئذ بقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ مِن حيث أنّ النذر عهدٌ مع الله تعالى[٥] لا يحِلّ نكثه، لا سيّما إذا قُصِد به رضاه تعالى، وعلى الوجه الثاني[٦] متوجِّه إلى قَيده لا إلى نفسه، والاستثناء متّصل مِن أعمّ العِلَل، أي: ما كتبناها عليهم بأن وفّقناهم لابتداعها لشيء مِن الأشياء إلّا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقّوا بها الثواب، ومِن ضرورة ذلك أن يُحافظوا عليها ويُراعوها[٧] حقّ رعايتها، فما رعاها كلّهم؛ بل بعضهم.

---

١ قرأ بها قنبل بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مبشر بن عُبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٥٠٤/١٨.

٤ وفي هامش م: وهو أن يكون انتصاب ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ بمضمَر يفسِّره الظاهر. «منه».

٥ م – تعالى.

٦ وفي هامش م: وهو أن يكون انتصاب ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ بالعطف على ﴿رَأْفَةً﴾. «منه».

٧ س: ويراعوا.

﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ إيمانًا صحيحًا، وهو الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد رعاية رهبانيّتهم لا مجرّد رعايتها، فإنّها بعد البعثة لغوٌ محضٌ وكُفر بحتٌ، وأنّى لها استتباع الأجر. ﴿أَجۡرَهُمۡ﴾ أي: ما يُخصّ بهم مِن الأجر. ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حدّ الاتّباع. وحملُ الفريقين على مَن مضى مِن المراعين لحقوق الرهبانيّة قبل النسخ والمخلِّين بها إذ ذاك بالتثليث، والقولُ بالاتّحاد وقصدِ السُّمعة مِن غير تعرّض لإيمانهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكفرهم به، ممّا لا يُساعده المقام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بالرسل المتقدِّمة ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وفي إطلاقه إيذانٌ بأنّه عَلَم فرد في الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره.

﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بالرسول وبمَن قبله مِن الرسل عليهم السلام، لكن لا على معنى أنّ شريعتهم باقية بعد البعثة؛ بل على أنّها كانت حقّةً قبل النسخ. ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [الحديد، ٥٧/١٢]. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ما أسلفتم مِن الكفر والمعاصي، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ / أي: مبالغ في [١٧٣و]
المغفرة والرحمة.

﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

وقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ متعلِّق بمضمون الجملة الطلبيّة المتضمِّنة لمعنى الشرط؛ إذ التقدير إن تتّقوا الله وتؤمِنوا برسوله يؤتِكم كذا وكذا لئلّا يعلم الذين لم يُسلِموا مِن أهل الكتاب، أي: ليعلموا، و﴿لَا﴾ مزيدة

كما ينبئ عنه قراءة: "لِيَعْلَمَ"،[١] و"لِكَي يَعْلَمَ"،[٢] و"لِأَنْ يَعْلَمَ"[٣] بإدغام "النون" في "الياء".

و"أن" في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ مخفَّفة مِن الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوفٌ، والجملةُ في حيّز النصب على أنّها مفعول ﴿يَعْلَمَ﴾، أي: ليعلموا أنّه لا ينالون شيئًا ممّا ذُكر مِن فضله مِن الكِفلين والنور والمغفرة، ولا يتمكّنون مِن نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمان برسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾. وقوله تعالى:[٤] ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ﴿أَنَّ﴾، وقيل: هو الخبر والجارّ حالٌ لازمة.[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله، وقد جُوّز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب، فالمعنى اتّقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤتِكم ما وعد مَن آمن مِن أهل الكتاب مِن الكفلين في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص، ٥٤/٢٨]، ولا ينقصكم مِن مِثل أجرهم لأنكم مِثلهم في الإيمانين لا تفرِّقون بين أحد مِن رسله.

ورُوي أنّ مؤمني أهل الكتاب افتخروا على سائر المؤمنين بأنّهم يؤتَون أجرهم مرّتين وادّعَوا الفضلَ عليهم، فنزلت.[٦] وقُرئ: "لِيَلَّا"[٧] بقلب الهمزة ياءً لانفتاحها بعد كسرة، وقُرئ بسكون "الياء" وفتح "اللام"[٨] كاسم المرأة، وبكسر "اللام" مع سكون "الياء".[٩] وقُرئ: "أَلَّا يَقْدِرُوا".[١٠]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس وسعيد بن جُبير وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٤ س – تعالى.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٥١١/١٨.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٤.

٧ قرأ بها ورش عن نافع. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن قطرب. الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٤.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

هذا، وقد قيل: ﴿لَّا﴾ غيرُ مزيدة، وضمير ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ للنبيّ عليه السلام وأصحابه، والمعنى لئلّا يعتقد أهل الكتاب أنّه لا يقدِر النبيّ عليه السلام والمؤمنون به على شيء مِن فضل الله الذي هو عبارة عمّا أوتوه مِن سعادة الدارين، على أنّ عدم عِلمهم بعدم قدرتهم على ذلك كنايةٌ عن عِلمهم بقدرتهم عليه، فيكون قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾... إلخ، / عطفًا على ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾. [١٧٣ظ]

عن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحديد كُتب مِن الذين آمنوا بالله ورسله».[١]

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٠/٢٦ (الحديد، ١/٥٧)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/٢٤٤ (الحديد، ١/٥٧)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٣٦٣. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

# سُورَةُ الحَدِيدِ

أخرج جماعةٌ عن ابن عباس أنَّها نزلَت بالمدينة[1]، وقال النقاشُ وغيرُه: هي مدنية بإجماع المفسِّرين[2]. ولم يُسلَّم له، فقد قال قومٌ: إنَّها مكية، نعم الجمهورُ ـ كما قال ابن الفرس ـ على ذلك.

وقال ابن عطية: لا خلافَ أنَّ فيها قرآناً مدنيًّا، لكن يُشبه أنْ يكونَ صدرُها مكيًّا[3]. ويشهدُ لهذا ما أخرجه البزار في «مسنده» والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي وابن عساكر عن عمر رضي الله عنه أنَّه دخل على أخته قبل أنْ يُسلم فإذا صحيفةٌ فيها أولُ سورة الحديد فقرأه حتى بلغ: (ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) فأسلم[4].

ويشهد لمكية آيات أُخَرَ ما أخرج مسلم والنسائي وابن ماجه وغيرُهم عن ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أنْ عاتبنا الله تعالى بهذه الآية (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) إلا أربعُ سنين[5].

---

(١) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن ص٣٣-٣٤، والبيهقي في الدلائل ٧/ ١٤٤.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٦، والبحر المحيط ٨/ ٢١٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٦.

(٤) كشف الأستار (٢٤٩٣)، والدلائل للبيهقي ٧/ ٢١٧، وتاريخ دمشق ٤٤/ ٣٢، وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة ١/ ٢٨٦، وعزاه للطبراني وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٠، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٦٤: وفيه أسامة بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.

(٥) صحيح مسلم (٣٠٢٧)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٥٠٤)، وهو عند ابن ماجه من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. وينظر التعليق الذي بعده.

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه وغيرُهما عن عبد الله بن الزبير أنَّ ابن مسعود أخبره أنَّه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يُعاتبهم الله تعالى بها إلا أربعُ سنين: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾[1] الآية، لكن سيأتي إن شاء الله تعالى آثارٌ تدلُّ على مدنيَّة ما ذُكِر، ولعلَّها لا تصلحُ للمعارضة.

ونزلت يومَ الثلاثاء على ما أخرج الديلمي عن جابر مرفوعاً: «لا تحتَجِمُوا يوم الثلاثاء، فإنَّ سورةَ الحديد أُنزِلَت عليَّ يوم الثلاثاء»[2]. وفيه أيضاً خبرٌ رواه الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما بسند ضعيف[3].

وهي تسعٌ وعشرون آية في العراقي، وثمان وعشرون في غيره.

ووجهُ اتصالها بالواقعة أنَّها بُدِئَت بذكر التسبيح، وتلك خُتِمت بالأمر به، وكان أولُها واقعاً موقعَ العلَّة للأمر به، فكأنه قيل: سبِّحْ باسم ربِّكَ العظيمِ؛ لأنَّه سبَّحَ له ما في السماوات والأرض.

وجاء في فضلها مع أخواتها ما أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن عِرْباض بن سارية أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأُ المسبِّحات قبل أنْ يرقُدَ، وقال: «إنَّ فيهنَّ آيةً أفضلُ من ألف آيةٍ»[4].

---

(١) المعجم الكبير (٩٧٧٣)، والمستدرك ٢/ ٤٧٩، وأخرجه ابن ماجه (٤١٩٢) من طريق عامر بن عبد الله بن الزبير أن أباه أخبره أنه لم يكن... إلخ، ولم يذكر ابن مسعود.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب (٧٣٩٥)، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات (١٦٢٣)، وفي إسناده عمر بن موسى الوجيهي، قال يحيى: ليس بشيء. وقال النسائي والدارقطني: متروك. وقال ابن عدي: هو في عداد من يضع الحديث متناً وإسناداً.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٧٠، وعزاه للطبراني أيضاً الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٩٣ وقال: فيه مسلمة بن علي الخشني، وهو ضعيف، وسلف الكلام على أحاديث ذِكرِ الأيام ص٢٠١ وما بعد من هذا الجزء.

(٤) المسند (١٧١٦٠)، وسنن أبي داود (٥٠٥٧)، وسنن الترمذي (٢٩٢١)، وسنن النسائي الكبرى (٧٩٧٢)، وشعب الإيمان (٢٥٠٣)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٠.

وأخرج ابن الضرَيس نحوه عن يحيى بن أبي كثير، ثم قال: قال يحيى: نراها الآية التي في آخر «الحشر»[١].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ التسبيحُ على المشهور: تنزيهُ الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليقُ بجنابه سبحانه، مِن سبح في الأرض والماءِ: إذا ذهب وأَبْعَدَ فيهما، وحيث أسند هاهنا إلى غير العقلاء أيضاً فإنَّ «ما في السماوات والأرض» يعمُّ جميعَ ما فيهما سواء كان مستقرًّا فيهما أو جزءاً منهما. بل المرادُ بما فيهما الموجوداتُ، فيكونُ أظهرَ في تناول السماوات والأرض، ويتناول أيضاً الموجوداتِ المجرَّدةَ عند القائل بها.

قال الجمهور: المرادُ به معنًى عامٌّ مجازيٌّ شاملٌ لِمَا نَطَق به لسانُ المقال، كتسبيح الملائكةِ والمؤمنين من الثقلين، ولسان الحال كتسبيح غيرِهم، فإنَّ كلَّ فردٍ من أفراد الموجوداتِ يدلُّ بإمكانه وحدوثه على الصانع القديمِ الواجبِ الوجود، المتَّصفِ بكلِّ كمال، المنزَّهِ عن كلِّ نقص.

وذهب بعضٌ إلى أنَّ التسبيح على حقيقته المعروفة في الجميع، وهو مبنيٌّ على ثبوت النفوس الناطقة والإدراك لسائر الحيوانات والجمادات على ما يليق بكلٍّ، وقد صرَّح به جمعٌ من الصوفية، فتسبيح كلِّ شيءٍ عندهم قاليٌّ وإنْ تفاوت الأمر.

وقيل: معنى «سبَّح»: حَمَلَ رائيه العاقل على قول: سبحان الله تعالى، وَنَبَّهَهُ عليه. وهو كما ترى.

ومَن يجوِّز استعمالَ اللفظ في حقيقته ومجازه معاً لا يحتاج إلى عموم المجاز.

وجوَّز الطبرسي كون «ما» للعالم فقط، مثلُها في قول أهل الحجاز ـ كما حكى

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس (٢٢٩)، وهو مرسل.

أبو زيد ـ عند سماع الرعد: سبحان ما سبحت له[1]. ولا يخفى أنَّ عمومَها العالم وغيرَه أولَى.

والظاهرُ أنَّها في الوجهَين موصولةٌ.

وقال بعضُهم: إنَّها نكرةٌ موصوفةٌ، وأنَّ أصل الكلام: ما في السماوات وما في الأرض، ثم حُذِفت «ما» الثانية وأقيمَت صفتُها مقامها، ولا يحسُن أن تكون موصولةً لأنَّ الصِّلةَ لا تقوم مقامَ الموصولِ عند البصريين، وتقومُ الصفةُ مقام الموصوفِ عند الجميع، والحملُ على المتفق عليه أولَى من الحمل على المختلف فيه، وكونُ المذكورة موصولةً والمحذوفة نكرةً موصوفةً مما لا وجه له. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ حذْفَ الموصول الصريح في مثل ذلك أكثرُ من أن يُحصَى.

وجيءَ باللام مع أنَّ التسبيح متعدٍّ بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩] للتأكيد، فهي مزيدةٌ لذلك كما في: نصحتُ لهُ وشكرتُ له.

وقيل: للتعليل والفعل منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أي: فَعَل التسبيح وأوقَعَه لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه سبحانه. وفيه شيءٌ لا يخفَى.

وعبَّر بالماضي هنا وفي بعض الأخوات، وبالمضارع في البعض الآخر إيذاناً بتحقُّق التسبيح في جميع الأوقات، وفي كلٍّ دلالةٌ على أنَّ مِن شأن ما أُسنِدَ إليه التسبيحُ أنْ يُسبِّحَه، وذلك هجِّيْراه[2] ودَيدنه، أما دلالةُ المضارع عليه فللدلالة على الاستمرار إلى زمان الإخبار، وكذلك فيما يأتي من الزمان؛ لعموم المعنى المقتضي للتسبيح، وصلوحِ اللفظ لذلك، حيث جُرِّد عن الدلالة على الزمان وأوثِرَ على الاسم دلالة على تجدُّد تسبيحٍ غِبَّ تسبيح، وأما دلالة الماضي فللتَّجرُّد عن الزمان أيضاً مع التحقيق الذي هو مقتضاه، فيشملُ الماضي من الزمان ومستقبله كذلك.

(١) مجمع البيان ٢٧/ ١٣٧.
(٢) أي: دأبه.

وقيل: الإيذانُ والدلالةُ على الاستمرار مستفادان من مجموعي الماضي والمضارع، حيث دلَّ الماضي على الاستمرار إلى زمان الإخبار، والمضارع على الاستمرار في الحال والاستقبال، فشملا معاً جميعَ الأزمنةِ.

وقال الطيبي: افتُتِحَت بعضُ السور بلفظ المصدر وبعضٌ بالماضي وبعضٌ بالمضارع وبعضٌ بالأمر فاستوعبَ جميعَ جهات هذه الكلمة، إعلاماً بأنَّ المكوَّنات من لدُن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مُسبِّحةٌ مقدِّسةٌ لذاته سبحانه وتعالى قولاً وفعلاً طوعاً وكرهاً ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ الغالبُ الذي لا ينازعه ولا يمانعُه شيءٌ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحةُ، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلَه، مشعرٌ بعلَّة الحكم، وكذا قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي التصرُّف الكلِّي فيهما وفيما فيهما من الموجودات من حيث الإيجادُ والإعدامُ وسائرُ التصرُّفات.

وقوله سبحانه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يفعلُ الإحياءَ والإماتةَ، استئنافٌ مبيِّنٌ لبعض أحكام الملك، وإذا جُعل خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو يحيي ويميت، كانت تلك الجملةُ كذلك، وجعلُه حالاً من ضمير «له» يُوهم تقييدَ اختصاصِ الملك بهذه الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما ذكر من الإحياء والإماتة ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغٌ في القدرة، تذييلٌ وتكميل لِمَا قبله.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابقُ على جميع الموجودات، فهو سبحانه موجودٌ قبلَ كلِّ شيءٍ حتى الزمان؛ لأنَّه جل وعلا الموجِدُ والمحدِثُ للموجودات.

﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها حقيقةً أو نظراً إلى ذاتها مع قَطع النظر عن مبقيها، فإنَّ جميع الموجودات الممكنة إذا قُطِع النظرُ عن علَّتها فهي فانية.

ومن هنا قال ابن سينا: الممكنُ في حدِّ ذاته ليس، وهو عن عِلَّته أَيْس. فلا ينافي هذا كون بعضِ الموجوداتِ الممكنة لا تفنَى كالجنة والنار ومَن فيهما كما هو مقرَّر مبيَّنٌ بالآيات والأحاديث؛ لأنَّ فناءها في حدِّ ذاتها أمرٌ لا ينفكُّ

عنها، وقد يقال: فناءُ كلِّ ممكنٍ بالفعل ليس بمشاهد، والذي يدلُّ عليه الدليل إنما هو إمكانه، فالبعدية في مثله بحسب التصوُّر والتقدير.

وقيل: هو «الأول» الذي تبتدِئ منه الأسباب، إذ هو سبحانه مسبِّبُها، و«الآخرُ» الذي تنتهي إليه المسبَّبات، فالأولية ذاتية والآخِريَّة بمعنى أنَّه تعالى إليه المرجع والمصيرُ، بقَطْع النظر عن البقاء الثابت بالأدلة.

وقيل: «الأولُ» خارجاً لأنَّه تعالى أوجدَ الأشياء، فهو سبحانَه متقدِّمٌ عليها في نفس الأمر الخارجي، و«الآخر» ذهناً وبحسب التعلُّق لأنَّه عز شأنه يُستَدَلُّ عليه بالموجودات الدالةِ على الصانع القديمِ، كما قيل: ما رأيتُ شيئاً إلا رأيتُ الله تعالى بعدَه.

وقال حُجَّة الإسلام الغزاليُّ: إنَّ «الأول» يكون أولاً بالإضافة إلى شيء، و«الآخر» يكون آخراً بالإضافة إلى شيء، وهما متناقضان فلا يتصوَّر أن يكونَ الشيءُ الواحد من وجهٍ واحدٍ بالإضافة إلى شيء واحدٍ أولاً وآخراً جميعاً، بل إذا نظرتَ إلى ترتيب الوجودِ ولاحظتَ سلسلةَ الموجوداتِ المترتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول، إذ كلُّها استفادَت الوجودَ منه سبحانه، وأما هو عز وجل فموجودٌ بذاته، وما استفادَ الوجودَ من غيره، سبحانه وتعالى عن ذلك، ومهما نظرتَ إلى ترتيب السلوك ولاحظتَ منازلَ السالكين فهو تعالى آخرٌ، إذ هو آخرُ ما ترتقي إليه درجاتُ العارفين، وكلُّ معرفةٍ تحصل قبلَ معرفته تعالى فهي مرقاة إلى معرفته جل وعلا، والمَنْزِلُ الأقصى هو معرفةُ الله جل جلاله، فهو سبحانه بالإضافة إلى السلوك آخرٌ، وبالإضافة إلى الوجود أَوَّل، فمنه عز شأنه المبتدأ أولاً وإليه سبحانه المرجع والمصير آخراً[1]. انتهى.

والظاهرُ أنَّ كونَه تعالى أولاً وآخراً بالنسبة إلى الموجودات أَولَى، ولعلَّ ما ذكره أوفقُ[2] بمشرب القوم.

---

(١) المقصد الأسنى ص١٣٥-١٣٦.

(٢) في الأصل: أرفق.

﴿وَٱلظَّاهِرُ﴾ أي: بوجوده؛ لأنَّ كل الموجودات بظهوره تعالى ظاهرٌ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ بكُنْهِهِ سبحانه فلا تحومُ حولَه العقولُ.

وقال حجة الإسلام: هذان الوصفان من المضافات، فلا يكونُ الشيء ظاهراً لشيء وباطناً له من وجهٍ واحد، بل يكون ظاهراً من وجهٍ بالإضافة إلى إدراك، وباطناً من وجهٍ آخرَ، فإنَّ الظهورَ والبطونَ إنما يكون بالإضافة إلى الإدراكات، والله تعالى باطنٌ إنْ طُلِبَ من إدراك الحواسِّ وخِزانة الخيال، ظاهرٌ إنْ طُلب من خزانة العقل بالاستدلال، والرَّيب من شدَّة الظهور، وكلُّ ما جاوز الحدَّ انعكسَ إلى الضدِّ[1].

وإلى تفسير الباطن بغير المدرَك بالحواسِّ ذهب الزمخشري، ثم قال: إنَّ الواوَ الأُولى لعطف المفرَد على المفرد، فتفيدُ أنَّه تعالى الجامعُ بين الصفتَين الأَوَّلية والآخريَّة، والأخيرة أيضاً كذلك، فتفيدُ أنَّه تعالى الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فلعطف المركَّب على المركَّب، فتفيدُ أنَّه جل وعلا الجامعُ بين مجموعِ الصفتَين الأُولَيَيْن ومجموعِ الصفتَين الأُخْرَيَين، فهو تعالى المستمرُّ الوجودِ في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو تعالى في جميعها ظاهرٌ وباطنٌ جامعٌ للظهور بالأدلة والخفاء، فلا يدرَك بالحواسِّ، وفي هذا حجة على مَن جوَّز إدراكه سبحانه في الآخرة بالحاسَّة[2]، أي: وذلك لأنَّه تعالى ما مِن وقتٍ يصحُّ اتِّصافُه بالأولية والآخرية إلا ويصحُّ اتصافُه بالظاهرية والباطنية معاً، فإذا جوِّز إدراكه سبحانه بالحاسَّة في الآخرة، فقد نُفي كونه سبحانه باطناً، وهو خلاف ما تدل عليه الآية.

وأجاب عن ذلك صاحب «الكشف» فقال: إنَّ تفسيرَ الباطن بأنَّه غيرُ مدرَكٍ بالحواسِّ تفسيرٌ بحسب التشهِّي، فإنَّ بُطونَه تعالى عن إدراك العقولِ كبطونه عن إدراك الحواسِّ؛ لأنَّ حقيقةَ الذات غيرُ مدرَكةٍ لا عقلاً ولا حسًّا باتفاقٍ بين المحقِّقين من الطائفتَين، والزمخشريُّ ممن سلَّم، فهو الظاهرُ بوجوده والباطنُ

---

(١) المقصد الأسنى ص١٣٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٦١ بنحوه.

بكنهه، وهو سبحانه الجامعُ بين الوصفَين أزلاً وأبداً، وهذا لا ينافي الرؤيةَ، لأنَّها لا تفيدُ ذلك عند مثبتيها[١]. انتهى، وهو حسَنٌ فلا تغفل.

وعليه فالتذليل بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لئلا يُتوَهَّم أنَّ بطونَه تعالى عن الأشياء يستلزمُ بطونَها عنه عز وجل كما في الشاهد.

وقال الأزهريُّ: قد يكونُ الظاهرُ والباطنُ بمعنى العالم لِمَا ظهرَ وبطَنَ[٢]؛ وذلك أنَّ مَن كان ظاهراً احتجَبَ عنه الباطنُ، ومَن كان باطناً احتجَبَ[٣] عنه الظاهر، فإنْ أردْتَ أنْ تَصِفَه بالعلم قلتَ: هو ظاهرٌ باطنٌ، مثلُه قولُه تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] أي: لا شرقية فقط ولا غربية فقط، ولكنَّها شرقيةٌ غربيةٌ، وفي التذييل المذكور حينئذٍ خفاء.

وقريب منه من وَجْه ما نُقل أنَّ الظاهر بمعنى العالي على كلِّ شيء، الغالب له، من قولهم: ظهر عليهم: إذا علاهم وغلبهم، والباطنُ الذي بطن كلَّ شيء، أي: علم باطنَه.

وتعقِّب بفوات المطابقة بين الظاهر والباطن عليه، وأنَّ «بَطَنَه» بمعنى: عَلِمَ باطنه، غيرُ ثابت في اللغة، لكن قيل: في الآثار ما ينصر تفسيرَ الظاهر بما فسّر؛ أخرج مسلم والترمذي وابن أبي شيبة والبيهقي عن أبي هريرة قال: جاءت فاطمةُ ﵂ إلى رسول الله ﷺ تسألُه خادماً فقال لها: «قولي: اللهم ربَّ السماوات السبع وربَّ العرش الكريم العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيء، مُنزِلَ التوراةِ والإنجيل والفرقان، فالقَ الحبِّ والنوى، أعوذُ بك مِن شرِّ كلِّ شيءٍ أنت آخذٌ بناصيته، أنت الأولُ فليسَ قبلَك شيءٌ، وأنت الآخرُ فليس بعدَك شيء، وأنت الظاهرُ فليس فوقك شيء، وأنت الباطنُ فليس دونَك شيء، اقضِ عنَّا الدَّين وأَغْنِنا من الفقر»[٤].

---

(١) في (م): مثبتها.

(٢) ينظر تهذيب اللغة ١٣/ ٣٧٤.

(٣) بعدها في الأصل: استتر.

(٤) صحيح مسلم (٢٧١٣)، وسنن الترمذي (٣٤٠٠) و(٣٤٨١)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٦٢-٢٦٣، والسنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٢٩٣.

وقال الطيبي: المعنيُّ بـ «الظاهر» في التفسير النبوي: الغالب الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب، فيتصرَّف في المكوَّنات على سبيل الغلبة والاستيلاء، إذ ليس فوقه أحدٌ يمنعُه، وبـ «الباطن» مَن لا ملجأ ولا منجَى دونَه يَلتجئ إليه مُلتجئٌ.

وبُحث فيه بجواز أنْ يكونَ المراد: أنت الظاهرُ فليس فوقك شيءٌ في الظهور، أي: أنت أظهرُ مِن كلِّ شيء، إذ ظهورُ كلِّ شيء بك، وأنت الباطنُ فليس دونك في البطون شيء، أي: أنت أَبْطَنُ من كلِّ شيء، إذ كلُّ شيء يَعلم حقيقتَه غيرُه وهو أنت، وأنت لا يعلمُ حقيقتَك غيرُك، أو لأنَّ كلَّ شيء يمكنُ معرفةُ حقيقته، وأنت لا يمكن أصلاً معرفةُ حقيقتك، وأيضاً في دلالة الباطن على ما قال خفاءٌ جدًّا، على أنَّه لو كان الأمرُ كما ذكر ما عدَلَ عنه أجلَّةُ العلماء، فإنَّ الخبر صحيح، وقد جاء نحوه من رواية الإمام أحمد وأبي داود وابن ماجه[1]؛ ويَبعُدُ عدمُ وقوفِ أولئك الأجلَّة عليه، وأبعدُ من ذلك أن يكونَ ما ذكره ﷺ من أسمائه تعالى غير ما في الآية.

ويحتمل أنَّه عليه الصلاة والسلام أراد بقوله: «فليس دونك شيء»: ليس أقرب منك شيءٌ، ويُؤيِّده ما أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» عن مقاتل قال: بلغَنَا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ إلخ: هو الأولُ قبل كلِّ شيء، والآخرُ بعد كلِّ شيء، والظاهرُ فوق كلِّ شيء، والباطن أقربُ من كلِّ شيء، وإنما يعني القربَ بعِلْمه وقُدرته، وهو فوق عرشِهِ[2]. والذي يترجَّحُ عندي ما ذكر أولاً.

وعن بعض المتصوِّفة أهلِ وحدة الوجود أنَّ المراد بقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ إلخ أنَّه لا موجودَ غيرُه تعالى، إذ كلُّ ما يُتصوَّر موجوداً فهو إما أول أو آخر، أو ظاهر أو باطن، فإذا كان الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن لا غيره كان كلُّ ما يُتصوَّر موجوداً هو سبحانه لا غيره، وأيَّدوه بما في حديثٍ مرفوعٍ أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن المنذر وجماعة عن أبي هريرة: «والذي نفسي بيده لو أنَّكم دَلَّيتُم بحبل إلى الأرض السُّفلَى لهبط

---

(١) المسند (٨٩٦٠)، وسنن أبي داود (٥٠٥١)، وسنن ابن ماجه (٣٨٧١) و(٣٨٧٣).

(٢) الأسماء والصفات (٩١٠).

على الله» قال أبو هريرة: ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وحال القول بوحدة الوجود مشهور، وأما الخبر فمن المتشابه، وقد قال فيه الترمذي: فسَّر أهلُ العلم الحديثَ فقالوا: أي لهبَطَ على علم الله تعالى وقُدرته وسلطانه[2]. ويُؤيِّد هذا ذكرُ التذييل وعدمُ اقتصاره عليه الصلاة والسلام على ما قبله.

وهذه الآية ينبغي لمن وجَدَ في نفسه وسوسَةً فيما يتعلَّق بالله تعالى أنْ يقرأَها، فقد أخرج أبو داود عن أبي زُمَيْل أنَّ ابن عباس قال له وقد أعلمه أنَّ عنده وسوسة في ذلك: إذا وجدْتَ في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ الآية[3].

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عمر وأبي سعيد رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «لا يزالُ الناسُ يسألون عن كلِّ شيء حتى يقولوا: هذا الله كانَ قبلَ كلِّ شيء، فماذا كان قبلَ الله؟ فإنْ قالوا لكم ذلك فقولوا: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾»[4].

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ بيانٌ لبعض أحكام ملكهما، وقد مرَّ تفسيره مراراً.

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ مرَّ بيانه في سورة سبأ[5].

﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ تمثيلٌ لإحاطة علمه تعالى بهم، وتصويرٌ لعدم خروجهم عنه أينما كانوا، وقيل: المعيَّة مجازٌ مرسَل عن العلم بعلاقة السببية،

---

(١) المسند (٨٨٢٨)، وسنن الترمذي (٣٢٩٨)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٠، وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٢) سنن الترمذي عند الحديث (٣٢٩٨).

(٣) سنن أبي داود (٥١١٠).

(٤) العظمة (١١٧).

(٥) آية رقم (٢).

والقرينة السباق واللحاق مع استحالة الحقيقة، وقد أوَّلَ السلفُ هذه الآية بذلك، أخرج البيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس أنَّه قال فيها: عالمٌ بكم أينما كنتم[١]. وأخرج أيضاً عن سفيان الثوري أنَّه سئل عنها فقال: علمُه معكم[٢].

وفي «البحر»: أنَّه اجتمعَت الأُمة على هذا التأويل فيها، وأنَّها لا تُحمَل على ظاهرها من المعيَّة بالذات، وهي حُجةٌ على [مَن] مَنَعَ التأويل في غيرها مما يجري مجراها في استحالة الحمل على الظاهر، وقد تأوَّلَ هذه الآيةَ وتأوَّلَ الحجَرَ الأسود يمين الله في الأرض، ولو اتَّسع عقلُه لتأوَّل غيرَ ذلك مما هو في معناه[٣]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ الأسلم تركُ التأويل، فإنَّه قولٌ على الله تعالى من غير علمٍ، ولا نُؤوِّل إلا ما أوَّله السلفُ، ونتَّبعهم فيما كانوا عليه، فإنْ أوَّلوا أوَّلنا، وإن فوَّضوا فوَّضنا، ولا نأخذُ تأويلَهم لشيء سلَّماً لتأويل غيره. وقد رأيتُ بعض الزنادقة الخارجين من رِبْقة الإسلام يضحكون من هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ويسخرون من القرآن الكريم لذلك، وهو جهلٌ فظيع وكفرٌ شنيع، نسألُ الله تعالى العصمةَ والتوفيق.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبارةٌ عن إحاطته بأعمالهم، وتأخيرُ صفةِ العلم الذي هو مِن صفات الذاتِ عن الخلق الذي هو من صفات الأفعال ـ مع أنَّ صفات الذاتِ متقدِّمةٌ على صفات الأفعال ـ لِمَا أنَّ المراد الإشارةُ إلى ما يدور عليه الجزاءُ من العلم التابع للمعلوم.

وقيل: لأنَّ[٤] الخلق دليلُ العلم، إذ يُستدَل بخلْقِهِ تعالى وإيجادِه سبحانه لمصنوعاتِه المتقَنة على أنَّه عز وجل عالمٌ، ومن شأن المدلولِ التأخُّرُ عن الدليل لتوقُّفه عليه.

---

(١) لم نقف عليه في الأسماء والصفات، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٤١٢).
(٢) الأسماء والصفات ٢/ ٣٤١ (٩٠٨).
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢١٧، وما بين حاصرتين منه.
(٤) في (م): إن.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تكريرٌ للتأكيد، وتمهيدٌ لقوله سبحانه المُشْعِرِ بالإعادة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إليه تعالى وحدَه لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً تُرْجَعُ جميعُ الأمور أعراضُها وجواهرُها، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق والأعرج: «تَرْجِعُ» مبنيًّا للفاعل من رَجَع رجوعاً، وعلى البناء للمفعول ـ كما في قراءة الجمهور ـ هو من رَجَعَ رَجْعاً[1].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ مرَّ تفسيره مراراً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ﴾ أي: مبالغٌ في العلم ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بمكنوناتها اللازمة لها، بيانٌ لإحاطة علمه تعالى بما يُضمرونه من نيَّاتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يُظهرونها، وجوِّز أن يُراد بـ «بذات الصدور» نفسها وحقيقتها على أنَّ الإحاطةَ بما فيها تُعلم بالأولَى.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: جعلَكم سبحانه خلفاءَ عنه عز وجل في التصرُّف فيه من غير أنْ تملكوه حقيقةً، عبَّر جل شأنه عما بأيديهم من الأموال بذلك تحقيقاً للحقِّ وترغيباً في الإنفاق، فإنَّ من علم أنَّها لله تعالى، وإنما هو بمنزلة الوكيل يصرفُها إلى ما عيَّنه الله تعالى من المصارف، هانَ عليه الإنفاق.

أو: جعلكم خلفاء عمَّن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم، وفيه أيضاً ترغيبٌ في الإنفاق وتسهيلٌ له؛ لأنَّ مَن علم أنَّه لم يبقَ لمن قبلَه وانتقل إليه علم أنَّه لا يدومُ له وينتقل لغيره، فيسهلُ عليه إخراجُه ويرغبُ في كسب الأجر بإنفاقه. ويكفيكَ قولُ الناسِ فيما ملَكْتَه: لقد كان هذا مرَّةً لفلانٍ. وفي الحديث: «يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبسْتَ فأبليتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضيتَ»[2].

---

(١) البحر ٨/ ٢١٧، والقراءة بالبناء للفاعل من القراءات المتواترة قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف كما في التيسير ص٨٠، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣٠٥) و(١٦٣٠٦)، ومسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه.

والمعنى الأول هو المناسب لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وعليه ما حكي أنَّه قيل لأعرابي: لِمَن هذه الإبل؟ فقال: هي لله تعالى عندي. ويميلُ إليه قول القائل:

وما المالُ والأهلون إلا ودائعٌ ولا بدَّ يوماً أنْ تُردَّ الودائعُ[1]

والآية على ما روي عن الضحاك نزلَت في تبوك[2]، فلا تغفل.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ﴾ حسبما أُمِرُوا به ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب ذلك ﴿أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وعدٌ فيه من المبالغات ما لا يخفَى، حيث جعَلَ الجملةَ اسميةً، وكان الظاهر أن تكون فعليةً في جواب الأمر، بأنْ يقال مثلاً: آمِنُوا بالله ورسوله وأنفِقُوا تُعطَوا أجراً كبيراً، وأُعيدَ ذكر الإيمان والإنفاق دون أنْ يقال: فمَنْ يفعل ذلك فله أجرٌ كبير، وعدل عن: فللذين آمَنوا منكم وأنفقوا أجرٌ، إلى ما في النظم الكريم، وفُخِّم الأجرُ بالتنكير، ووُصِف بالكبير.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۙ﴾ استئنافٌ قيل: مسوقٌ لتوبيخهم على ترك الإيمان حسبما أُمِرُوا به، بإنكار أنْ يكون لهم في ذلك عُذرٌ ما في الجملة، على أنَّ «لا تؤمنون» حالٌ من ضمير «لكم» والعامل ما فيه من معنى الاستقرار، أي: أيُّ شيء حصَلَ لكم غيرَ مؤمنين، على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقُّق المسبَّب، وهو مضمون الجملة الحالية أعني عدمَ الإيمان، فـ «أيُّ» لإنكار سبب الواقع ونفيه فقط، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح:١٣] وقد يتوجَّه الإنكار والنفي في مثل هذا التركيبِ لسبب الوقوعِ، فيسريان إلى المسبَّب أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ إلخ [يس:٢٢]، ولا يمكن إجراءُ ذلك هنا لتحقُّق عدمِ الإيمان، وهذا المعنى مما لا غبار عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ حالٌ من ضمير «لا تؤمنون» مفيدةٌ - على ما قيل - لتوبيخهم على الكفر مع تحقُّق ما يوجبُ عدمه بعد توبيخهم

---

(١) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص١٧٠، وسلف عند تفسير الآية (٩٨) من سورة الأنعام.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢١٨.

عليه مع عدم ما يوجبُه، ولام «لتؤمنوا» صلة «يدعو» وهو يتعدَّى بها وبـ : «إلى»، أي: وأيُّ عذر في ترك الإيمان والرسولُ يدعوكم إليه وينبهكم عليه. وجوِّز أنْ تكون اللامُ تعليليةً.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ حالٌ من فاعل «يدعوكم» أو من مفعوله، أي: وقد أخذ الله ميثاقَكم بالإيمان من قبل، كما يُشعرُ به تخالفُ الفعلَين مضارعاً وماضياً. وجوِّز كونه حالاً معطوفةً على الحال قبلها، فالجملةُ حالٌ بعد حال من ضمير «تؤمنون»، والتخالفُ بالاسمية والفعلية يُبعدُ ذلك في الجملة.

وأيَّامّا كان فأخذُ الميثاق إشارةٌ إلى ما كان منه تعالى من نصب الأدلة الآفاقية والأنفُسية والتمكينِ من النظر، فقوله تعالى: (وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ) إشارةٌ إلى الدليل السمعي، وهذا إشارةٌ إلى الدليل العقليِّ، وفي التقديم والتأخير ما يؤيِّدُ القولَ بشرف السمعيِّ على العقليِّ.

وقال البغوي: هو ما كان حين أخرجَهم من ظهر آدمَ وأشهدَهم بأنَّه سبحانه ربُّهم فشهدوا[١]. وعليه لا مجاز.

والأول اختيارُ الزمخشري[٢]، وتعقَّبه ابنُ المنيِّر فقال: لا عليه أنْ يحمل العهدَ على حقيقته، وهو المأخوذُ يومَ الذرِّ، وكلُّ ما أجازه العقلُ وورَدَ به الشرعُ وجبَ الإيمان به[٣]. وروي ذلك عن مجاهد وعطاء والكلبي ومقاتل، وضعفه الإمام بأنَّ المرادَ إلزامُ المخاطبين الإيمانَ، ونَفْيُ أنْ يكونَ لهم عذرٌ في تركه، وهم لا يعلمون هذا العهد إلا من جهة الرسول، فقَبْل التصديق بالرسول لا يكون سبباً لإلزامهم الإيمان به[٤].

وقال الطيبي: يمكنُ أن يقال: إنَّ الضميرَ في «أَخَذ» إن كان لله تعالى فالمناسبُ أن يُراد بالميثاق ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.
(٢) الكشاف ٤/ ٦٢.
(٣) الانتصاف ٤/ ٦٢.
(٤) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢١٧.

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة:٣٨] إلخ لأنَّ المعنى: فإما يأتينَّكم منِّي هدًى برسولٍ أبعثُه إليكم وكتابٍ أُنزله عليكم. ويدلُّ على الأول قوله سبحانه: (وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟) وعلى الثاني: (هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ) إلخ، وإن كان للرسول ﷺ فالظاهرُ أنْ يُراد به ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١] على أنْ يُضافَ الميثاقُ إلى النبيِّين إضافتَه إلى المُوثق لا المُوثق عليه، أي: الميثاق الذي وثَّقه الأنبياءُ على أممهم، وهو الوجه لأنَّ الخطاب مع الصحابة رضي الله عنهم كما يدلُّ عليه ما بعد، ولعل الميثاقَ نحو ما روينا عن الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت: بايعْنا رسولَ الله ﷺ على السَّمع والطاعة في النشاط والكَسَل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقولَ في الله تعالى ولا نخاف لومةَ لائم[1]. انتهى.

ويضعَّف الأول بنحو ما ضعَّف به الإمام حملَ العهد على ما كان يوم الذرِّ، وضَعْفُ الثاني أظهرُ من أنْ ينبَّه عليه.

والخطاب قال صاحب «الكشف»: عامٌّ يوبِّخُ مَن لم يؤمن منهم بعدم الإيمان، ثم مَن آمن بعدم الإنفاق في سبيله، وكلامُ أبي حيان ظاهرٌ في أنَّه للمؤمنين، وجَعَل «آمنوا» أمراً بالثبات على الإيمان ودوامه «وما لكم لا تؤمنون» إلخ على معنى: كيف لا تَثبتُون على الإيمان ودواعي ذلك موجودة[2].

وظاهرُ كلام بعضهم كونُه للكفرة، وهو الذي أشرنا إليه من قبل، ولعلَّ ما ذكره صاحب «الكشف» أولَى، إلا أنَّه قيل عليه: إنَّ «آمنوا» إذا كان خطاباً للمتَّصفين بالإيمان ولغير المتَّصفين به يلزمُ استعمال الأمر في طلب أصل الفعل نظراً لغير المتصفين، وفي طلب الثبات نظراً للمتصفين، وفيه ما فيه، ويحتاج في التفصِّي عن ذلك إلى إرادة معنًى عامٍّ للأمرَين.

---

(١) المسند (٢٢٦٧٩) و(٢٢٧٧٠).

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢١٨.

وقد يقال: أراد أنَّه عَمَد إلى جماعة مختلفين في الأحوال فأُمِرُوا بأوامرَ شتَّى، وخُوطبوا بخطابات متعدِّدة، فتوجَّه كلُّ أمرٍ وكل خطاب إلى مَن يليق به، وهذا كما يقولُ الوالي لأهل بلده: أذِّنوا وصلُّوا ودَرِّسوا، وأنفقُوا على الفقراء، وأَوفُوا الكيلَ والميزانَ، إلى غير ذلك، فإنَّ كلَّ أمر ينصرفُ إلى مَن يليقُ به منهم، فتأمل.

وقرئ: «وما لكم لا تؤمنون بالله ورسوله»[١].

وقرأ أبو عمرو: «وقد أُخِذَ ميثاقُكم» بالبناء للمفعول ورفع «ميثاقُكم»[٢].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرطٌ جوابُه محذوفٌ دلَّ عليه ما قبل، والمعنى: إن كنتم مؤمنين لموجب مّا فهذا مُوجبٌ لا مُوجبَ وراءَه، وجوِّز أن يكونَ المرادُ: إن كنتم ممن يؤمنُ فما لكم لا تؤمنون والحالةُ هذه؟!

وقال الواحدي: أي: إن كنتم مؤمنين بدليل عقليٍّ أو نقليٍّ فقد بان وظهرَ لكم على يدَي محمدٍ ﷺ ببعثته وإنزالِ القرآن عليه[٣].

وأيًّامّا كان فلا تناقضَ بين هذا وقولِه تعالى: (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ).

وقال الطبري في ذلك: المرادُ: إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فآمنوا الآن[٤].

وقيل: إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما السلام فآمنوا بمحمد ﷺ، فإنَّ شريعتَهما تقتضي الإيمانَ به عليه الصلاة والسلام، أو: إن كنتم مؤمنين بالميثاق المأخوذِ عليكم في عالم الذَّرِّ فآمنوا الآن.

وقيل: المراد: إن دمتُم على الإيمان فأنتم في رُتَب شريفةٍ وأقدار رفيعة. والكل كما ترى.

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٢.
(٢) التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤.
(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٥.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٠.

وظاهرُ الأخير أنَّ الخطاب مع المؤمنين، وهو الذي اختاره الطيبي، وقال في هذا الشرط: يمكنُ أن يجريَ على التعليل كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] لأنَّ الكلام مع المؤمنين على سبيل التوبيخِ والتقريع يدلُّ عليه ما بعدُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ حسبما يَعِنُّ لكم من المصالح ﴿ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحاتٍ، والظاهرُ أنَّ المراد بها آياتُ القرآن، وقيل: المعجزات.

﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي: الله تعالى إذ هو سبحانه هو المخبَر عنه، أو العبد لقرب الذكر، والمرادُ: ليخرجَكم بها ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفرِ إلى نور الإيمان.

وقرئ في السبعة: «ينزل» مضارعاً، فبعضٌ ثقَّل وبعضٌ خفَّف[(١)]. وقرأ الحسن بالوجهَين، وقرأ زيد بن علي والأعمش: «أنزل» ماضياً[(٢)].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالِغ في الرأفة والرحمة، حيث أزالَ عنكم موانعَ سعادة الدارَين، وهداكم إليها على أتمِّ وجه، وقرئ في السبعة: «لرؤوف» بواوين.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ توبيخٌ على تَرْك الإنفاق إما للمؤمنين الغير المنفقين، أو لأولئك الموبَّخين أولاً على ترك الإيمان، وبَّخهم سبحانه على ذلك بعد توبيخهم على ترك الإيمان بإنكار أنْ يكونَ لهم في ذلك أيضاً عذرٌ من الأعذار.

و «أنْ» مصدرية لا زائدة كما قيل، واقتضاه كلام الأخفش[(٣)]، والكلامُ على تقدير حرف الجرِّ، فالمصدر المؤوَّل في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ على القولَين، وحذفُ مفعول الإنفاق للعلم به مما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لتشديد التوبيخ، والمرادُ به كلُّ خير يقرِّبهم إليه

---

(١) قرأ بالتخفيف ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، وقرأ الباقون بالتشديد. التيسير ص٧٥، والنشر ٢١٨/٢.

(٢) القراءتان في المحرر الوجيز ٥/٢٥٩، والبحر المحيط ٨/٢١٨.

(٣) البحر المحيط ٨/٢١٨-٢١٩.

تعالى على سبيل الاستعارة التصريحية، أي: أيُّ شيءٍ لكم في أنْ لا تُنفقوا فيما هو قربةٌ إلى الله تعالى ما هو له في الحقيقة، وإنما أنتم خلفاؤُه سبحانه في صَرْفه إلى ما عيَّنه عز وجل من المصارف، أو ما انتقل إليكم من غيركم وسينتقل منكم إلى الغير.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يرِثُ كلَّ شيء فيهما ولا يبقَى لأحدٍ مالٌ، على أنَّ ميراثهما مجازٌ أو كنايةٌ عن ميراث ما فيهما؛ لأنَّ أَخْذَ الظرف يلزمه أَخذُ المظروف.

وجوِّز أنْ يُراد: يرثهما وما فيهما، واختير الأول لأنَّه[1] يكفي لتوبيخهم، إذ لا علاقةَ لأخذ السماوات والأرض هنا.

والجملةُ حالٌ من فاعل «لا تنفقوا» أو مفعوله، مؤكدة للتوبيخ، فإنَّ تركَ الإنفاق بغير سببٍ قبيحٌ منكَرٌ، ومع تحقُّق ما يوجبُ الإنفاقَ أشدُّ في القبح وأدخلُ في الإنكار، فإنَّ بيانَ بقاء جميعِ ما في السماوات والأرضِ من الأموال بالآخرة لله عز وجل من غير أنْ يبقَى لأحدٍ من أصحابها شيء أقوَى في إيجاب الإنفاق عليهم من بيان أنَّها لله تعالى في الحقيقة، أو أنَّها انتقلَت إليهم من غيرهم، كأنه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله تعالى والحالُ أنَّه لا يبقَى لكم ولا لغيركم منها شيءٌ، بل تبقَى كلُّها لله عز وجل. وإظهارُ الاسم الجليل في موقع الإضمار لزيادة التقرير وتربية المهابة.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ بيانٌ لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوتِ أحوالهم في الإنفاق، بعد بيان أنَّ لهم أجراً كبيراً على الإطلاق، حثًّا لهم على تحرِّي الأفضل، وعطفَ القتال على الإنفاق للإيذان بأنَّه من أهمِّ موادِّ الإنفاق، مع كونه في نفسه من أفضل العبادات، وأنَّه لا يخلو من الإنفاق أصلاً، وقسيمُ «من أنفق» محذوفٌ، أي: لا يستوي ذلك وغيرُه، وحُذِف لظهوره ودلالةِ ما بعدُ عليه.

---

(١) في (م): أنه.

والفتح فتح مكة على ما روي عن قتادة وزيد بن أسلم ومجاهد، وهو المشهور، فتعريفُه للعهد أو للجنس ادِّعاء، وقال الشعبي: هو فتحُ الحديبية، وقد مرَّ وجهُ تسميته فتحاً في سورة الفتح[١]، وفي بعض الآثار ما يدلُّ عليه؛ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحُديبية، حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله ﷺ: «يُوشكُ أن يأتيَ قومٌ تحقرونَ أعمالَكم مع أعمالهم» قلنا: مَن هم يا رسول الله، أقريشٌ؟ قال: «لا ولكنْ هم أهلُ اليمن، هم أرقُّ أفئدةً وألْيَنُ قلوباً»، فقلنا: أهم خيرٌ منَّا يا رسول الله؟ قال: «لو كان لأحَدِهم جبلٌ من ذهبٍ فأنفقَهُ ما أدرَكَ مدَّ أحدِكم ولا نَصِيفَه، ألا إنَّ هذا فَصْلُ ما بيننا وبين الناس: (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ) الآية»[٢].

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: «قبل» بغير «مِن»[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «مَن أنفق»، والجمعُ بالنظر إلى معنى «من» كما أنَّ إفرادَ الضميرَين السابقَين بالنظر إلى لفظها، ووُضِعَ اسم الإشارة البعيد موضعَ الضمير للتعظيم والإشعارِ بأنَّ مدارَ الحكم هو إنفاقُهم قبل الفتح وقتالهم، ومحلُّه الرفع على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي: أولئك المنعوتون بذَيْنك النعتَين الجليلَين أرفعُ منزلةً وأجلُّ قدراً. ﴿مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ﴾ أي[٤]: بعد الفتح ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ فاعل «لا يستوي» ضميرٌ يعود على الإنفاق، أي: لا يستوي هو، أي: الإنفاق، أي: جنسه، إذ منه ما هو قبل الفتحِ ومنه ما هو

---

(١) آية رقم (١).

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٤، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢، وورد في الأصل و(م): يحتقرون، بدل: تحقرون، والمثبت من تفسير الطبري.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢١٩.

(٤) قوله: أي، ليس في (م).

بعدَه، و«مَن أنفق» مبتدأ، وجملةُ «أولئك أعظمُ» خبرُه، وفيه تفكيكُ الكلام وخروجٌ عن الظاهر لغير موجِبٍ، فالوجهُ ما تقدَّم، ويعلم منه التزاماً التفاوتُ بين الإنفاق قبل الفتح والإنفاقِ بعده، وإنما كان أولئك أعظمَ درجةً من الذين أنفقوا بعدُ؛ لأنَّهم إنما فعلوا ما فعلوا عند كمالِ الحاجةِ إلى النُّصْرَة بالنفس والمال لقلَّة المسلمين وكثرةِ أعدائهم، وعدمِ ما ترغَبُ فيه النفوس طبعاً مِن كثرة الغنائم، فكان ذلك أنفع وأشدّ على النفس، وفاعلُه أقوى يقيناً بما عند الله تعالى وأعظمُ رغبةً فيه، ولا كذلك الذين أنفقوا بعد.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحدٍ من الفريقَين لا الأولين فقط ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبَة الحسنى، وهي الجنة على ما روي عن مجاهد وقتادة، وقيل: أعمُّ من ذلك والنصر والغنيمة في الدنيا.

وقرأ ابن عامر وعبد الوارث: «وكلٌّ» بالرفع[١]، والظاهر أنَّه مبتدأ والجملةُ بعده خبرٌ، والعائد محذوف، أي: وعَدَه، كما في قوله:

وخالـدٌ يحمَـدُ ساداتُنـا    بالحقِّ لا يحمَدُ بالباطلِ[٢]

يريد: يحمَدُه. والجملةُ عطفٌ على «أولئك أعظمُ درجةً» وبينهما من التطابق ما ليس على قراءة الجمهور، ومنع البصريون حذفَ العائد من خبر المبتدأ، وقالوا: لا يجوزُ إلا في الشعر بخلاف حذفِه من جملة الصفة، وهم محجُوجُون بهذه القراءة.

وقولُ بعضهم فيها: إنَّ «كلٌّ» خبرُ مبتدأ تقديره: وأولئك كلٌّ، وجملةُ «وعد الله» صفة «كلّ» تأويلٌ ركيكٌ، وفيه زيادةُ حذفٍ، على أنَّ بعض النحاة منَعَ وصْفَ «كل» بالجملة؛ لأنَّه معرفةٌ بتقدير: وكلُّهم.

وقال الشهاب: الصحيحُ ما ذهب إليه ابنُ مالك من أنَّ عدم جوازِ حذفِ العائد من جملة الخبر في غير «كل» وما ضاهاها في الافتقار والعموم، فإنَّه في ذلك

(١) قراءة ابن عامر في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤.
(٢) سلف ٢/ ٣٩٥.

مطّردٌ، لكن ادَّعى فيه الإجماع، وهو محلُّ نزاع[1].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالمٌ بظاهره وباطنه ويُجازيكم على حسبه، فالكلامُ وعْدٌ ووعيدٌ.

وفي الآيات من الدلالة على فضل السابقين المهاجرين والأنصار ما لا يخفى، والمرادُ بهم المؤمنون المنفقون المقاتلون قبلَ فتحِ مكةَ أو قبل الحديبية، بناءً على الخلاف السابق، والآيةُ على ما ذكره الواحدي عن الكلبي نزلَت في أبي بكر الصديق ﷺ[2]، أي: بسببه، وأنت تعلمُ أنَّ خصوصَ السبب لا يدلُّ على تخصيص الحكم، فلذلك قال: «أولئك» ليشملَ غيرَه ﷺ ممن اتَّصف بذلك، نعم هو أكملُ الأفراد، فإنَّه أنفقَ قبل الفتحِ وقبل الهجرة جميعَ ماله، وبذل نفسَه معه عليه الصلاة والسلام، ولذا قال ﷺ: «ليس أحدٌ أمنَّ عليَّ بصحبته من أبي بكر»[3] وذلك يكفي لنزولها فيه.

وفي «الكشاف»: إنَّ «أولئك» هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال النبيُّ ﷺ فيهم: «لو أنفقَ أحدُكم مثلَ أحدٍ ذهباً ما بلغَ مدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»[4]، قال الطيبي: الحديث من رواية البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أَحداً أنفقَ مثلَ أُحدٍ ذهباً ما بلغ مدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»[5].

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه على هذا لا يختصُّ بالسابقين الأوَّلين كما أشار في «الكشاف» إليه، وهو مبنيٌّ على أنَّ الخطابَ في «لا تسبُّوا» ليس للحاضرين

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٥٥.

(٢) أسباب النزول ص٤٣٣، والوسيط ٤/ ٢٤٥-٢٤٦.

(٣) أخرجه أحمد (١١١٣٤)، والبخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وأخرجه أحمد (٢٤٣٢)، والبخاري (٤٦٧) من حديث عبد الله بن عباس ﷺ.

(٤) الكشاف ٤/ ٦٢، وانظر التعليق الآتي.

(٥) صحيح البخاري (٣٦٧٣)، وصحيح مسلم (٢٥٤١)، وسنن أبي داود (٤٦٥٨)، وسنن الترمذي (٣٨٦١)، وفي المصادر: أحدكم، بدل: أحداً.

ولا للموجودين في عصره ﷺ، بل لكلِّ مَن يصلُح للخطاب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ الآية [الأنعام:٢٧] وإلا فقد قيل: إنَّ الخطاب يقتضي الحضورَ والوجودَ، ولا بدَّ من مغايرة المخاطبين بالنهي عن سبِّهم، فهم[١] السابقون الكاملون في الصحبة.

وأقولُ: شاعَ الاستدلالُ بهذا الحديثِ على فضل الصحابةِ مطلقاً بناءً على ما قالوا: إنَّ إضافةَ الجمع تفيدُ الاستغراقَ، وعليه صاحب «الكشف»، واستشكل أمر الخطاب، وأُجيبَ عنه بما سمعتَ، وبأنَّه على حدِّ خطاب الله تعالى الأزلي.

لكن في بعض الأخبار ما يؤيِّد أنَّ المخاطَبين بعضٌ من الصحابة، والممدوحين بعضٌ آخر منهم، فتكون الإضافة للعهد، أو بحمل الأصحابِ على الكاملين في الصحبة، أخرج أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بنِ الوليد وبين عبد الرحمن بنِ عوف كلامٌ، فقال خالدٌ لعبد الرحمن بن عوف: تَستطيلونَ علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلَغَ النبيَّ ﷺ فقال: «دَعُوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتُم مثلَ أُحدٍ، أو مثلَ الجبال ذهباً، ما بلغتُم أعمالَهم»[٢]، ثم في هذا الحديث تأييدٌ مّا لكون «أولئك» هم الذين أنفقوا قبل الحديبية، لأنَّ إسلامه رضي الله عنه كان بين الحديبية وفتحِ مكة كما في «التقريب»[٣] وغيره، والزمخشريُّ[٤] فسَّر الفتحَ بفتح مكة، فلا تغفل.

واختار[٥] الجلال المحلِّي كون الخطاب في «لا تسبُّوا» للصحابة السابِّين، وقال: نزَّلَهم ﷺ بسبِّهم الذي لا يليقُ بهم منزلَة غيرِهم، حيث علَّل بما ذكره عليه الصلاة والسلام. وهو وجهٌ حسنٌ فتدبَّر.

وقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ نَدْبٌ بليغٌ من الله تعالى إلى الإنفاق في سبيله، مؤكِّدٌ للأمر السابق به وللتوبيخ على تركه، فالاستفهام ليس على

---

(١) في الأصل: فهو، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٨/ ١٥٦، والكلام منه.
(٢) المسند (١٣٨١٢).
(٣) تقريب التهذيب ص١٣١.
(٤) في الكشاف ٤/ ٦٢.
(٥) في (م): وقال.

حقيقته بل للحثِّ، والقرض الحسن الإنفاق بالإخلاص وتحرِّي أكرمِ المال وأفضل الجهات.

وذكر بعضُهم أنَّ القرض الحسن ما يجمع عشر صفات: أنْ يكونَ من الحلال، فإنَّ الله تعالى طيبٌ لا يقبلُ إلا طيِّباً، وأنْ يكون من أكرم ما يملكه المرءُ، وأن يكون والمرءُ صحيحٌ شحيحٌ يأمل العيشَ ويخشَى الفقر، وأن يضعَه في الأحوج الأولَى، وأن يكتمَ ذلك، وأن لا يتبعَه بالمنِّ والأذى، وأن يقصد به وجْهَ الله تعالى، وأن يستحقِرَ ما يُعطي وإن كثر، وأن يكون من أحبِّ أمواله إليه، وأن يتوخَّى في إيصاله للفقير ما هو أسرُّ لديه من الوجوه، كحمله إلى بيته. ولا يخفى أنَّه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر.

وأيما كان فالكلامُ إما على التجوُّز في الفعل، فيكون استعارةً تبعية تصريحيةً، أو التجوُّز في مجموع الجملة فيكون استعارةً تمثيليةً، وهو الأبلغ، أي: من ذا الذي يُنفق ماله في سبيل الله تعالى مخلصاً متحرِّياً أكرمَهُ وأفضلَ الجهات، رجاء أنْ يعوِّضَه سبحانه بدله كمن يُقرضُه ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ فيعطيَه أجرَه على إنفاقه مضاعفاً أضعافاً كثيرة من فضله.

﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وذلك الأجرُ المضموم إليه الإضعافُ كريمٌ مرضيٌّ في نفسه، حقيقٌ بأنْ يتنافس فيه المتنافسون، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الأجر كما أنَّه زائدٌ في الكمِّ بالغٌ في الكيف، فالجملةُ حالية لا عطف على «فيضاعفه»، وجوِّز العطفُ والمغايرة ثابتة بين الضِّعف والأجر نفسِه، فإنَّ الإضعاف من مَحْض الفضل والمثل فضل هو أجر.

ونصب «يضاعفَه» على جواب الاستفهام بحسب المعنى، كأنَّه قيل: أيُقرِضُ اللهَ تعالى أحدٌ فيضاعفَه له، فإنَّ المسؤول عنه بحسب اللفظ وإن كان هو الفاعل لكنَّه في المعنى هو الفعل، إذ ليس المرادُ أنَّ الفعل قد وقع السؤال عن تعيين فاعله كقولك: مَن جاءك اليوم؟ إذا علمتَ أنَّه جاءه جاءٍ لم تعرفه بعينه، وإنما أُوردَ على هذا الأسلوب للمبالغة في الطلب، حتى كأنَّ الفعلَ لكثرة دواعيه قد وقَعَ، وإنما يُسأَلُ

عن فاعلِه ليجازَى، ولم يعتبر الظاهر لأنَّه يُشترَط بلا خلافٍ في النصب بعد الفاء أنْ لا يتضمَّن ما قبلُ وقوعَ الفعل نحو: لِمَ ضربتَ زيداً فيجازيك، فإنَّه حينئذٍ لا يتضمَّن سبق مصدر مستقبل. وعلى هذا يؤوَّلُ كلٌّ ما فيه نصبٌ وما قَبْلُ متضمِّنٌ للوقوع.

وقرأ غيرُ واحد: «فيُضاعفُه» بالرفع على القياس نظراً للظاهر المتضمِّن للوقوع، وهو إما عطف على «يقرض»، أو على: فهو يضاعفه. وقرئ: «فيضعِّفه» بالرفع والنصب[1].

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرفٌ لِمَا تعلَّق به «له»، أو له، أو لقوله تعالى: «فيضاعفه» أو منصوبٌ بإضمار«اذكر» تفخيماً لذلك اليوم، والرؤيةُ بصريةٌ، والخطابُ لكلِّ مَن تتأتَّى منه، أو لسيد المخاطبين ﷺ.

وقوله عز وجل: ﴿يَسْعَى نُورُهُم﴾ حال من مفعول «ترى» والمراد بالنور حقيقتُه على ما ظهر من شموس الأخبار، وإليه ذهب الجمهور، والمعنى: يسعَى نورُهم إذا سَعَوا ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود أنَّه قال: يُؤْتَون نورَهم على قَدْر أعمالهم، يمرُّون على الصراط، منهم مَن نورُه مثل الجبل، ومنهم مَن نورُه مثل النخلة، وأدناهم نوراً مَن نورُه على إبهامه يُطفَأ مرَّةً ويَقِدُ أخرى[2]. وظاهره أنَّ هذا النور يكون عند المرور على الصراط.

وقال بعضهم: يكونُ قبل ذلك ويستمرُّ معهم إذا مرُّوا على الصراط، وفي الأخبار ما يقتضيه كما ستسمَعُه قريباً إن شاء الله تعالى.

والمرادُ أنَّه يكون لهم في جهتَين، جهةِ الأمام وجهةِ اليمين، وخُصَّا لأنَّ

---

(١) قرأ «فيضعِّفَه» بالنصب ابن عامر ويعقوب، وقرأ «فيضعِّفُه» بالرفع ابن كثير وأبو جعفر، وقرأ «فيضاعفَه» بالنصب عاصم، وقرأ الباقون: «فيضاعفُه» بالرفع. السبعة ص٦٢٥، والتيسير ص٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٩، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٨، والمستدرك ٢/ ٤٧٨، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢.

السعداء يُؤتَون صحائفَ أعمالهم من هاتَين الجهتَين، كما أنَّ الأشقياء يُؤتَونها من شمائلهم ووراء ظهورهم.

وفي «البحر»: الظاهرُ أنَّ النورَ قسمان: نورٌ بين أيديهم يُضيء الجهة التي يَؤمُّونها، ونورٌ بأيمانهم يُضيء ما حواليهم من الجهات. وقال الجمهور: إنَّ النورَ أصلُه بأيمانهم، والذي بين أيديهم هو الضوء المنبسطُ من ذلك. وقيل: الباء بمعنى «عن» أي: وعن أيمانهم، والمعنى: في جميع جهاتهم، وذكر الأيمان لشرفها[١]. انتهى.

ويشهدُ لهذا المعنى ما أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير[٢] أنَّه سمع أبا ذرٍّ وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولُ مَن يؤذَنُ له في السُّجودِ يومَ القيامة، وأوَّلُ مَن يُؤذَنُ له فيرفَعُ رأسَه، فأرفع رأسي، فأنظرُ بين يديَّ ومِن خلفي وعن يميني وعن شمالي فأعرفُ أمتي بين الأممِ» فقيل: يا رسول الله، وكيف تعرفُهم من بين الأمم ما بين نوحٍ عليه السلام إلى أمتك؟ قال: «غرٌّ محجَّلون من أَثَرِ الوضوءِ، ولا يكونُ لأحدٍ غيرهم[٣]، وأعرفُهم أنَّهم يُؤتَون كُتُبَهم بأيمانهم، وأعرفُهم بسيماهُم في وجوههم من أَثرِ السجود، وأعرفُهم بنورهم الذي يسعَى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم»[٤]، وظاهرُ هذا الخبر اختصاصُ النور بمؤمني هذه الأمةِ، وكذا إيتاءُ الكتب بالأيمان.

وبعضُ الأخبار يقتضي كونه لكلِّ مؤمنٍ، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال: تُبعَثُ ظلمة يومَ القيامة فما من مؤمنٍ ولا كافر يرَى كفَّه، حتى يبعثَ الله تعالى بالنور للمؤمنين بقَدْرِ أعمالهم، الخبر[٥].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٠.

(٢) في الأصل و(م): نضير، وهو تصحيف.

(٣) جاء في هامش الأصل: أي: من الأمم وإلا فقد قيل: إن الأنبياء عليهم السلام كلهم كذلك. اهـ منه.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٦، والمستدرك ٢/ ٤٧٨، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٧.

وأخرج عنه الحاكم وصححه وابن أبي حاتم من وجه آخرَ وابن المبارك والبيهقي في «الأسماء والصفات» خبراً طويلاً فيه أيضاً ما هو ظاهرٌ في العموم(١).

وكذا ما أخرج ابن جرير والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس قال: بينما الناسُ في ظلمة إذ بَعَث الله تعالى نوراً، فلمَّا رأى المؤمنون النورَ توجَّهوا نحوه، وكان النور دليلاً لهم من الله عز وجل إلى الجنة(٢).

ولا ينافي هذا الخبرَ كونُهم يمرُّون بنورهم على الصراط كما لا يخفى، وكذا إيتاء الكتب بالأيمان، ففي «هداية المريد لجوهرة التوحيد»: ظاهرُ الآيات والأحاديث عدمُ اختصاصه ـ يعني أَخْذَ الصحف ـ بهذه الأمة، وإن تردَّد فيه بعضُ العلماء(٣). انتهى.

ويمكن أن يقال: إنَّ ما يكونُ من النور لهذه الأمةِ أجلَى من النور الذي يكون لغيرها، أو هو ممتازٌ بنوعٍ آخرَ من الامتياز، وأما إيتاءُ الكتب بالأيمان فلعلَّه لكثرته فيها بالنسبة إلى سائر الأمم تُعرَف به، وفي هذا المطلب أبحاثٌ أُخَرُ تُذكر إن شاء الله تعالى في محلها.

وقيل: أُريدَ بالنور القرآنُ. وقال الضحاك: النورُ استعارةٌ عن الهدى والرضوانِ الذي هم فيه.

وقرأ سهل بن شعيب السهمي وأبو حيوة: «وبإيمانهم» بكسر الهمزة(٤)، وخَرَّج ذلك أبو حيان على أنَّ الظرفَ ـ يعني «بين أيديهم» ـ متعلِّقٌ بمحذوف، والعطفُ عليه بذلك الاعتبار، أي: كائناً بين أيديهم وكائناً بسبب إيمانهم(٥). وهو كما ترى.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٦٨ - زوائد نعيم)، والمستدرك ٢/ ٤٠٠-٤٠١، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٧، والأسماء والصفات (١٠١٥).

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٠١، واستدراكات البعث والنشور (١٨٥).

(٣) ينظر إتحاف المريد بجوهرة التوحيد ص٢٣٢.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦١، والبحر المحيط ٨/ ٢٢١.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٢١.

ولعلَّه متعلِّقٌ بالقول المقدَّر في قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي: وبسبب إيمانهم يقال لهم ذلك، وجملةُ القول؛ إما معطوفةٌ على ما قبلُ، أو استئنافٌ، أو حال، ويجوز على الحالية تقديرُ الوصف منه، أي: مقولاً لهم، والقائلُ الملائكة الذين يتلقَّونهم.

والمراد بالبشرى ما يبشَّرُ به، دون التبشير، والكلام على حذف مضافٍ، أي: ما تُبشَّرون به دخولُ جناتٍ، ويصح[١] بدونه، أي: ما تبشرون به جناتٌ[٢]، وما قيل: البشارةُ لا تكون بالأعيان، فيه نظر، وتقديرُ المضاف لا يُغني عن تأويل البشرى؛ لأنَّ التبشير ليس عين الدخول.

وجملة قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في موضع الصفة لـ «جنات»، وقولُه سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حالٌ من «جنات»، قال أبو حيان: وفي الكلام التفاتٌ من ضمير الخطاب في «بشراكم» إلى ضمير الغائب في «خالدين» ولو أُجري على الخطاب لكان التركيب: خالداً أنتم فيها[٣].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يحتملُ أن يكونَ من كلامه تعالى، فالإشارة إلى ما ذكر من النور والبشرى بالجنات، ويحتمل أن يكونَ من كلام الملائكةِ عليهم السلام المتلقِّين لهم، فالإشارة إلى ما هم فيه من النور وغيرِه، أو إلى الجنات بتأويل ما ذُكر، أو لكونها فوزاً على ما قيل.

وقرئ: «ذلك الفوز» بدون «هو»[٤].

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدلٌ مِن «يوم ترى»، وجوز أنْ يكون معمولاً لـ: اذكر، وقال ابن عطية: يظهرُ لي أنَّ العاملَ فيه «ذلك هو الفوز العظيم»، ويكون معنى الفوز عليه أعظمَ، كأنَّه قيل: إنَّ المؤمنين يفوزون يوم يعتري المنافقين

(١) في (م): جنات يصح، بدون واو.
(٢) قوله: ويصح بدونه أي ما تبشرون به جنات، مكرر في (م).
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٢١.
(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦١، والكشاف ٤/ ٦٣، ومفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٢٣، وعزاها الفراء لابن مسعود.

والمنافقات كذا وكذا؛ لأنَّ ظهورَ المرء يوم خمول عدوِّه ومضادِّه[1] أبدعُ وأفخم[2].

وتعقبه في «البحر» بأن ظاهر تقريره أنَّ «يوم» منصوبٌ بالفوز، وهو لا يجوز؛ لأنَّه مصدرٌ قد وُصِف قبلَ أخذِ متعلَّقاته، فلا يجوزُ إعمالُه، ولو أعملَ وصفَه وهو «العظيم» لجاز، أي: الفوزُ الذي عَظُم ـ أي: قَدْرُه ـ يوم[3]. انتهى، وفي عدم جوازِ إعمالِ مثلِ هذا المصدر في مثل هذا المعمول خلافٌ، ثم إنَّ تعلُّق هذا الظرف بشيء من تلك الجملة خلافُ الظاهر.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نُصِبْ منه، وذلك أنْ يلحقوا بهم فيستنيروا به، وقيل: فيأخذوا شيئاً منه يكون معهم، تخيَّلُوا تأتِّي ذلك فقالوه، وأصلُ الاقتباس طلبُ القَبَس، أي: الجذوة من النار.

وجوِّز أن يكونَ المعنى: انظروا إلينا نقتبس.. إلخ، لأنَّهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنورُ بين أيديهم فيستضيئون به، فـ «انظرونا» على الحذف والإيصال؛ لأنَّ النظر بمعنى مجرَّد الرؤية يتعدَّى بـ «إلى»، فإن أُريدَ التأمل تعدَّى بـ «في»، لكن حمل الآية على ذلك خلافُ الظاهر.

وقولهم للمؤمنين ذلك؛ لأنَّهم في ظلمة لا يدرون كيف يمشُون فيها، وروي أنَّه يكون ذلك على الصراط.

وفي الآثار دلالة على أنَّهم يكونُ لهم نورٌ فيُطفَأ فيقولون ذلك، أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يَدْعُو الناسَ يومَ القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده، وأما عند الصراط فإنَّ الله تعالى يُعطي كلَّ مؤمنٍ نوراً وكلَّ منافقٍ نوراً، فإذا استَوَوا على الصراط أطفَأَ اللهُ نورَ المنافقين

---

(١) في الأصل و(م): عدوه مضادة، والمثبت من المصدر والبحر ٨/ ٢٢١، والدر المصون ١٠/ ٢٤٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٢١.

والمنافقات فقال المنافقون: انظرونا نقتبس من نوركم، وقال المؤمنون: أَتْمِم لنا نورَنا، فلا يَذكرُ عند ذلك أحدٌ أحداً»[1].

وفي حديث آخر مرفوع عنه أيضاً: «أنَّ نورَ المنافق يُطفَأ قبل أنْ يأتيَ الصراطَ»[2].

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي فاختة: يجمعُ الله تعالى الخلائقَ يوم القيامة ويُرسِلُ الله سبحانه على الناس ظُلمةً، فيستغيثون ربَّهم، فيُؤتي اللهُ تعالى كلَّ مؤمنٍ منهم نوراً، ويُؤتي المنافقين نوراً، فينطلقون جميعاً متوجِّهين إلى الجنة معهم نورُهم، فبينما هم كذلك إذ أطفَأ الله تعالى نورَ المنافقين، فيتردَّدون في الظلمة، ويسبقُهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم، فيقولون: انظرونا نقتبس من نوركم، . . الخبر[3]، والأخبار في إيتاء المنافق نوراً ثم إطفائه كثيرةٌ، وليس في الآية ما يأباه.

وقرأ زيد بن علي وابن وثاب والأعمش وطلحة وحمزة: «أنظرونا» بقَطْعِ الهمزة وفَتْحِها وكَسْرِ الظاء[4]، من النَّظِرَة وهي الإمهال، يقال: أَنظِر المديونَ، أي: أَمهِلْه، وضع «أنظرونا» بمعنى المهلة وإنظارِ الدائنِ المديونَ موضعَ اتِّئادِ الرفيقِ ومشيه الهوينا ليَلْحقَه رفيقُه على سبيل الاستعارة بعد سَبْق تشبيه الحالة بالحالة مبالغةً في العَجْز وإظهار الافتقار.

وقيل: هو من أَنظِر، أي: أَخِّر، والمراد: اجعلونا في آخركم ولا تسبقونا بحيث تفوتونا[5] ولا نلحق بكم.

---

(١) المعجم الكبير (١١٢٤٢)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٣، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٩: وفيه إسحاق بن بشر أبو حذيفة وهو متروك.

(٢) أخرجه مطولاً الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق١/ ١٣٤، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٧٣.

(٣) عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٣-١٧٤.

(٤) قراءة حمزة في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، والكلام من البحر ٨/ ٢٢١.

(٥) في هامش الأصل: تفوتونا، صح.

وقال المهدوي: «أنظِرونا» و«انظُرونا» بمعنًى، وهما من الانتظار؛ تقول العربُ: أنظرتُه بكذا وانتظرتُه، بمعنى واحد، والمعنى: أمْهِلونا.

﴿قِيلَ﴾ القائلون على ما روي عن ابن عباس المؤمنون، وعلى ما روي عن مقاتل الملائكة عليهم السلام: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ قال ابن عباس: أي مِن حيث جئتُم من الظُّلمة، أو إلى المكان الذي قُسِم فيه النورُ، على ما صحَّ عن أبي أمامة ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ هناك.

قال مقاتل: هذا من الاستهزاء بهم كما استهزؤوا بالمؤمنين في الدنيا حين قالوا: آمنا، وليسوا بمؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] أي: حين يقالُ لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً.

وقال أبو أمامة: يرجِعُون حين يقال لهم ذلك إلى المكان الذي قُسِم فيه النور، فلا يجدون شيئاً، فينصرفون إليهم وقد ضُرِبَ بينهم بسور، وهي خدعةُ الله تعالى التي خَدَع بها المنافقين حيث قال سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقيل: المراد: ارجعُوا إلى الدنيا والتمسُوا نوراً، أي: بتحصيل سببِهِ، وهو الإيمان، أو تنحّوا عنَّا والتمِسُوا نوراً غيرَ هذا، فلا سبيلَ لكم إلى الاقتباس منه. والغرضُ التهكُّم والاستهزاء أيضاً.

وقيل: أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة الكثيفةِ تهكُّماً بهم، وهو خلافُ الظاهر.

وأيَّامّا كان فالظاهر أنَّ «وراءكم» معمولٌ لـ «ارجعوا»، وقيل: لا محلَّ له من الإعراب؛ لأنَّه بمعنى ارجعوا، فكأنَّه قيل: ارجعوا ارجعوا، كقولهم: وراءك أوسع لك، أي: ارجع تَجِد مكاناً أوسعَ لك.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الفريقَين، وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير: «فضَرَب» مبنيًّا للفاعل[1]، أي: فضَرَب هو، أي: الله عز وجل.

(١) الكشاف ٤/ ٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٢١.

﴿بِسُورٍ﴾ أي: بحاجز، قال ابن زيد: هو الأعراف. وقال غير واحد: حاجزٌ غيرُه، والباء مزيدة.

﴿لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ﴾ أي: الباب كما روي عن مقاتل أو السور، وهو الجانب الذي يلي مكانَ المؤمنين أعني الجنة ﴿فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ الثوابُ والنعيمُ الذي لا يُكتَنَه ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ الجانبُ الذي يلي مكان المنافقين أعني النارَ ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ أي: من جهته ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾.

وهذا السور قيل: يكونُ في تلك النشأة وتبدُّلِ هذا العالم واختلاف أوضاعه في موضع الجدارِ الشرقيِّ من مسجد بيت المقدس، أخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال: كنتُ مع علي بن عبد الله بن عباس عند وادي جهنم، يعني المكان المعروف عند بيت المقدس، فحدَّث عن أبيه أنَّه قال وقد تلا قولَه تعالى: (فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٍ): هذا موضعُ السور عند وادي جهنم[١].

وأخرج هو وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إنَّ السور الذي ذكره الله تعالى في القرآن (فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٍ) هو سورُ بيتِ المقدس الشرقي (بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ) المسجد (وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ) يعني وادي جهنَّم وما يليه[٢].

وأخرج عن عبادةَ بنِ الصامت أنَّه كان على سور بيتِ المقدس الشرقيِّ فبكى، فقيل: ما يُبكيك؟ فقال: ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّه رأى جهنم[٣].

---

(١) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٤، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٠٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٠٣، والمستدرك ٤/ ٦٠١، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٤.

(٣) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٤. وأخرجه ابن حبان (٧٤٦٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٦٦)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٢٩ من طريق سعيد بن عبد العزيز عن زياد بن أبي سودة أنَّ عبادة بن الصامت قام على سور بيت المقدس...، وذكر الخبر، وزياد قال عنه أبو حاتم كما في الجرح والتعديل لابنه ٣/ ٥٣٤: لا أراه سمع من عبادة بن الصامت. اهـ.
وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٨-٤٧٩، من طريق محمد بن ميمون عن بلال بن =

ولا يخفى أنَّ هذا ونظائرَه أمورٌ مبنيةٌ على اختلاف العالَمين وتغايرِ النشأتَين على وجهٍ لا تَصِلُ العقولُ إلى إدراك كيفيته والوقوفِ على تفاصيله، فإنْ صحَّ الخبرُ لم يَسَعْنا إلا الإيمان، لعدم خروج الأمر عن دائرة الإمكان، وأبو حيان حكى عمَّن سمعتَ وعن كعب الأحبار أنَّه الجدارُ الشرقيُّ من مسجد بيت المقدس واستبعدَه، ثم قال: ولعلَّه لا يصحُّ عنهم[١].

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال، كأنَّه قيل: فماذا يفعلون بعد ضَرْب السورِ ومشاهدةِ العذاب؟ فقيل: يُنادي المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات: ﴿أَلَمْ نَكُن﴾ في الدنيا ﴿مَّعَكُمْ﴾ يريدون به موافقَتَهم لهم في الظاهر ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتُم معنا كما تقولون ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مَحَنْتُموها بالنفاق وأهلكتُموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائرَ ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وشككتُم في أمور الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الفارغةُ التي من جملتها الطمعُ في انتكاس الإسلام.

وقال ابن عباس: «فتنتُم أنفسَكم» بالشهوات واللذات «وتربَّصتُم» بالتوبة. «وارتبتُم» قال محبوب الليثي: شككتم في الله «وغرَّتكم الأماني» طول الآمال. وقال أبو سنان: قلتُم: سيغفر لنا.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطانُ؛ قال لكم: إنَّ الله عفوٌّ كريمٌ لا يعذبكم. وعن قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، واللهِ ما زالوا عليها حتى قذَفَهم الله تعالى في النار.

وقرأ سماك بن حرب: «الغُرور» بالضم، قال ابن جني: وهو كقوله: وغرَّكم بالله تعالى الاغترارُ، وتقديره على حذف المضاف، أي: وغرَّكم بالله تعالى سلامةُ الاغترار، ومعناه: سلامتكم منه [مع] اغتراركم[٢].

---

= عبد الله عن عبادة، به، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الذهبي: بل منكر وآخره باطل؛ لأنه ما اجتمع عبادة برسول الله ﷺ هناك، ثم من هو ابن ميمون وشيخه؟ وفي نسخة أبي مسهر: عن سعيد عن زياد بن أبي سودة قال: رئي عبادة. . . فهذا المرسل أجود. اهـ.

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢١.

(٢) المحتسب ٢/ ٣١١-٣١٢، وما بين حاصرتين منه.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيُّها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ فداءٌ، وهو ما يُبذَل لحفظ النفس عن النائبة، والناصبُ لـ «يوم» الفعلُ المنفي بـ «لا»، وفيه حجةٌ على مَن منع ذلك، وقرأ أبو جعفر والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر وهارون عن أبي عمرو: «لا تُؤخَذ» بالتاء الفوقية[1].

﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ظاهراً وباطناً، فيغايرُ المخاطبين المنافقين.

ثم الظاهرُ أنَّ المراد بالفدية ما هو من جنس المال ونحوه، وجوِّز أنْ يراد بها ما يعمُّ الإيمان والتوبة، فتدلُّ الآية على أنَّه لا يُقبَلُ إيمانُهم وتوبتُهم يوم القيامة، وفيه بُعدٌ، وفي الحديث: «إنَّ الله تعالى يقول للكافر: أرأيتَكَ لو كان لك أضعافُ الدنيا أكنتَ تَفتَدي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يا ربِّ، فيقول الله تبارك وتعالى: قد سألتُك ما هو أيسرُ من ذلك وأنتَ في ظَهْر أبيكَ آدمَ، أنْ لا تُشرِكَ بي، فأبيتَ إلا الشِّرك»[2].

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ محلُّ أُوِيِّكم ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: ناصركم، من باب:

تحيةُ بينهم ضَرْبٌ وَجيعُ[3]

والمراد نَفْي الناصر على البتات[4] بعدَ نفي أخذِ الفدية وخلاصهم بها عن العذاب، ونحوه قولهم: أُصيب بكذا فاستنصَرَ الجزَعَ، ومنه قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال الكلبي والزجَّاج والفراء وأبو عبيدة: أي: أولَى بكم[5]. كما في قول لبيد يصفُ بقرةً وحشيةً نفرَتْ من صوت الصائد:

---

(١) قراءة أبي جعفر وابن عامر في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، وهي قراءة يعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٢٢٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٢٨٨)، والبخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) سلف ٤/ ٩٢.

(٤) في الأصل: الثبات، والمثبت من (م) والكشاف ٤/ ٦٤.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٥، وللفراء ٣/ ١٣٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٤.

فغَدَت كلا الفَرْجَين تحسبُ أنَّهُ مَوْلَى المخافةِ خَلفُها وأمامُها[(١)]

أي: فغَدَت كلا جانبيها الخلفُ والأمام تحسب أنَّه أولَى بأنْ يكونَ فيه الخوفُ، قال الزمخشري: وحقيقة «مولاكم» هي على هذا: محراكم[(٢)] ومقمنكم، أي: المكانُ الذي يُقال فيه: هو أولَى بكم، كما قيل: هو مئنَّةٌ للكرم، أي: مكان لقول القائل: إنَّه لكريم[(٣)]. فـ «أولَى» نوعٌ من اسم المكان لُوحِظَ فيه معنى أولى، لا أنَّه[(٤)] مشتقٌّ منه، كما أنَّ المئنَّة ليسَت مشتقةً من إنَّ التحقيقية.

وفي «التفسير الكبير»: إنَّ قولهم ذلك بيان لحاصل المعنى، وليس بتفسير اللفظ؛ لأنَّه لو كان «مولى» و«أولى» بمعنى واحد في اللغة لصحَّ استعمالُ كلٍّ منهما في مكان الآخر، وكان يجبُ أنْ يصحَّ: هذا أَولَى فلان، كما يقال: هذا مولَى فلان، ولمَّا بطل ذلك علمنا أنَّ الذي قالوه معنى وليس بتفسير، ثم صرَّح بأنَّه أراد بذلك ردَّ استدلالِ الشريف المرتضى بحديث الغدير: «مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه» على إمامة الأمير كرَّم الله تعالى وجهه حيث قال: أحدُ معاني «المولَى»: الأَولَى، وحملُه في الخبر عليه متعيِّن، لأنَّ إرادةَ غيره يجعلُ الإخبارَ عبثاً، كإرادة الناصر والصاحب وابن العمِّ، أو يجعلُه كذباً كالمعتِق والمعتَق[(٥)]. ولا يخفَى على المنصف أنَّه إنْ أراد بكونه معنًى لا تفسير ما أشار إليه الزمخشريُّ من التحقيق، فهو لا يردُّ الاستدلالَ، إذ يكفي للمرتضى أنْ يقول: المولَى في الخبر بمعنى المكان الذي يقال فيه أَولَى، إذ يلزم على غيره العبثُ أو الكذب، وإنْ أرادَ أنَّ ذلك معنًى لازمٌ لِمَا هو تفسيرٌ له، كأنْ يكون تفسيرُه: القائم بمصالحكم ونحوه مما يكون ذلك

---

(١) شرح ديوان لبيد ص٣١١، ومجاز القرآن ٢/ ٢٥٤، والكشاف ٤/ ٦٤، وحاشية الشهاب ٨/ ١٥٨، وجاء في هامش الأصل: (فغدت) بالغين المعجمة أو العين المهملة. اهـ، وينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٥٨.

(٢) أي: المكان الذي يقال فيه: إنه أحرى وأحقُّ بكم، من قولهم: هو حريٌّ بكذا، أي: خليق وحقيق وجدير به. حاشية الشهاب ٨/ ١٥٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٦٤.

(٤) في (م): إلا أنه، والمثبت من الأصل وهو الصواب. ينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٥٨.

(٥) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٢٧-٢٢٨، والحديث أخرجه أحمد (٩٥٠)، والترمذي (٣٧١٣) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

لازماً له، ففي ردِّه الاستدلالَ أيضاً تردُّد، وإنْ أراد شيئاً آخر فنحن لا ندري ما هو، وهو لم يبيِّنه، والحقُّ أنَّه ولو جعل المولى بمعنى الأَولَى أو المكان الذي يقال فيه الأَولَى لا يتمُّ الاستدلال بالخبر على الإمامة التي تدعيها الإماميَّة للأمير كرم الله تعالى وجهه لِمَا بُيِّن في موضعه(١)، وفي «التحفة الاثني عشرية» ما فيه كفايةٌ لطالب الحقِّ.

وقال ابن عباس: أي: مصيركم. وتحقيقه على ما قال الإمام: أنَّ المولَى بمعنى موضع الوَلْي، وهو القربُ، والمعنى: هي موضعُكم الذي تقربون منه وتَصِلُون إليه(٢). وأنت تعلم أنَّ الإخبارَ بذلك بعد الإخبارِ بأنَّها مأواهم ليس فيه كثيرُ جدوَى، على أنَّ وضْعَ اسمِ المكان للموضع الذي يتَّصفُ صاحبُه بالمأخذ(٣) حالَ كونِهِ فيه، والقربُ من النار وصفٌ لأولئك قبل الدخول فيها، ولا يحسن وصفُهم به بعد الدخول ولو اعتبر مجاز الكون كما لا يخفى.

وجوَّز بعضُهم اعتبارَ كونه اسمَ مكانٍ من الوَلْي بمعنى القرب، لكن على أنَّ المعنى: هي مكانُ قربكم من الله سبحانه ورضوانه على التهكُّم بهم.

وقيل: أي: متولِّيكم، أي: المتصرفةُ فيكم كتصرُّفكم فيما أوجَبَها واقتضاها في الدنيا من المعاصي، والتصرُّف استعارةٌ للإحراق والتعذيب، وقيل: مشاكلةٌ تقديرية.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: النارُ، وهي المخصوص بالذمِّ المحذوفُ لدلالة السياق.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسُلِ فيما نُدِبُوا إليه، والمعاتَبُ على ما قاله الزجَّاج(٤) طائفةٌ من المؤمنين، وإلا فمنهم مَن لم يزل خاشعاً منذ أسلمَ إلى أنْ ذهب إلى ربِّه، وما نقل

---

(١) ينظر ما سلف ٧/ ٣٢٢ وما بعدها.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٢٧.
(٣) أي: مأخذ اشتقاقه، ينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٥٨، وجاءت العبارة فيه: ولا يخفى أن وضع اسم المكان لاتِّصاف صاحبه بمأخذ اشتقاقه وهو فيه.
(٤) في معاني القرآن ٥/ ١٢٥.

عن الكلبي ومقاتل أنَّ الآية نزلت في المنافقين، فهم المرادُ بالذين آمنوا مما لا يكاد يصحُّ، وقد سمعتَ صدر السورة الكريمة ما روي عن ابن مسعود ﵁.

وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن المنذر عن الأعمش قال: لمَّا قدم أصحابُ رسول الله ﷺ المدينةَ فأصابوا من لِيْن العيشِ ما أصابوا بعد ما كان من الجهد، فكأنَّهم فَتَرُوا عن بعض ما كانوا عليه، فعُوتِبُوا فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية[1].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: إنَّ الله تعالى استبطَأَ قلوبَ المهاجرين، فعاتَبَهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية. وفي خبر ابن مردويه عن أنس: بعد سبْعَ عشرةَ سنة من نزول القرآن. وأخرج عن عائشة قالت: خرج رسولُ الله ﷺ على نَفَر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون، فسَحَب رداءَه محمرًّا وجهُهُ فقال: «أتضحكون ولم يأتِكم أمانٌ مِن ربكم بأنَّه قد غَفَر لكم، وقد نَزَل عليَّ في ضَحِكِكُم آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ﴾» إلخ؟ قالوا: يا رسول الله فما كفارةُ ذلك؟ قال: «تبكون بقَدرِ ما ضحكتُم»[2].

وفي خبر أنَّ أصحاب النبيِّ عليه الصلاة والسلام قد ظهر فيهم المزاحُ والضحك فنزلَت[3].

وحديث مسلم ومَن معه السابق[4] مقدَّمٌ على هذه الآثار على ما يقتضيه كلامُ أهل الحديث.

و«يَأْنِ» مضارع أَنَى الأمر أَنْياً وأَنَى وإِنًى[5] بالكسر: إذا جاء أَناه، أي: ألم يَجِئْ وقتُ أنْ تخشَعَ قلوبُهم لذكره عز وجل.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢٦٤)، وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٥.

(٢) الأثران والحديث في الدر المنثور ٦/ ١٧٤-١٧٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان كما في الدر المنثور ٦/ ١٧٥.

(٤) سبق في أول السورة ص٣٩١ من هذا الجزء.

(٥) في الأصل و(م): أنياً وأناء وإناء، والصواب ما أثبتناه. ينظر اللسان والتاج (أني).

وقرأ الحسن وأبو السمال: «ألمّا» بالهمزة[1]، و«لمّا» النافية الجازمة كـ «لم» إلا أنَّ فيه أنَّ المنفيَّ مُتوقَّعٌ. وقرأ الحسن: «يَئِنْ» مضارع آن أَيْناً بمعنى أَنَى السابق[2]، وقال أبو العباس: قال قومٌ: آنَ يئين أيناً الهمزةُ مقلوبةٌ فيه عن الحاء، وأصله حان يحين حيناً وأصل الكلمة من الحين[3].

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: القرآن، وهو عطف على «ذِكْرِ الله» فإنْ كان هو المراد به أيضاً فالعطفُ لتغاير العنوانين نحو:

هـو الـمـلـكُ الـقَـرمُ وابـنُ الـهـمـامِ[4]

فإنَّه ذكرٌ وموعظة كما أنَّه حقٌّ نازلٌ من السماء، وإلا بأنْ كان المراد به تذكيرَ الله تعالى إياهم فالعطفُ لتغاير الذاتَين على ما هو الشائع في العطف، وكذا إذا أُريدَ به ذكرُهم اللهَ تعالى بالمعنى المعروف.

وجوّز العطف على الاسم الجليل إذا أُريدَ بالذكر التذكيرُ، وهو كما ترى.

وقال الطيبي: يمكنُ أنْ يحمل الذكر على القرآن، و«ما نزلَ من الحقِّ» على نزول السكينة معه، أي: الواردات الإلهية، ويعضدُه ما روينا عن البخاري ومسلم والترمذي عن البراء: كان رجلٌ يقرأ سورةَ الكهف، وعنده فرسٌ مربوطٌ بشَطَنَين، فغشيَتْه سحابةٌ فجعَلَت تدنو وجعل فرسُه ينفرُ منها، فلما أصبح أتَى النبيَّ ﷺ، فذكر له ذلك فقال: «تلك السكينةُ تنزل للقرآن»، وفي رواية: «اقْرَأْ فلان فإنَّها السكينةُ تنزلُ عند القرآن أو للقرآن»[5]. انتهى، ولا يخفى بُعدُ ذلك جدًّا، ولعلك تختار حمل الذكر و«ما نزل» على القرآن لِمَا يُحَسُّ مما بعدُ من نوع تأييد له.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٢.

(٣) مفردات الراغب (أين).

(٤) سلف ٢/ ٣٥٠.

(٥) صحيح البخاري (٣٦١٤) و(٤٨٣٩) و(٥٠١١)، وصحيح مسلم (٧٩٥)، وسنن الترمذي (٢٨٨٥)، وأخرجه أحمد (١٨٤٧٤)، والشطينن: تثنية شَطَن، وهو الحبل الطويل المضطرب.

وفُسِّر الخشوعُ للقرآن بالانقياد التامِّ لأوامره ونواهيه، والعكوفِ على العمل بما فيه من الأحكام من غير توانٍ ولا فُتُور، والظاهرُ أنَّه اعتَبَر كونَ اللام صلةَ الخشوع، وجوَّز كونها للتعليل على أوجه الذكر، فالمعنى: ألم يَأْنِ لهم أنْ ترِقَّ قلوبُهم لأجل ذكر الله تعالى وكتابه الحقِّ النازل، فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهها.

وفي الآية حضٌّ على الخشوع، وكان ابن عمر رضي الله عنهما - كما أخرج عنه ابن المنذر - إذا تلاها بكى ثم قال: بلَى يا ربِّ بلى يا ربِّ[(١)].

وعن الحسن: أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤون من القرآن أقلَّ مما تقرؤون، فانظروا في طول ما قرأتُم وما ظهر فيكم من الفِسْق.

وروى السُّلمي عن أحمد بن أبي الحواري قال: بينا أنا في بعض طرقاتِ البصرة إذ سمعتُ صعقةً فأقبلتُ نحوها، فرأيتُ رجلاً قد خرَّ مغشيًّا عليه فقلتُ: ما هذا؟ فقالوا: كان رجلاً حاضرَ القلب فسمع آيةً من كتاب الله فخرَّ مغشيًّا عليه، فقلتُ: ما هي؟ فقيل: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فأفاق الرجلُ عند سماع كلامنا فأنشأ يقول:

أمـا آنَ لـلـهـجـرانِ أنْ يَـتَـصـرَّمـا ... ولـلـغُـصـن غُـصْـنِ الـبـانِ أنْ يـتـبـسَّـمـا
وللعاشق الصَّبِّ الذي ذابَ وانحنَى ... ألـم يـأن أنْ يُـبـكَـى عـلـيـه ويُـرْحَـمـا
كـتـبتُ بـمـاء الـشـوقِ بـيـن جـوانـحـي ... كتاباً حكَى نَقْشَ الوشي المُنَمْنَمَا

ثم قال: إشكال إشكال إشكال، فخرَّ مغشيًّا عليه فحرَّكناه فإذا هو ميِّت[(٢)].

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنَّ هذه الآية قُرِئَت بين يدَيه وعنده قوم من أهل اليمامة، فبكوا بكاءً شديداً، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قسَت القلوبُ[(٣)]. ولعلَّه

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٥.

(٢) تفسير السلمي٢/ ٣٠٩، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٥٢٩، وفيه: المتيما، بدل من: المنمنما.

(٣) الكشاف ٤/ ٦٤، ومفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٢٩.

أراد رضي الله عنه أنَّ الطرازَ الأولَ كان كذلك حتى قسَتَ قلوبُ كثيرٍ من الناس، ولم يتأسّوا بالسابقين، وغرضُه مدحُ أولئك القوم بما كان هو ونظراؤُه عليه رضي الله عنهم، ويحتملُ أنْ يكونَ قد أراد ما هو الظاهر، والكلامُ من باب هضمِ النفس كقوله رضي الله عنه: أقيلوني فلسْتُ بخيركم(١).

وقال شيخ الإسلام أبو حفص السهروردي قدس سره: معناه تصلَّبَت وأدمنَتْ سماعَ القرآن وأَلِفَت أنوارَه، فما تستغربه حتى تَتغيَّر كما تغيَّر هؤلاء السامعون. انتهى، وهو خلافُ الظاهر، وفيه نوعُ انتقاصٍ للقوم، ورمزٌ إلى أنَّ البكاء عند سماع القرآن لا يكونُ من كامل كما يزعمه بعضُ جهلة الصوفية القائلين: إنَّ ذلك لا يكون إلا لضَعْف القلب عن تحمُّل الواردات الإلهية النورانية، ويجلُّ عن ذلك كلام الصديق رضي الله عنه.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة: «وما نَزَّل» بالتشديد(٢)، والجحدري وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو في رواية يونس وعباس عنه: «نُزِّل» مبنيًّا للمفعول مشدَّداً(٣)، وعبد الله: «أَنزَلَ» بهمزة النقل مبنيًّا للفاعل(٤).

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ «لا» نافيةٌ وما بعدَها منصوبٌ معطوفٌ على «تخشع». وجوِّز أن تكون ناهيةً وما بعدها مجزومٌ بها، ويكون ذلك انتقالاً إلى

---

(١) قوله: أقيلوني، أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٣٣)، وفي إسناده: تليد بن سليمان، قال عنه ابن معين: كذاب يشتم عثمان. وقال أبو داود: رافضي يشتم أبا بكر وعمر. الميزان ١/ ٣٥٨. وعزاه الحافظ في التلخيص الحبير ٤/ ٤٥ لأبي خير الطالقاني في السنة ثم قال: وهو منكر متناً ضعيف منقطع سنداً. اهـ. وقوله: لست بخير، أخرجه ابن إسحاق عن أنس رضي الله عنه كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٦٦٠-٦٦١، وفيه: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني...
وقوله: فلست بخيركم، أخرج نحوه عبد الرزاق في المصنف ١١/ ٣٣٦، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٢١٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٠/ ٣٠٢ و٣٠٤.

(٢) قرأ نافع وحفص بالتخفيف والباقون بالتشديد كما في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٣، وهو خلاف المشهور عن أبي جعفر وأبي عمرو.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٣.

نَهي أولئك المؤمنين عن مماثلة أهلِ الكتاب بعد أنْ عُوتِبُوا بما سمعتَ، وعلى النفي هو في المعنى نهيٌ أيضاً.

وقرأ أبو بحرية وأبو حيوة وابن أبي عبلة وإسماعيل عن أبي جعفر وعن شيبة ويعقوب وحمزة في رواية عن سليم عنه: «ولا تكونوا» بالتاء الفوقية[1] على سبيل الالتفات للاعتناء بالتحذير، وفي «لا» ما تقدَّم، والنهيُ مع الخطاب أظهرُ منه مع الغيبة.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: الأجل بطول أعمارهم وآمالهم، أو: طالَ أمدُ ما بينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام وبَعُدَ العهدُ بهم، وقيل: أمدُ انتظار القيامة والجزاء، وقيل: أمدُ انتظارِ الفتح، وفرَّقوا بين الأمد والزمان بأنَّ الأمدَ يقال باعتبار الغاية، والزمان عامٌّ في المبدأ والغاية.

وقرأ ابن كثير في رواية: «الأمدُّ» بتشديد الدال[2]، أي: الوقتُ الأطولُ.

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ صلبَت فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حدود دينهم، رافضون لِمَا في كتابهم بالكلية، قيل: من فرط القسوة، ذُكِرَ أنَّه مأخوذٌ من كون الجملة حالاً، وفيه خفاءٌ، والأظهر أنَّه من السياق، والمراد بـ «الكتاب» الجنس، فالموصولُ يعمُّ اليهودَ والنصارى، وكانوا كلُّهم في أوائل أمرهم يحولُ الحقُّ بينهم وبين كثير من شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيلَ خَشَعُوا لله تعالى ورقَّت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمانُ غلبهم الجفاءُ والقسوةُ، وزالت عنهم الروعةُ التي كانوا يجدونها عند سماع الكتابَين، وأحدثوا ما أحدثوا واتبعوا الأهواء، وتفرَّقت بهم السبل.

والقسوةُ مبدأُ الشرور وتنشأُ من طول الغفلة عن الله تعالى، وعن عيسى عليه السلام: لا تكثروا الكلامَ بغير ذكر الله تعالى فتقسوَ قلوبُكم، فإنَّ القلبَ القاسي بعيدٌ عن الله عز وجل، ولا تنظروا إلى ذنوب العبادِ كأنَّكم أربابٌ وانظروا في

---

(١) قراءة يعقوب من رواية رويس في النشر ٢/ ٣٨٤، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٢٣، وليس فيه ذكر أبي بحرية.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٣٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٣، وهو خلاف المشهور عنه.

ذنوبكم كأنَّكم عباد، والناسُ رجلان مبتلًى ومعافًى، فارحموا أهلَ البلاء، واحمَدُوا على العافية[1].

ومَن أحسَّ بقسوةٍ في قلبه فليهْرَع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه يرجِعُ إليه حالُه، كما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فهو تمثيلٌ ذُكِرَ استطراداً لإحياء القلوب القاسيةِ بالذكر والتلاوة بإحياء الأرضِ الميتة بالغيث، للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ التي من جملتها هذه الآيات﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارَين.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ أي: المتصدِّقين والمتصدقات، وقد قرأ أبيّ كذلك[2]، وقرأ ابن كثير وأبو بكر والمفضل وأبان وأبو عمرو في رواية هارون بتخفيف الصاد[3] من التصديق لا من الصدقة كما في قراءة الجمهور، أي: الذين صَدَّقوا واللاتي صدَّقْنَ الله عز وجل ورسولَه ﷺ، والقراءةُ الأولى أنسبُ بقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وقيل: الثانية أرجحُ لأنَّ الإقراضَ يُغني عن ذكر التَّصَدُّق، وأنت ستعلم إن شاء الله تعالى فائدتَه.

وعطف «أقرضوا» على معنى الفعل من «المصَّدِّقين» على ما اختاره أبو علي والزمخشري؛ لأنَّ «أل» بمعنى «الذين»، واسم الفاعل بمعنى الفعل، فكأنه قيل: إنَّ الذين اصَّدَّقوا أو صَدَّقوا ـ على القراءتَين ـ وأقرضوا[4].

وتعقبه أبو حيان وغيرُه بأنّ فيه الفصلَ بين أجزاء الصلة ـ إذ المعطوفُ على الصلة صلةٌ ـ بأجنبي وهو «المصدقات»، وذلك لا يجوز[5].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٨.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٣.
(٣) قراءة ابن كثير وأبي بكر في التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٢٣، والمشهور عن أبي عمرو خلاف هذه القراءة.
(٤) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٧٥، والكشاف ٤/ ٦٤-٦٥.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٢٣.

وقال صاحب «التقريب»: هو محمولٌ على المعنى، كأنَّه قيل: إنَّ الناس الذين تصدَّقوا وتصدَّقْنَ وأقرضوا، فهو عطفٌ على الصلة من حيث المعنى بلا فصل.

وتعقِّبَ بأنَّه لا محصِّل له إلا إذا قيل: إنَّ «أل» الثانية زائدةٌ لئلا يعطف على صورة جزءِ الكلمة، وفيه بُعدٌ. ولا يخفى أنَّ حديث اعتبار المعنى يدفعُ ما ذُكِرَ، ومن هنا قيل: إنَّه قريبٌ، ولا يبعدُ تنزيلُ ما تقدَّم عن أبي علي والزمخشري عليه.

وقيل: العطف على صلة «أل» في «المصدقات» واختلاف الضمائر تأنيثاً وتذكيراً لا يضرُّ؛ لأنَّ «أل» تصلح للجميع، فيراد بها معنى «اللاتي» عند عَوْد ضميرِ جَمْعِ الإناث عليها، ومعنى «الذين» عند عَوْدِ ضميرِ جمعِ الذكور عليها. وهو كما ترى.

ومثله ما قيل: هو من باب: كلُّ رجل وضيعتهُ، أي: إنَّ المصدقين مقرونون مع المصدقات في الثواب والمنزلة، أو يقدَّر خبر، أي: إنَّ المصدقين والمصدقات يفلحون، و«أقرضوا» في الوجهَين ليس عطفاً على الصلة، بل مستأنف، و«يضاعف» بعدُ صفةُ «قرضاً» أو استئناف. ومَن أنصف لم يَرَ ذلك مما ينبغي أنْ يُخرَّج عليه كلامُ أدنَى الفصحاء، فضلاً عن كلام ربِّ العالمين.

واختار أبو حيان تخريجَ ذلك على حَذْف الموصولِ لدلالة ما قبلَه عليه، كأنَّه قيل: والذين أقرضوا، فيكون مثلَ قوله:

فمَن يهجو رسولَ الله منكم ... ويَمدَحُه ويَنصرُهُ سواءُ[1]

وهو مقبولٌ على رأي الكوفيين دونَ رأي البصريين، فإنَّهم لا يجوِّزون حذفَ الموصول في مثله.

وبعضُ أئمة المحقِّقين بعد أن استقرَبَ توجيهَ «التقريب» ولم يستبعد تنزيلَ ما سمعتَ عن الزمخشري وأبي علي عليه قال: وأقربُ منه أنْ يقال: إنَّ «المصدقات» منصوبٌ على التخصيص، كأنَّه قيل: إنَّ المتصدقين عامًّا على

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٣، والبيت لحسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص٦٤، وسلف ١٣/ ٦٣، ووقع في (م): يهجر، بدل: يهجو.

التغليب وأخصُّ المتصدقات منهم، كما تقول: إنَّ الذين آمنوا ولا سيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا، ووجهُ التخصيص ما ورَدَ في قوله ﷺ: «يا معشرَ النساءِ تصدَّقْنَ فإنِّي أُرِيْتُكنَّ أكثرَ أهلِ النار»[١]، يحضُّهُنَّ على الصدقة، بأنَّهنَّ إذا فعلْنَ ذلك كان له تعالى أَقْبَلَ، وجزاؤه عنه سبحانه أَوْفَرَ وأَفْضَلَ، ثم قال: ولمَّا لم يكن الإقراض غيرَ ذلك التصدُّق قيل: «وأقرضوا»، أي: بذلك التصدُّق، تحقيقاً لكينونته، وأنَّهم في[٢] مثل ذلك ممثَّلون عند الله تعالى بمن يعامل مع أجود الأجودين معاملةً برضاه، ولو قيل: والمقرضين، لفاتَتْ هذه النكتة. انتهى.

ولا يخفى أنَّ نصبَ «المصدقات» على التخصيص خلافُ الظاهر، وأما ما ذكره في نكتة العدول عن: والمقرضين[٣]، فحسن، وهو متأتٍّ على تخريج أبي علي والزمخشري، وعلى تخريج أبي حيان.

وقال الخفاجي: القولُ ـ أي: قول أبي البقاء ـ بأنَّ «أقرضوا» إلخ معترضٌ بين اسم «إنَّ» وخبرها أظهرُ وأسهلُ[٤]. وكأنَّ النكتةَ فيه تأكيدُ الحكم بالمضاعفة.

وزعْمُ أنَّ الجملة حالٌ بتقدير «قد» أو بدونها من ضميري «المصدقين والمصدقات» لا يخفى معنًى وعربيةً، فتدبر.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ الضميرُ لجميع المتقدِّمين الذكور والإناث على التغليب، كضمير «أقرضوا»، والجارُّ والمجرور نائب الفاعل، وقيل: هو ضمير التصدُّق أو ضمير القرضِ على حذف مضاف، أي: يضاعَف ثوابُ التصدُّق أو ثواب القرض لهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وأخرجه مسلم (٧٩) من حديث ابن عمر ﷺ.
(٢) قوله: في، ليس في (م).
(٣) تصحف في (م) إلى: المقروضين.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ١٥٩، وقول أبي البقاء في إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٨٤-٣٨٥.

وقرأ ابن كثير وابن عامر: «يُضعَّف» بتشديد العين[١]، وقرئ: «يُضَاعِف» بالبناء للفاعل[٢]، أي: يُضاعِفُ اللهُ عز وجل ثوابَ ذلك.

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ قد مرَّ الكلام فيه[٣].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ قد بَيَّن كيفيةَ إيمانهم في خاتمة سورة البقرة[٤]، والموصولُ مبتدأ أول، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثانٍ، وهو إشارةٌ إلى الموصول، وما فيه من معنى البُعدِ لِمَا مرَّ مراراً، وقوله سبحانه: ﴿هُمُ﴾ مبتدأ ثالث، وقوله عز وجل: ﴿الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ﴾ خبرُ الثالث، والجملة خبرُ الثاني، وهو مع خبره خبرُ الأول، أو «هم» ضميرُ فصل وما بعده خبرُ الثاني.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ ـ على ما قيل ـ بالثبوت الذي تقتضيه الجملة، أي: أولئك عند ربهم عز وجل وفي حُكْمِه وعلمه سبحانه هم الصديقون والشهداء.

والمراد: أولئك في حكم الله تعالى بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلوِّ الرُّتبة ورِفعة المحلِّ، وهم الذين سبَقُوا إلى التصديق ورسخُوا فيه واستُشْهِدوا في سبيل الله جل جلاله.

وسُمِّي مَن قُتِلَ مجاهداً في سبيله تعالى شهيداً؛ لأنَّ الله سبحانه وملائكته عليهم السلام شهودٌ له بالجنة، وقيل: لأنَّه حيٌّ لم يمت كأنَّه شاهدٌ، أي: حاضر. وقيل: لأنَّ ملائكة الرحمة تشهدُه. وقيل: لأنَّه شهد ما أعدَّ الله تعالى له من الكرامة. وقيل غير ذلك، فهو إما فعيل بمعنى فاعل، أو بمعنى مفعول، على اختلاف التأويل.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبرٌ ثانٍ للموصول على أنَّه جملةٌ من مبتدأ وخبرٍ، أو «لهم» الخبر وما بعده مرتفعٌ به على الفاعلية، وضمير «لهم» للموصول، والضميران الأخيران للصدِّيقين والشهداء. والغرضُ بيانُ ثمرات ما وُصفوا به من

(١) التيسير ص٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب.
(٢) نسبها القرطبي ٢٠/ ٢٥٧ للأعمش.
(٣) تقدم ص٤١٣، من هذا الجزء.
(٤) آية رقم (٢٨٥).

نعوت الكمال، أي: أولئك لهم مثلُ أجرِ الصدِّيقين والشهداء ونورِهم المعروفين بغاية الكمال وعزَّة المنال، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة وبلوغها حدَّ الاتحاد، كما فعل ذلك أولاً حيث قيل: «أولئك هم الصديقون والشهداء»، وليست المماثلة بَيْن ما للفريق الأولِ من الأجر والنور، وبَيْن تمامِ ما للفريقَين الأخيرَين، بل بَيْن تمام ما للأول من الأصل والإضعاف، وبين ما للأخيرَين من الأصل بدون الإضعاف، فالإضعافُ هو الذي امتاز به الفريقان الأخيران على الفريق الأولِ.

وقد لا يُعتَبر تشبيهٌ بليغٌ في الكلام أصلاً ويبقى على ظاهره، والضمائرُ كلُّها للموصول، أي: أولئك هم المبالغون في الصدق، حيث آمنوا وصدَّقوا جميعَ أخبار الله تعالى وأخبارِ رسله عليهم الصلاة والسلام، والقائمون بالشهادة لله سبحانه بالوحدانية وسائرِ صفاتِ الكمال، ولهم[1] بما يليقُ بهم من ذلك، لهم الأجر والنور الموعودان لهم.

وقال بعضهم: وصَفَهم بالشهادة لكونهم شهداءَ على الناس كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فـ «عند ربهم» متعلِّقٌ بـ «الشهداء»، والمرادُ: والشهداء على الناس يوم القيامة، وجوِّز تعلُّقه بـ «الشهداء» أيضاً على الوجه الأول على معنى: الذين شهدوا مزيدَ الكرامة بالقتل في سبيل الله تعالى يوم القيامة، أو في حظيرة رحمته عز وجل، أو نحو ذلك.

ويشهدُ لكون «الشهداء» معطوفاً على «الصديقين» آثارٌ كثيرة:

أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ مؤمني أمتي شهداءُ»، ثم تلا النبيُّ ﷺ: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ)[2].

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنَّه قال يوماً لقوم عنده: كلُّكم صدِّيقٌ وشهيد. قيل له: ما تقول يا أبا هريرة؟ قال: اقرؤوا: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ) الآية.

---

(١) أي: وللرسل. حاشية الشهاب ٨/ ١٥٩.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٤١٤-٤١٥.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد قال: كلٌّ مؤمن صدِّيقٌ وشهيدٌ، ثم تلا الآية.

وأخرج عبد بن حميد نحوه عن عمرو بن ميمون(١).

وأخرج ابنُ حبان عن عمرو بن مرَّة الجهني قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله أرأيتَ إنْ شهدتُ أنْ لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله، وصليتُ الصلوات الخمسَ، وأديتُ الزكاةَ، وصمتُ رمضان وقمتُه، فمِمَّن أنا؟ قال: «من الصِّدِّيقين والشهداء»(٢).

وينبغي أنْ يحمل «الذين آمنوا» على مَن لهم كمالٌ في ذلك يُعتدُّ به، ولا يتحقَّقُ إلا بفعل طاعات يُعتدُّ بها، وإلا فيبعُدُ أنْ يكون المؤمنُ المنهمكُ في الشهوات الغافلُ عن الطاعات صدِّيقاً شهيداً، ويُستأنَسُ لذلك بما جاء من حديث عمرَ رضي الله عنه: ما لكم إذا رأيتمُ الرجلَ يُخرِّقُ أعراض الناس أن لا تعيبوا عليه؟ قالوا: نخافُ لسانَه. قال: ذلك أَحرَى أنْ لا تكونوا شهداءَ(٣). قال ابنُ الأثير(٤): أي: إذا لم تفعلوا ذلك لم تكونوا في جملة الشهداء الذين يُستشهَدُون يوم القيامة على الأمم التي كذَّبَت أنبياءَها. وكذا بقوله عليه الصلاة والسلام: «اللَّعَّانون لا يكونون شهداء»(٥)، بناءً على أحد قولَين فيه(٦).

---

(١) الآثار الثلاثة في الدر المنثور ٦/ ١٧٦، وأثر مجاهد في مصنف عبد الرزاق ٥/ ٢٦٩.

(٢) صحيح ابن حبان (٣٤٣٨).

(٣) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٥٢، وابن أبي الدنيا في الصمت (٢٤٧)، وفيهما: تعرِّبوا، بدل: تعيبوا، قال أبو أحمد العسكري في تصحيفات المحدثين ١/ ٢٦٤: وعندي أن «تعيبوا» تصحيف، وإنما هو: أن تعرِّبوا عليه، أي: تردُّوا عليه. اهـ، وقال أبو زيد والأصمعي كما نقل أبو عبيد: قوله: أن لا تعربوا، يعني: أن لا تفسدوا عليه كلامه وتقبحوه له.

(٤) في النهاية (شهد).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٩٨)، وأبو داود (٤٩٠٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٦) أي: لا تسمع شهادتهم، أو: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم الخالية. النهاية (شهد). والثاني هو الذي عناه المصنف بقوله: على أحد قولين.

وفي بعض الأخبار ما ظاهرُه إرادةُ طائفةٍ من خواصِّ المؤمنين، أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ مخافةَ الفتنةِ على نفسه ودينِهِ كُتِبَ عند الله صدِّيقاً، فإذا ماتَ قَبَضَه الله شهيداً» وتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ ثم قال: «هذه فيهم» ثم قال: «والفرَّارون بدينهم من أرضٍ إلى أرضٍ يومَ القيامة مع عيسى بن مريم في درجته في الجنة»[1]. ويجوز أنْ يُراد من قوله: «هذه فيهم» أنَّها صادقةٌ عليهم وهم داخلون فيها دخولاً أوليًّا، ويقال في قوله عليه الصلاة والسلام: «مع عيسى في دَرَجتِهِ»: المرادُ معه في مثل درجته، وتُوَجَّه المماثلة بما مرَّ، والخبرُ إذا صحَّ يُؤيِّد الوجهَ الأولَ في الآية.

وروي عن الضحاك أنَّها نزلَت في ثمانية نفرٍ سبقوا أهلَ الأرض في زمانهم إلى الإسلام، وهم أبو بكر وعثمان وعلي وحمزة وطلحة والزبير وسعد وزيد ﷺ أجمعين[2]. وهذا لا يضرُّ في العموم كما لا يخفى.

وقيل: «الشهداءُ» مبتدأ و«عند ربهم» خبرُه، وقيل: الخبرُ «لهم أجرهم»، والكلامُ عليهما قد تمَّ عند قوله تعالى: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾، وأخرج هذا ابن جرير عن ابن عباس والضحاك قالا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾ هذه مفصولةٌ، سمَّاهم صدِّيقين ثم قال: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾[3]، وروى جماعةٌ عن مسروق ما يوافقه.

واختلفوا في المراد بـ«الشهداء» على هذا؛ فقيل: الشهداء في سبيل الله تعالى، وحكي ذلك عن مقاتل بن سليمان، وقيل: الأنبياء عليهم السلام الذين يشهدون للأمم وعليهم[4]، وحكي ذلك عن مسروق ومقاتل بن حيان، واختاره الفراء والزجَّاج[5].

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٦.
(٢) وتاسعهم عمر بن الخطاب ﷺ ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته، كما في الوسيط ٤/ ٢٥١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٨، ووقع في (م): ... وهم أبو بكر وعمر وعلي....
(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٤١٣-٤١٤.
(٤) في (م): للأمم عليهم.
(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٥، وللزجاج ٥/ ١٢٦.

وزعم أبو حيان أنَّ الظاهر كونُ الشهداء مبتدأً وما بعدَه خبرٌ[1]. ومَن أنصفَ يعلمُ أنَّه ليس كما قال، وأنَّ الذي تقتضيه جزالةُ النظم الكريم هو ما تقدَّم.

ثم النور على جميع الأوجه على حقيقته، وعن مجاهد وغيره أنَّه عبارةٌ عن الهدَى والكرامة والبشرى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: بجميعها على اختلاف أنواعها، وهو إشارةٌ إلى كفرهم بالرسل عليهم السلام جميعهم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بحيث لا يفارقونها أبداً.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ بعدما بيّن حال الفريقَين في الآخرة شرح حال الحياة التي اطمأنَّ بها الفريقُ الثاني، وأُشيرَ إلى أنَّها من محقَّرات الأُمور التي لا يَركَنُ إليها العقلاء فضلاً عن الاطمئنان بها = بأنَّها «لعبٌ» لا ثمرةَ فيها سوى التعبِ، «ولَهْوٌ» تشغلُ الإنسانَ عمَّا يَعنيه ويهمُّه، «وزينةٌ» لا يحصل منها شرفٌ ذاتي، كالملابس الحسنة والمراكبِ البهية والمنازل الرفيعة، «وتفاخرٌ» بالأنساب والعظامِ البالية، «وتكاثر» بالعُدَد والعَدَد، وقرأ السلمي: «وتفاخرُ بينِكم» بالإضافة[2].

ثم أُشيرَ إلى أنَّها مع ذلك سريعةُ الزوالِ وشيكةُ الاضمحلال بقوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ مَطرٍ ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: رَاقَهم ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي: النبات الحاصل به، والمرادُ بالكفار إما الحُرَّاث على ما روي عن ابن مسعود؛ لأنَّهم يكفرون، أي: يسترون البَذْر في الأرض، ووجه تخصيصهم بالذكر ظاهرٌ، وإما الكافرون بالله سبحانه، ووجْهُ تخصيصهم أنَّهم أشدُّ إعجاباً بزينة الدنيا، فإنَّ المؤمنَ إذا رأى معجِباً انتقل فكرُه إلى قدرة موجِدِه عز وجل فأُعجِبَ بها، ولذا قال أبو نواس في النرجس:

عيونٌ من لجينٍ شاخصَاتٌ ... على أطرافها ذَهَبٌ سبيكُ

(1) البحر المحيط ٨/ ٢٢٣.

(2) القراءات الشاذة ص١٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٤.

على قضب الزَّبرجَدِ شاهدات بأنَّ الله ليس له شريكُ[1]

والكافرُ لا يتخطَّى فكرُه عما أحسَّ به فيستغرِقُ إعجاباً. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتحرَّك إلى أقصى ما يتأتَّى له، وقيل: أي: يجِفُّ بعد خُضرته ونضارته ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ يا مَن تصحُّ منه الرؤية ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته ناضراً مونقاً، وقرئ: «مصفارًّا»[2] وإنما لم يقل: فيصفَرُّ، قيل: إيذاناً بأنَّ اصفرارَه غيرُ مقارِنٍ لهيجانه، وإنما المترتِّب عليه رؤيتُه كذلك، وقيل: للإشارة إلى ظهور ذلك لكلِّ أحدٍ ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً متكسِّراً من اليُبْس.

ومحلُّ الكاف قيل: النصبُ على الحالية من الضمير في «لَعِبٌ» لأنَّه في معنى الوصف، وقيل: الرفعُ على أنَّه خبرٌ بعد خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف إليه، أي: مَثَلُ الحياة كمَثَل.. إلخ، ولتضمُّن ذلك تشبيهَ جميع ما فيها من السنين الكثيرةِ بمدَّة نباتِ غَيْثٍ واحدٍ يفنَى ويضمحلّ في أقلِّ من سنة، جاءت الإشارة إلى سرعة زوالها وقربِ اضمحلالها.

وبعدما بيّن حقارة أمرِ الدنيا تزهيداً فيها، وتنفيراً عن العكوف عليها أشيرَ إلى فخامة شأن الآخرة وعِظَم ما فيها من اللذات والآلام، ترغيباً في تحصيل نعيمها المقيم، وتحذيراً من عذابها الأليم، وقدم سبحانه ذكر العذاب فقال جل وعلا: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأنّه من نتائج الانهماك فيما فصّل من أحوال الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ عظيمٌ لا يقادَر قَدْرُه.

وفي مقابلة العذاب الشديدِ بشيئَين إشارةٌ إلى غلبة الرحمة، وأنَّه من باب: «لن يغلبَ عسرٌ يُسرَيْن»[3]، وفي تَرْك وصفِ العذابِ بكونه من الله تعالى مع وصف

---

(١) سلفا ٢/ ٢٧-٢٨.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢٤.

(٣) وهو حديث أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٨٠، والطبري ٢٤/ ٤٩٥-٤٩٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٨ عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩٦ عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً أيضاً. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٦: وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من رواية عطية عن جابر موصولاً وإسناده ضعيف، وفي =

ما بعدَه بذلك إشارةٌ إلى غلبتها أيضاً، ورمزٌ إلى أنَّ الخير هو المقصود بالقصد الأولى.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ لمن اطمأنَّ بها ولم يجعلها ذريعةً للآخرة ومطيَّةً لنعيمها، روي عن سعيد ين جبير: الدنيا متاعُ الغرور إنْ ألهتكَ عن طلب الآخرة، فأما إذا دَعَتْكَ إلى طلب رضوانِ الله تعالى وطلبِ الآخرة، فنعمَ المتاعُ ونعم الوسيلة.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ أي: سارعوا مسارعةَ السابقين لأقرانهم في المضمار إلى أسباب مغفرةٍ عظيمةٍ كائنةٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والكلامُ على الاستعارة، أو المجاز المرسَل واستعمالِ اللفظ في لازم معناه، وإنَّما لزم ذلك لأنَّ اللازم أنْ يبادِر مَن يعمل ما يكون سبباً للمغفرة ودخولِ الجنة لا أنْ يعمله أو يتَّصف بذلك سابقاً على آخر.

وقيل: المرادُ: سابقوا ملكَ الموت قبل أنْ يقطعَكم بالموت عن الأعمال الموصلةِ لِمَا ذكر.

وقيل: سابقوا إبليسَ قبل أنْ يصدَّكم بغروره وخداعِهِ عن ذلك. وهو كما ترى.

والمراد بتلك الأسباب الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنَّه قال في الآية: كن أوَّلَ داخلٍ [في][1] المسجد وآخرَ خارجٍ. وقال عبد الله: كونوا في أول صفٍّ [في] القتال. وقال أنس: اشهدوا تكبيرةَ الإحرام مع الإمامِ. وكلُّ ذلك من باب التمثيل، واستُدلَّ بهذا الأمرِ على أنَّ الصلاة بأوَّل وقتها أفضلُ من التأخير.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كعرضهما جميعاً لو أُلصِقَ أحدُهما بالآخر، وإذا كان العَرْضُ ـ وهو أقصرُ الامتدادَين ـ موصوفاً بالسَّعة دلَّ على سَعَة الطول بالطريق الأَوْلَى، فالاقتصار عليه أبلغُ من ذكر الطول معه.

---

= الباب عن عمر ﷺ ذكره مالك في الموطأ [٢/ ٤٤٦] عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر ﷺ... وهذا أصح طرقه. اهـ.

(١) ما بين حاصرتين من البحر ٨/ ٢٢٥، والكلام منه.

وقيل: المرادُ بالعرض البسطةُ، ولذا وُصف به الدعاء ونحوه مما ليس من ذوي الأبعاد. وتقدَّم قولٌ آخرُ في تفسير نظير الآية من سورة آل عمران[١].

وتقديمُ المغفرة على الجنة لتقدُّم التخلية على التحلية.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: هُيِّئَت لهم. واستُدلَّ بذلك على أنَّ الجنة موجودةٌ الآن لقوله تعالى ﴿أُعِدَّتْ﴾ بصيغة الماضي، والتأويلُ خلافُ الظاهر، وقد صُرِّح بخلافه في الأحاديث الصحيحة[٢]، وتمامُ الكلام في علم الكلام.

وعلى أنَّ الإيمان وحدَه كافٍ في استحقاق الجنةِ؛ لذكره وحده فيما في حيِّز ما يُشعر بعلَّة الإعداد، وإدخالُ العمل في الإيمان المعدَّى بالباء غيرُ مسلَّم. كذا قالوا، ومتى أُريدَ بـ «الذين آمنوا» المذكورين مَن لهم درجةٌ في الإيمان يُعتَدُّ بها، وقيل: بأنَّها لا تحصلُ بدون الأعمالِ الصالحة على ما سمعتَه منَّا قريباً = انخدَشَ الاستدلالُ الثاني في الجملة كما لايخفى.

وذكر النيسابوري في وجه التعبير هنا بـ «سابقوا» وفي آية «آل عمران» بـ «سارعوا»، وبـ «السماء» هنا، وبـ «السماوات» هناك، وبـ «كعَرْض» هنا وبـ «عرض» بدون أداة تشبيه ثَمَّ = كلاماً مبنيًّا على أنَّ المراد بالمتقين هناك السابقون المقرَّبون، وبـ «الذين آمنوا» هنا مَن هم دون أولئك حالاً[٣]. فتأمل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي وعد من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ عطاؤُه الغيرُ الواجب عليه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ إيتاءَه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فلا يَبعُدُ منه عز وجل التفضُّلُ بذلك على مَن يشاءُ وإنْ عظم قدرُه، فالجملةُ تذييلٌ لإثبات ما ذُيِّل بها.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي: نائبةٍ أيِّ نائبة، وأصلها في الرمية، وهي مِن أصابَ السهمُ: إذا وصَلَ إلى المرمى بالصواب، ثم خُصَّت بها. وزعم بعضُهم أنَّها لغةً عامةٌ في الشرِّ والخير، وعُرفاً خاصةٌ بالشر.

---

(١) آية رقم (١٣٣).

(٢) ينظر صحيح مسلم، كتاب الجنة ونعيمها وأهلها.

(٣) غرائب القرآن ٢٧/ ١٠٠.

و«مِنْ» مزيدة للتأكيد، و«أصاب» جاء في الشرِّ كما هنا، وفي الخير كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٣] وذكر بعضُهم أنَّه يستعمل في الخير اعتباراً بالصَّوْب، أي: بالمطر، وفي الشرِّ اعتباراً بإصابة السهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل، وتذكير الفعل في مثل ذلك جائزٌ كتأنيثه، وعليه قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ [الحجر: ٥].

والكلامُ على العموم لجميع الشرور، أي: مصيبةٍ أيِّ مصيبة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كجَدْب وعاهة في الزرع والثمار وزلزلة وغيرها ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفة كالجرح والكسر ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: إلا مكتوبة مُثبتة في اللوح المحفوظ، وقيل: في علم الله عز وجل.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: نخلقَها، والضمير على ما روي عن ابن عباس وقتادة والحسن وجماعة للأنفس، وقيل: للأرض، واستظهر أبو حيان كونه للمصيبة؛ لأنَّها هي المحدَّثُ عنها، وذكرُ الأرض والأنفس إنَّما هو على سبيل ذِكْر محلِّها، وذكر المهدوي جوازَ عَوْده على جميع ما ذكر[1]. وقال جماعة: يعودُ على المخلوقات وإنْ لم يَجْرِ لها ذكرٌ.

وقيل: المرادُ بالمصيبة هنا الحوادث من خير وشرٍّ. وهو خلافُ الظاهر من استعمال المصيبة، إلا أنَّ فيما بعد نوعَ تأييدٍ له.

وأيَّامّا كان ف «في الأرض» متعلِّق بمحذوف مرفوعٍ أو مجرورٍ صفة ل «مصيبة» على الموضع أو على اللفظ، وجوَّز أن يكونَ ظرفاً ل «أصاب» أو للمصيبة، قيل: وإنما قُيِّدَت المصيبةُ بكونها في الأرض والأنفس؛ لأنَّ الحوادث المطلقةَ كلَّها ليسَت مكتوبةً في اللوح؛ لأنَّها غيرُ متناهية واللوحُ متناهٍ، وهو لا يكون ظرفاً لغير المتناهي، ولذا جاء: «جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[2].

وفي الآية تخصيصٌ آخر، وهو أنَّه سبحانه لم يذكر أحوالَ أهل السماوات لعدم

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٥.

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد (٢٨٠٣) عن ابن عباس دون لفظ: «إلى يوم القيامة».

تعلُّق الغرضِ بذلك مع قلَّة المصائب في أهلها، بل لا يكادُ يُصيبهم سوى مصيبة الموت.

وما ذكره في وجه التخصيص الأول لا يتمُّ إذا أُريدَ بالكتاب علمُه سبحانه، أو قيل[١]: بأنَّ كتابة الحوادثِ فيه على نحو كتابتها في القرآن العظيم، بناءً على ما يقولون: إنَّه ما مِن شيءٍ إلا ويمكنُ استخراجُه منه، حتى أسماء الملوك ومُدَدهم وما يقعُ منهم. ولو قيل في وجهه: إنَّ الأوفقَ بما تقدَّم من شرح حالِ الحياة الدنيا إنَّما هو ذكر المصائب الدنيوية، فلذا خُصَّت بالذكر، لكان تامًّا مطلقاً.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: إثباتها في الكتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا غيره سبحانه ﴿يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العُدَّة والمُدَّة، وإنْ أُريد بذلك تحقُّقها في علمه جل شأنه، فيُسْره لأنَّه من مقتضيات ذاته عز وجل.

وفي الآية رَدٌّ على هشام بن الحكم الزاعم أنَّه سبحانه لا يعلم الحوادثَ قبل وقوعها. وفي «الإكليل»: إنَّ فيها ردًّا على القدرية[٢]. وجاء ذلك في خبر مرفوع، أخرج الديلمي عن سليم بن جابر الهجيمي[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «سيُفتَحُ على أمتي بابٌ من القَدَر في آخر الزمانِ لا يسدُّه شيءٌ، يكفيكم منه أنْ تَلقَوه بهذه الآية: (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ)» الآية[٤].

---

(١) في (م): وقيل، بدل: أو قيل.
(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٥٥.
(٣) في الأصل و(م): الجهيمي، وفي مطبوع الدر المنثور ٦/ ١٧٧ (والكلام منه): النجيمي، والصواب ما أثبتناه، ويقال في اسمه أيضاً: جابر بن سليم، وهو صحابي له أحاديث كما في التقريب، ولكن ذكره في هذا الحديث وهم، والصواب أنه من رواية سليمان بن حفص عن النبي ﷺ مرسلاً، كما في تهذيب الكمال ١١/ ٣٩٣، وينظر التعليق الذي بعده.
(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣٢٢، وتهذيب الكمال ١١/ ٣٩٣، ووقع في الفردوس: سليم بن حفص، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠١٦)، وفيه سليمان بن جعفر، وذكر فيه الآية (٤٢) من سورة الزمر بدل هذه الآية. والحديث مع إرساله إسناده ضعيف بجهالة سليمان بن حفص كما ذكر الحافظ في التقريب.

وأخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبي حسان أنَّ رجلَين دخلا على عائشة رضي الله عنها فقالا: إنَّ أبا هريرة يُحدِّثُ أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقول: «إنَّما الطِّيَرَةُ في المرأةِ والدَّابةِ والدار» فقالت: والذي أنزلَ القرآنَ على أبي القاسم ﷺ ما هكذا كان يقول، ولكنْ كان رسول الله ﷺ يقول: «كان أهلُ الجاهليةِ يقولون: إنَّما الطِّيَرَةُ في المرأة والدَّابة والدار»، ثم قرأت: (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ) الآية[1].

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟﴾ أي: أخبرناكم بذلك لئلَّا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نِعَم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أعطاكم[2] الله تعالى منها، فإنَّ مَن علم أنَّ الكلَّ مقدَّرٌ، يفوتُ ما قدِّرَ فواتُه، ويأتي ما قُدِّر إتيانُه لا محالةَ لا يعظُمُ جزعُه على ما فات، ولا فرحُه بما هو آتٍ، وعلم كونَ الكلِّ مقدَّراً، مع أنَّ المذكور سابقاً المصائبُ دون النِّعم وغيرها؛ لأنَّه لا قائلَ بالفرق، وليس في النظم الكريم اكتفاءٌ[3] كما تُوهِّم، نعم إنْ حملت المصيبة على الحوادث من خيرٍ وشرٍّ كان أمرُ العلم أوضحَ كما لا يخفَى.

وترك التعادل بين الفعلَين في الصِّلتَين حيث لم يُسندا إلى شيءٍ واحد بل أُسنِدَ الأولُ إلى ضمير الموصول والثاني إلى ضميره تعالى؛ لأنَّ الفواتَ والعدمَ ذاتيٌّ للأشياء، فلو خُلِّيَت ونفسها لم تَبْقَ، بخلاف حصولها وبقائها؛ فإنَّه لا بدَّ من استنادهما إليه عز وجل كما حُقِّق في موضعه، وعليه قول الشاعر:

فلا تُتْبِعِ الماضي سُؤَالَك لِمْ مَضَى وعرِّجْ على الباقي وسائلْهُ لِمْ بَقي[4]

ومِثْلُ هذه القراءةِ قراءةُ عبد الله: «أُوتيتُم» مبنيًّا للمفعول[5]، أي: أُعطِيتُم.

---

(١) المسند (٢٦٠٣٤) و(٢٦٠٨٨)، والمستدرك ٢/ ٤٧٩.

(٢) في (م): أعطاكموه.

(٣) هو أن يقتضي المقام شيئين بينهما تلازمٌ وارتباط، فيكتفى بأحدِهما عن الآخر لنكتة، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد، وخصص الحَرّ لأن العرب كانت بلادهم حارة، فالوقاية من الحَرِّ عندهم أهمّ. الإتقان ٢/ ٨٣٠.

(٤) البيت للبحتري، وهو في ديوانه ٣/ ١٥٤٩، وسلف ١٧/ ٣٠.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٥.

وقرأ أبو عمرو: «أتاكم» من الإتيان(١)، أي: جاءكم، وعليها بين الفعلَين تعادل.

والمرادُ نَفْي الحزن المخرج إلى ما يَذهَل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاءِ ثوابِ الصابرين، ونَفْي الفرح المُطغِي المُلهي عن الشكر، وأما الحزنُ الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام، والسرورُ بنعمة الله تعالى والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما.

أخرج جماعةٌ منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: ليس أحدٌ إلا وهو يحزَن ويفرَح، ولكنْ مَن أصابته مصيبةٌ جعلها صبراً، ومَن أصابه خيرٌ جعله شكراً(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تذييلٌ يُفيدُ أنَّ الفرحَ المذمومَ هو الموجب للبطرِ والاختيال، والمختال: المتكبِّر عن تَخيُّل فضيلةٍ تَراءَت له من نفسه، والفخورُ: المباهي في الأشياء الخارجةِ عن المرءِ كالمال والجاه. وذكر بعضهم أنَّ الاختيال في الفعل، والفخر فيه وفي غيره.

والمرادُ مِن «لا يحبُّ»: يُبغِضُ، إذ لا واسطةَ بين الحبِّ والبغضِ في حقِّه عز وجل، وأُوِّلا بالإثابة والتعذيب، ومذهبُ السلف تركُ التأويل مع التنزيه، ومَن لا يحبُّ كلَّ مختال لا يحبُّ كلَّ فَرْدٍ من ذلك، لا أنَّه لا يحبُّ البعضَ دون البعض، ويُرَدُّ بذلك على الشيخ عبد القاهر في قوله(٣): إذا تأمَّلنا وجدنا إدخالَ كلٍّ في حيِّز النفي لا يصلحُ إلا حيث يُراد أنَّ بعضاً كان وبعضاً لم يكن، نعم إنَّ هذا الحكم أكثريٌّ لا كلِّي.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بدلٌ من«كلّ مختالٍ» بدلَ كلٍّ من كل، فإنَّ المختال بالمال يضِنُّ به غالباً ويأمرُ غيرَه بذلك، والظاهرُ أنَّ المرادَ أنَّهم يأمرون حقيقةً، وقيل: كانوا قدوةً فكأنَّهم يأمرون.

---

(١) التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٧٩، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٣-٣٧٤، والطبري ٢٢/ ٤٢١.

(٣) في دلائل الإعجاز ص٢٨٣-٢٨٤ بنحوه.

أو هو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هم الذين.. إلخ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ تقديره: يُعرِضون عن الإنفاق الغنيِّ عنه الله عز وجل، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فإنَّ معناه: ومَن يُعرِض عن الإنفاق فإنَّ الله سبحانه غنيٌّ عنه وعن إنفاقه، محمودٌ في ذاته لا يضرُّه الإعراضُ عن شكره بالتقرُّب إليه بشيءٍ من نعمه جل جلاله، وقيل: تقديره: مستغنًى عنهم، أو موعودون بالعذاب، أو مذمومون.

وجوِّز أن يكون في موضع نصب على إضمار «أعني»، أو على أنَّه نعتٌ لـ «كلَّ مختال» فإنَّه مخصَّصٌ نوعاً مّا من التخصيص، فساغَ وصفُه بالمعرفة، وهذا ليس بشيء، وقال ابن عطية: جوازُ مثلِ ذلك مذهبُ الأخفش[١].

ولا يخفَى ما في الجملة من الإشعار بالتهديد لمن تولَّى.

وقرأ نافع وابن عامر: «فإنَّ الله الغنيُّ» بإسقاط «هو»[٢]، وكذا في مصاحف المدينة والشام، وهو في القراءة الأخرى ضميرُ فصلٍ، قال أبو علي[٣]: ولا يَحسُنُ أنْ يكون مبتدأً، وإلا لم[٤] يَجز حذفُه في القراءة الثانية؛ لأنَّ ما بعدَه صالحٌ لأنْ يكون خبراً، فلا يكونُ هناك دليلٌ على الحذف.

وهذا مبنيٌّ على وجوب توافق القراءتَين إعراباً، وليس بلازم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي: من بني آدم كما هو الظاهر ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الحجج والمعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب الشامل للكلِّ، والظرفُ حالٌ مقدَّرةٌ منه على ما قال أبو حيان[٥]، وقيل: مقارِنةٌ، بتنزيل الاتصال منزلةَ المقارنة.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٦، والكلام منه.
(٢) التيسير ص٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، وهي أيضاً قراءة أبي جعفر.
(٣) في الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٧٦ بنحوه.
(٤) قوله: لم، مكرر في (م).
(٥) في البحر المحيط ٨/ ٢٢٦.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ الآلة المعروفة بين الناس كما قال ابن زيد وغيره، وإنزالُه إنزالُ أسبابه ولو بعيدة، وأمْرُ الناس باتِّخاذه مع تعليم كيفيَّته.

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ علَّةٌ لإنزال الكتاب والميزان، والقيامُ بالقسط ـ أي: بالعدل ـ يشملُ التسويةَ في أمور التعامل باستعمال الميزان، وفي أمور المعاد باحتذاء الكتاب، وهو لفظٌ جامع مشتمِلٌ على جميع ما ينبغي الاتصاف به معاشاً ومعاداً.

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ قال الحسن: أي: خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]. وهو تفسيرٌ بلازم الشيء، فإنَّ كلَّ مخلوقٍ مُنزَلٌ باعتبار ثبوتِهِ في اللوح وتقديره موجوداً حيث ما ثبَتَ فيه.

وقال قطرب: هيَّأناه لكم وأنعمنا به عليكم، مِن: نُزُل الضيف.

﴿فِيهِ بَأْسٌ﴾ أي: عذاب ﴿شَدِيدٌ﴾ لأنَّ آلات الحرب تُتَّخذ منه، وهذا إشارةٌ إلى احتياج الكتاب والميزانِ إلى القائم بالسيف ليحصلَ القيامُ بالقسط، فإنَّ الظلم من شِيَم النفوس.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: في معايشهم ومصالحهم، إذ ما مِن صنعةٍ إلا والحديدُ أو ما يعمل به آلتُها؛ للإيماء إلى أنَّ القيامَ بالقسط كما يحتاجُ إلى الوازع ـ وهو القائم بالسيف ـ يحتاجُ إلى ما به قوام التعايش ومَن يقوم بذلك أيضاً، ليتمَّ التمدُّن المحتاج إليه النوع، وليتمَّ القيامُ بالقسط، كيف وهو شاملٌ أيضاً لِمَا يخصُّ المرءَ وحدَه.

والجملةُ الظرفية في موضع الحال، وقوله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ عطفٌ على محذوف يدلُّ عليه السياق أو الحال؛ لأنَّها متضمِّنةٌ للتعليل، أي: لينفعَهم وليعلمَ الله تعالى علماً يتعلَّق به الجزاءُ مَن ينصرُهُ ورسلَه باستعمال آلات الحرب من الحديد في مجاهدة أعدائه، والحذف للإشعار بأنَّ الثاني هو المطلوب لذاته، وأنَّ الأولَ مقدِّمةٌ له، وجوِّز تعلُّقه بمحذوفٍ مؤخَّرٍ، والواو اعتراضية، أي: وليعلمَ.. إلخ أنزَلَه، أو مقدَّمٍ والواو عاطفةٌ والجملةُ معطوفة على ما قبلها، وقد حُذِفَ المعطوفُ وأُقيمَ متعلّقه مقامَه.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ من فاعل «ينصرُ»، أو من مفعوله، أي: غائباً منهم، أو غائبين منه.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ جِيءَ به تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً على أنَّ تكليفَهم الجهادَ وتعريضَهم للقتال ليس لحاجته سبحانه في إعلاء كلمته وإظهارِ دينه إلى نصرتهم، بل إنَّما هو لينتفعوا به ويصلُوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب، وإلا فهو جل وعلا غنيٌّ بقدرته وعزَّته عنهم في كلِّ ما يُريد.

هذا وذهب الزمخشريُّ[1] إلى أنَّ المرادَ بالرسل رُسلُ الملائكة عليهم السلام، أي: أرسلناهم إلى الأنبياء عليهم السلام، وفسَّر «البينات» كما فسَّرنا؛ بناءً على أنَّ[2] الملائكة ترسَل بالمعجزات كإرسالها بالحجج لتخبر بأنَّها معجزاتٌ، وإلا فكان الظاهرُ الاقتصارَ على الحُجَج، وإنزالُ الكتاب - أي: الوحي - مع أولئك الرسل ظاهر، وإنزال الميزان بمعنى الآلة عنده على حقيقته، قال: روي أنَّ جبريلَ عليه السلام نزَلَ بالميزان فدفَعَه إلى نوح عليه السلام وقال: مُرْ قومك يَزِنوا به. وفسَّرَه كثيرٌ بالعدل.

وعن ابن عباس في إنزال الحديد: نَزَل مع آدم عليه السلام المِيقَعة والسِّنْدَان والكَلْبَتَان. وروي أنَّه نزَلَ ومعه المَرُّ والمِسْحَاة[3]، وقيل: نَزَل ومعه خمسةُ أشياء من الحديد: السِّنْدان والكَلْبتان والإبرة والمِطْرقة والمِيقَعة، وفُسِّرَت بالمِسَنِّ، وتجيء بمعنى المِطْرَقة أو العُظَيمة منها، وقيل: ما تُحَدُّ به الرَّحَى، وفي حديث ابن عباس: نزل آدمُ عليه السلام من الجنة بالباسنة[4]، وهي آلات الصناع، وقيل: سكةُ الحرث، وليس بعربيٍّ مَحْض. والله تعالى أعلم.

واستظهر أبو حيان كون: «ليقومَ الناسُ بالقسط» علَّةً لإنزال الميزان فقط، وجوَّز ما ذكرناه[5]، وهو الأولى فيما أرى.

---

(١) في الكشاف ٤/ ٦٦.
(٢) قوله: أن، ساقط من (م).
(٣) المَرُّ بالفتح: الحبل، والمسحاة كالمجرفة إلا أنها من حديد. الصحاح (مرَّ) و(سحا).
(٤) ذكره ابن الأثير في النهاية (بَسَنَ)، وما سيأتي من شرحه منقول منه.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٢٦.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ نوعُ تفصيلٍ لِمَا أُجمِلَ في قوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا) وتكريرُ القسم لإظهار مزيدِ الاعتناء بالأمر، أي: وبالله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب، وقال ابن عباس: الكتاب الخطُّ بالقلم.

وفي مصحف عبد الله: «والنبية» مكتوبة بالياء عوض الواو[1].

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من الذرية؛ وقيل: أي من المرسَل إليهم المدلول عليهم بذكر الإرسال والمرسلين ﴿مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم، ولم يقل: ومنهم ضالٌّ، مع أنَّه أظهرُ في المقابلة؛ لأنَّ ما عليه النظم الكريم أبلغُ في الذمِّ؛ لأنَّ الخروجَ عن الطريق المستقيمِ بعد الوصول بالتمكُّن منه ومعرفته أبلغُ من الضلال عنه، ولإيذانه بغَلَبة أهل الضلال على غيرهم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي: أرسلنا بعدَهم رسولاً بعد رسولٍ. وأصلُ التقفية: جَعْلُ الشيء خلف القَفَا، وضميرُ «آثارهم» لنوح وإبراهيم ومَن أُرسِلا إليهم مِن قومهما.

وقيل: لمن عاصَرَهما من الرسل عليهم السلام. واعترض بأنَّه لو عاصر رسولٌ نوحاً، فإما أنْ يُرسَل إلى قومه، كهارون مع موسى عليهما السلام، أو إلى غيرهم، كلوط مع إبراهيم عليهما السلام، ولا مجالَ للأول لمخالفته للواقع، ولا إلى الثاني إذ ليس على الأرض قومٌ غيره. وأُجيبَ بأنَّ ذاك توجيهٌ لجمع الضمير، وكونُ لوطٍ مع إبراهيم كافٍ فيه.

وقيل: للذرية. وفيه أنَّ الرسُلَ المقفَّى بهم من الذرية، فلو عاد الضميرُ عليهم لزم أنَّهم غيرُهم، أو اتحادُ المقفَّى والمقفَّى به، وتخصيصُ الذرية مرجعِ الضمير بالأوائل منهم خلافُ الظاهر من غير قرينةٍ تدلُّ عليه.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ جعلناه بعد، وحاصلُ المعنى: أرسلنا رسولاً بعد

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٣، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٦-١٣٧.

رسولٍ حتى انتهى الإرسالُ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ بأنْ أوحيناه إليه، وليس هو الذي بين أيدي النصارى اليوم، أعني المشتمل على قصة ولادتِهِ، وقصة صَلْبه المفتراة.

وقرأ الحسنُ: «الأنجيل» بفتح الهمزة[1]، قال أبو الفتح: وهو مثالٌ لا نظيرَ له[2]. قال الزمخشري[3]: وأمرُه أهونُ من أمر «البَرْطيل» ـ بفتح الباء والكسرُ أشهرُ، وهو حجرٌ مستطيل، واستعمالُه في الرشوة مولَّد مأخوذٌ منه بنوع تجوُّزٍ ـ لأنَّه عجمي وهذا عربي[4]، وهم يتلاعبون بالعجمي ولا يلتزمون فيه أوزانهم.

وزعم بعضٌ أنَّ لفظ «الإنجيل» عربيٌّ من نَجِلْتُ بمعنى استخرجتُ، لاستخراج الأحكام منه.

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: خلَقْنا، أو: صيَّرنا، فـ «في قلوب» في موضع المفعول الثاني، وأيَّاما كان فالمرادُ: جعلنا ذلك في قلوبهم فهم يرأفُ بعضُهم ببعض ويرحمُ بعضُهم بعضاً، ونظيرُه في شأن أصحابِ النبي ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والرأفة في المشهور الرحمةُ، وقال بعضُ الأفاضل: إنها إذا ذُكرَت معها يُراد بالرأفة ما فيه دَرْءُ الشرِّ ورأبُ الصدع، وبالرحمة ما فيه جَلبُ الخير، ولذا ترى في الأغلب تقديمَ الرأفةِ على الرحمة، وذلك لأنَّ دَرْءَ المفاسد أهمُّ من جلب المصالح. وقرئ: «رآفة» على فعالة كشجاعة[5].

---

(١) المحتسب ٢/ ٣١٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٨.

(٢) المحتسب ٢/ ٣١٣.

(٣) في الكشاف ٤/ ٦٧، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٨/ ١٦٣.

(٤) يعني أن البِرطيل بكسر الباء عربي، ففتح فائه ـ أي: الباء ـ إذا سمع فيه غيرُ هَيِّنٍ؛ لأن فَعْليلاً بالفتح ليس من أبنية العرب، فالعدول فيه عن سَنَنِ ألفاظهم غير سهل، بخلاف إنجيل فإنه أعجمي على الصحيح المشهور، فالعدول فيه عن أوزانهم سهل. حاشية الشهاب ٨/ ١٦٣.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٢٢٨.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوبٌ بفعل مضمَر يُفسِّره الظاهرُ، أي: وابتدعوا رهبانيةً ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ فهو من باب الاشتغال.

واعترض بأنَّه يُشترَط فيه ـ كما قال ابن الشجري وأبو حيان[1] ـ أن يكونَ الاسمُ السابقُ مختصًّا يجوزُ وقوعُه مبتدأً، والمذكور نكرة لا مسوِّغَ لها من مسوِّغات الابتداء.

ورُدَّ بأنَّه على فرض تسليمِ هذا الشرطِ الاسمُ هنا موصوفٌ معنًى بما يُؤخَذ من تنوين التعظيم، كما قيل في قولهم: شَرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ[2]. ومما يدلُّ عليه من النسبة كما ستسمعه إن شاء الله تعالى.

أو منصوب بالعطف على ما قبل، وجملة «ابتدعوها» في موضع الصفة، والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: وجعلنا في قلوبهم رأفةً ورحمةً وحبَّ رهبانيةٍ مُبتَدَعةٍ لهم.

وبعضُهم جعله معطوفاً على ما ذكر ولم يتعرَّض للحذف، وقال: الرَّهبانيةُ من أفعال العباد؛ لأنَّها المبالغةُ في العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس، وأصلُ معناها: الفعلةُ المنسوبة إلى الرَّهْبَان وهو الخائفُ، فَعْلان مِن: رَهِب، ك: خَشْيَان من خَشِي، وأفعالُ العباد يتعلَّق بها جَعْلُ الله تعالى عند أهل الحقِّ، وهي في عين كونها مخلوقةً له تعالى مكتسبةً للعبد.

والزمخشريُّ جوَّز العطفَ المذكور وفسَّر الجعل بالتوفيق، كأنَّه قيل: وفَّقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرَّهبانية واستحداثها[3]، بناءً على مذهبه أنَّ الرهبانيةَ فعلُ العبد المخلوق له باختياره، وفائدة «في قلوب» على هذا التصويرُ على ما قيل.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٨ وكلامه عن ابن الشجري نقله المصنف عن حاشية الشهاب ٨/ ١٦٣.

(٢) مثل يضرب في ظهور أمارات الشر ومخايله، أهرَّه: إذا حمله على الهَرِير، والهريرُ: صوت الكلب دون نباحه من قلة صبره على البرد. مجمع الأمثال ١/ ٣٧٠، والقاموس المحيط (هرَّ).

(٣) الكشاف ٤/ ٦٨.

ولا يخفى ما في هذا التفسير من العدول عن الظاهر، لكن الإنصاف أنَّه لا يحسُنُ العطفُ بدون هذا التأويل، أو اعتبارِ حذفِ المضاف وإقامة المضاف إليه مقامَه على ما تقدَّم، أو تفسير الرهبانية بما هو من أفعال القلوبِ كالخوف المفرِط المقتضي للغلوِّ في التعبُّد، ويُرتكب نوعُ تجوُّز في «ابتدعوها» وما بعدَه، كأنْ يكونَ المرادُ ابتداعَ أعمالها وآثارِها، أو ارتكاب استخدامٍ[1] في الكلام بأنْ يُعتبَرَ للرَّهبانية معنيان: الخوفُ المفرط مثلاً ويراد في «جعلنا في قلوبهم رهبانيةً»، والأعمالُ التعبدية الشاقَّة كرفْضِ الدنيا وشهواتها من النساء وغيرِهنَّ، ويُراد في «ابتدعوها» وما بعدَه، وليس الداعي للتأويل الاعتزالُ، بل كون الرهبانية بمعنى الأعمال البدنية ليسَت مما تُجعَل في القلب كالرأفة والرحمة فتأمل.

وقرئ: «رُهبانية» بضم الراء[2]، وهي منسوبةٌ إلى الرُّهبان بالضم، وهو كما قال الراغب[3]: يكونُ واحداً وجمعاً، فالنسبة إليه باعتبار كونه واحداً. ومَن ظنَّ اختصاصَ المضموم بالجمع قال: إنَّه لمَّا اختصَّ بطائفة مخصوصةٍ أُعطي حُكم العَلَم، فنِسْبتُه إليه كما قالوا في أنصار وأنصاري، أو أنَّ النسبةَ إلى رَهبان المفتوح، وضَمُّ الراء في المنسوب من تغييرات النَّسَب كما في دُهْري بضم الدال.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ منقطع، أي: ما فرضناها نحن عليهم رأساً ولكنَّهم[4] ابتدَعُوها وألزموا أنفسَهم بها ابتغاءَ رضوان الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما حافظوا عليها حقَّ المحافظة، ذمٌّ لهم من حيث إنَّ ذلك كالنَّذر، وهو عهدٌ مع الله تعالى يجب رعايتُه لا سيما إذا قُصِد به رضاه عز وجل. واستُدلَّ بذلك على أنَّ مَن اعتاد تطوُّعاً كُره له تركُه.

---

(١) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٨.

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (رهب).

(٤) في (م): ولكن.

وجوّز أنْ يكون قولُه تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾ إلخ صفةً أخرى لـ «رهبانية» والنفي متوجِّهٌ إلى قيد الفعل لا نفسه، كما في الوجه الأول، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ إلخ استثناءٌ متصلٌ من أعمِّ العلل، أي: ما قضيناها عليهم بأنْ جعلناهم يبتدعونها لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوانَ الله تعالى ويَستحِقُّوا بها الثواب، ومن ضرورة ذلك أنْ يحافظوا عليها ويُراعوها حقَّ رعايتها، فما رَعَوها[1] كذلك.

والوجهُ الأول مرويٌّ عن قتادة وجماعة، وهذا مرويٌّ عن مجاهد، ولا مخالفةَ عليه بين «ابتدعوها» و«ما كتبناها عليهم» إلخ - حيثُ إنَّ الأولَ يقتضي أنَّهم لم يُؤمَروا بها أصلاً، والثاني يقتضي أنَّهم أُمِروا بها لابتغاء رضوان الله تعالى - لِمَا أشرنا إليه من معنى «ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء» إلخ.

ودفع بعضُهم المخالفةَ بأنْ يقال: الأمرُ وقَعَ بعد ابتداعها، أو يُؤوَّل «ابتدعوها» بأنَّهم أولُ مَن فعلها بعد الأمر، ويؤيِّد ما ذكره في الدفع أولاً ما أخرجه أبو داود وأبو يعلى والضياء عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تُشدِّدُوا على أنفسِكم فيُشَدَّدَ عليكم، فإنَّ قوماً شدَّدُوا على أنفسِهم فشُدِّدَ عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامعِ والدِّيَارَات ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾»[2] يعني الآية.

والظاهرُ أنَّ ضميرَ «فما رَعَوها» لأولئك الذين ابتدعوا الرَّهبانيةَ، والمراد نفيُ وقوعِ الرعاية من كلِّهم، على أنَّ المعنى: فما رعاها كلُّهم بل بعضُهم، وليس المرادُ بالموصول فيما سبق أشخاصاً بأعيانهم، بل المراد به ما يعمُّ النصارى إلى زمان الإسلام، ولا يضرُّ في ذلك أنَّ أصل الابتداع كان من قومٍ مخصوصين؛ لأنَّ إسنادَه على نحو الإسناد في: بنو تميم قتلوا زيداً، والقاتلُ بعضُهم.

وقال الضحاك وغيره: الضمير في «فما رعوها» للأخلاف الذين جاؤوا بعد المبتدعين. والأول أوفقُ بالصناعة.

---

(١) في الأصل: راعوها.

(٢) سنن أبي داود (٤٩٠٤)، ومسند أبي يعلى (٣٦٩٤)، والأحاديث المختارة ٦/ ١٧٣-١٧٤ (٢١٧٨).

والمراد بالذين آمنوا في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾: الذين آمنوا إيماناً صحيحاً، وهو لمن أدركَ وقتَ النبيِّ ﷺ الإيمان به عليه الصلاة والسلام، أي: فآتينا الذين آمنوا منهم إيماناً صحيحاً بعد رعاية رهبانيتهم ﴿أَجْرَهُمْ﴾ أي: ما يختصُّ بهم من الأجر، وهو الأجرُ على ما سلَفَ منهم، والأجر على الإيمان به عليه الصلاة والسلام، وليس المرادُ بهم الذين بَقوا على رعاية الرهبانية إلى زمان البعثة ولم يؤمنوا؛ لأنَّ رعايتها لَغْوٌ محضٌ وكفرٌ بَحْتٌ، وإنما لها استتباعُ الأجر.

ويجوز أنْ يقال: إنَّ الذين لم يَرعَوا الرهبانيةَ حقَّ رعايتها هم الذين كذبوه عليه الصلاة والسلام، قال الزجَّاج: قوله تعالى: (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) على ضربَين: أحدُهما أنْ يكونوا قصَّروا فيما ألزمُوه أنفسَهم، والآخرُ ـ وهو الأجودُ ـ أنْ يكونوا حينَ بُعِثَ النبيُّ ﷺ ولم يؤمنوا، فكانوا تاركين لطاعةِ الله تعالى، فما رَعَوا تلك الرهبانية، ودليل ذلك قوله تعالى: (فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ) إلخ[1]. انتهى، فحَمَل «الذين آمنوا» على مَن أدرك وقتَه عليه الصلاة والسلام منهم وآمن به ﷺ، والفاسقين في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ على الذين لم يؤمنوا به ﷺ، ومقتضَى حمل «الذين آمنوا» على ما سمعتَ أولاً حَمْلُه على الأعمِّ الشامل لمن خرَجَ عن اتِّباع عيسى عليه السلام من قبل.

وحملُ الفريقَين على مَن مضى مِن المُراعِين لحقوق الرهبانيةِ قبل النَّسخ، والمخلِّين بها إذ ذاك بالتثليث والقولِ بالاتحاد وقصد السمعة ونحو ذلك، من غير تعرُّضٍ لإيمانهم برسول الله ﷺ وكفرِهم به = مما لا يُساعدُه المقام.

وفي الآثار ما يأباه ففي حديث طويل أخرجه جماعةٌ منهم الحاكم وصححه والبيهقي في «شعب الإيمان» من طرق عن ابن مسعود: «اختلفَ مَن كان قبلَنا على ثنتَين وسبعين فرقةً، نجا منه ثلاثٌ وهلك سائرُها، فرقة آزتِ الملوك[2] وقاتلتهم

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣٠.

(٢) أي: قاومتهم، يقال: فلان إزاءٌ لفلان: إذا كان مقاوماً له. تهذيب اللغة ١٣/ ١٩٤، والنهاية واللسان (أزي)، ووقع في الأصل و(م): وازت.

على دين الله وعيسى ابن مريم، وفرقة لم تكن لهم طاقةٌ بموازاة الملوك، فأقاموا بين ظهرَانَي قومهم فدعَوهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلَهم الملوك ونشَرَتهم بالمناشر، وفرقةٌ لم تكن لهم طاقةٌ بموازاة الملوكِ ولا بالمقام معهم، فساحوا في الجبال وترهَّبوا فيها، وهم الذين قال الله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الذين جَحَدوا بي وكفروا بي»[1]، وهذا الخبرُ يؤيِّدُ ما استجودَه الزجَّاجُ، ويُعلم منه أيضاً سببُ ابتداع الرهبانية.

وليس في الآية ما يدلُّ على ذمِّ البدعة مطلقاً، والذي تدلُّ عليه ظاهراً ذمُّ عدم رعاية ما التزموه، وتفصيل الكلام في البدعة ما ذكره الإمام محيي الدين النووي في «شرح صحيح مسلم»: قال العلماء: البدعة خمسةُ أقسامٍ: واجبة ومندوبة ومحرمة ومكروهة ومباحة؛ فمن الواجبة تعلُّمُ أدلة المتكلِّمين للردِّ على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك، ومن المندوبة تصنيفُ كتب العلم وبناءُ المدارس والربطِ وغير ذلك، ومن المباحة التبسُّط[2] في ألوان الأطعمة وغيرِ ذلك، والحرام والمكروه ظاهران، فعُلِمَ أنَّ قولَه ﷺ: «كلُّ بدعةٍ ضلالة» من العامِّ المخصوص[3].

وقال صاحب «جامع الأصول»: الابتداعُ من المخلوقين إنْ كان في خلاف ما أمرَ الله تعالى به ورسولُه ﷺ فهو في حَيِّز الذمِّ والإنكار، وإن كان واقعاً تحت عمومِ ما ندَب الله تعالى إليه وحضَّ عليه أو رسوله ﷺ فهو في حيِّز المدحِ، وإن لم

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٨٠، وشعب الإيمان (٩٥١٠)، وأخرجه المروزي في السنة (٥٤)، والطبري ٢٢/ ٤٣٠-٤٣١، والطبراني (١٠٥٣١)، وفيه عقيل بن يحيى الجعدي، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٨٨: قال البخاري: منكر الحديث يروي عن أبي إسحاق، وتكلم فيه ابن حبان. وأخرجه الطبراني (١٠٣٥٨) من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله مرفوعاً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٠-٢٦١: رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير بكير بن معروف وثقه أحمد وغيره وفيه ضعف.

(٢) في الأصل: والتبسط.

(٣) شرح مسلم ٦/ ١٥٤-١٥٥. والحديث أخرجه أحمد (١٧١٤٤) من حديث العرباض بن سارية ﷺ، ومسلم (٨٦٧) من حديث جابر ﷺ.

يكن مثاله موجوداً كنوع من الجود والسخاءِ وفعلِ المعروف، ويعضد ذلك قولُ عمر بن الخطاب ﷺ في صلاة التراويح: نِعمَت البدعةُ هذه[١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استظهر أبو حيان[٢] كونَ الخطابِ لمن آمن من أُمَّته ﷺ غير أهل الكتاب، والآثار تُؤيِّد ذلك، أخرج الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس، وابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جبير، قالا: إنَّ أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبيِّ ﷺ، فشهدوا معه أُحُداً، فكانت فيهم جراحاتٌ، ولم يُقتَل منهم أحدٌ، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا: يا رسول الله إنَّا أهلُ ميسرةٍ فَأْذن لنا نجئ بأموالنا نواسي بها المسلمين. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص:٥٢-٥٣-٥٤] فجعل لهم أجرَين، فلمَّا نزلَت هذه الآية قالوا: يا معشرَ المسلمين أمَّا مَن آمن منَّا بكتابكم فله أجران، ومَن لم يُؤمن بكتابكم فله أجرٌ كأجوركم. فأنزل الله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) الآية[٣]، أي: رادًّا عليهم قولهم: ومَن لم يؤمن بكتابكم فله أجرٌ كأجوركم.

وفي «الكشاف»[٤]: إنَّ قائل ذلك مَن لم يكن آمن من أهل الكتاب، قالوه حين سمِعُوا تلك الآية يفخرون به على المسلمين، والمعنى: يا أيُّها الذين اتَّصفوا بالإيمان ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اثبُتُوا على تقواهُ عز وجل فيما نهاكم عنه ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ واثبُتُوا على الإيمان برسوله الذي أرسله إليكم، وهو محمد ﷺ، وفي التعبير عنه بذلك ما لا يخفَى من الدلالة على جلالة قَدْره عليه الصلاة والسلام.

---

(١) جامع الأصول: ١/ ٢٨٠-٢٨١.

(٢) في البحر المحيط ٨/ ٢٢٩.

(٣) المعجم الأوسط (٧٦٦٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢١: وفيه من لم أعرفه. وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٨، وزاد: فزادهم النور والمغفرة، وقال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

(٤) ٤/ ٦٨.

﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾ بسبب ذلك ﴿كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ قال أبو موسى الأشعري: ضعفَين بلسان الحبشة. وقال غيرُ واحد: نصيبَين، والمرادُ إيتاؤهم أجرَين كمؤمني أهل الكتاب، كأنَّه قيل: يؤتكم ما وَعَد مَن آمن من أهل الكتاب من الأجرَين لأنَّكم مثلُهم في الإيمان بالرسل المتقدِّمين وبخاتَمهم صلى الله تعالى وسلم عليهم أجمعين، لا تُفرِّقون بين أحدٍ من رسله.

وقال الراغب: الكِفلُ الحظُّ الذي فيه الكِفايةُ، كأنَّه تَكفَّل بأمره، والكِفلان هما المرغوب فيهما بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾[1] [البقرة:٢٠١] ولا دلالة على التخصيص.

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ يوم القيامة، وهو النور المذكورُ في قوله تعالى: «يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم» ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ما سلَفَ منكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: مبالغٌ في المغفرة والرحمة، فلا بِدعَ إذا فعل سبحانه ما فعل.

وقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِۙ﴾ قيل: متعلِّقٌ بمضمون الجملة الطلبية المتضمِّنةِ لمعنى الشرط؛ إذ التقدير: إنْ تتَّقوا الله وتُؤمنوا برسوله يُؤتِكم كذا وكذا لئلا.. إلخ، وقيل: متعلِّقٌ بالأفعال الثلاثة قبله على التنازع، أو بمقدَّرٍ كـ: فَعَل ذلك، وأعلمهم، ونحوه. و«لا» مزيدة مثلُها في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف:١٢] ويجوز زيادتُها مع القرينة كثيراً، و«أنْ» مخففة من الثقيلة واسمُها المحذوف ضميرُ أهل الكتاب، أي: أنَّهم، وقيل: ضميرُ الشأن، وما بعد خبرُها، والجملةُ في حيِّز النصب على أنَّها مفعول «يعلم»، أي: ليَعلمَ أهلُ الكتاب القائلون: مَن آمن بكتابكم منَّا فله أجران، ومَن لم يؤمن بكتابكم فله أجرٌ كأجوركم، أنَّهم لا ينالون شيئاً من فضل الله من الأجرَين وغيرِهما، ولا يتمكَّنون مِن نَيْله ما لم يؤمنوا بمحمد ﷺ. وحاصلُه الإعلامُ بأنَّ إيمانهم بنبيِّهم لا ينفعُهم شيئاً ما لم يؤمنوا بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، فقولُهم: مَن لم يؤمن بكتابكم فله أجرٌ، باطلٌ.

---

(١) مفردات الراغب (كفل).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بنِ حيان قال: لما نزلت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ فخَرَ مؤمنو أهلِ الكتاب على أصحاب النبيِّ ﷺ فقالوا: لنا أجران ولكم أجرٌ، فاشتدَّ ذلك على أصحابه عليه الصلاة والسلام، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلخ فجعل لهم سبحانه أجرَين مثل ما لمؤمني أهل الكتاب[1]. وقال الثعلبي: فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية فجعل لهم أجرَين وزادَهم النور ثم قال سبحانه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ إلخ[2]، وحاصلُه على هذا: ليعلموا أنَّهم ليسوا مُلَّاكَ فضله عز وجل، فيَزْوُوْهُ عن المؤمنين، ويَستبدُّوا به دونَهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ عطف على «أنْ لا يقدرون» داخلٌ معه في حيِّز العلم.

وقوله سبحانه: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «أنَّ»، أو هو الخبرُ وما قبله على ما قيل: حالٌ لازمةٌ، أو استئنافٌ.

وقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

وذهب بعضٌ إلى أنَّ الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب اليهودِ والنصارى، أو لمن لم يؤمن منهم بعدُ، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد ﷺ، أي: اثبُتوا على الإيمان به، أو أحدِثوا الإيمانَ به عليه الصلاة والسلام، يؤتكم نصيبَين من رحمته: نصيباً على إيمانكم بمن آمنتُم به أولاً، ونصيباً على إيمانكم بمحمد ﷺ آخِراً، ليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتابِ أنَّهم لا ينالون شيئاً مما ينالُه المؤمنون منهم، ولا يتمكَّنون من نَيله حيثُ لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمان برسوله ﷺ. وأُيِّد ذلك بما في «صحيح البخاري»: «مَن كانت له أَمَةٌ علَّمها فأحسَنَ تعليمَها، وأدَّبها فأحسَنَ تأديبَها، وأعتقَها وتزوَّجها، فله أجران، وأيُّما رجلٍ مِن أهل الكتابِ آمَنَ بنبيِّه وآمن بي فله أجرانِ، وأيُّما مملوكٍ أدَّى حقَّ الله

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٨.
(٢) تفسير الثعلبي ٩/ ٢٥٠.

تعالى وحقَّ مواليه فله أجران»(١)، ولا إشكال في ذلك بالنسبة إلى النصارى، ولذا قيل: الخطابُ لهم لأنَّ ملَّتهم غيرُ منسوخةٍ قبل ظهور الملةِ المحمدية ومعرفتهم بها، فيثابُون على العمل بها حتى يجبَ عليهم الإيمانُ بالنبيِّ ﷺ، فإذا آمنوا أُثِيبُوا أيضاً فكان لهم ثوابان.

نعم قد يُستَشكلُ بالنسبة إلى غيرهم؛ لأنَّ مِلَلَهم منسوخةٌ بملَّة عيسى عليه السلام، والمنسوخُ لا ثوابَ في العمل به، ويجابُ بأنه لا يَبعدُ أنْ يُثابوا على العمل بملَّتهم السابقة ـ وإنْ كانت منسوخةً ـ ببركة الإسلام.

وأجاب بعضُهم: أنَّ الإثابةَ على نفس إيمان ذلك الكتابي بنبيِّه وإن كان منسوخَ الشريعة، فإنَّ الإيمان بكلِّ نبيٍّ فرضٌ، سواء كان منسوخَ الشريعة أم لا.

وقيل: إنَّ «لا» في «لأن لا يعلم» غيرُ مزيدةٍ، وضمير «لا يقدرون» للنبيِّ ﷺ والمؤمنين، أي: فعلنا ما فعلنا لئلَّا يعتقدَ أهلُ الكتاب أنَّ الشأن لا يقدِرُ النبيُّ ﷺ والمؤمنون به على شيء من فضل الله تعالى، الذي هو عبارةٌ عما أُوتُوه من سعادة الدارَين ولا ينالونه، أو أنَّهم ـ أي: النبيُّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنون ـ لا يقدرون.. إلخ، على أنَّ عدم عِلْمهم بعدم قدرتهم على ذلك كنايةٌ عن علمهم بقدرتهم عليه، فيكون قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ إلخ معطوفاً على «أن لا يعلم» داخلاً معه في حيِّز التعليل دون «أن لا يقدر»، فكأنه قيل: فعلنا ما فعلنا لئلا يعتقدوا كذا؛ ولأنَّ الفضل بيد الله، فيكونُ من عَطْف الغايةِ على الغاية بناءً على المشهور.

ولتكلُّف هذا القيل مع مخالفته لبعض القراءات لم يذهب إليه معظمُ المفسرين.

وقرأ حِطَّان(٢) بن عبد الله: «لأنْ لا يعلم» بالإظهار(٣). وعبد الله بن مسعود

---

(١) صحيح البخاري (٩٧) و(٣٠١١) و(٣٤٤٦)، وأخرجه أيضاً مسلم (١٥٤)، وهو من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٨/ ٢٢٩: خطاب، والصواب ما أثبتناه، وهو حطان بن عبد الله الرقاشي، ـ ويقال: السدوسي ـ البصري، قرأ القرآن على أبي موسى الأشعري ﷺ، وقرأ عليه الحسن البصري، توفي سنة نيف وسبعين. معرفة القراء الكبار ١/ ١٣٧.

(٣) البحر ٨/ ٢٢٩، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧١: «لأي =

وابن عباس وعكرمة والجحدري وعبد الله بن سلمة على اختلاف: «ليعلم»[1]، وقرأ الجحدري أيضاً: «وليَيَّعلم»[2] على أنَّ أصله: لئن يعلم، فقُلِبَت الهمزةُ ياءً لكسرة ما قبلها، وأدغمَت النون في الياء بغير غنَّة.

وروى ابن مجاهد عن الحسن: «لَيْلَا» مثل ليلى اسم المرأة «يعلمُ» بالرفع[3]، ووُجِّه بأنَّ أصلَه: لَأنْ لا، بفتح لام الجرِّ وهي لغة، وعليه قوله:

أُريدُ لَأنْسى ذكرَها فكأنَّما تَمَثَّلُ ليْ ليلى بكلِّ سبيلِ[4]

فحذِفَت الهمزةُ اعتباطاً وأُدغِمَت النون في اللام فصار: لَلَّا، فاجتمعَت الأمثالُ وثَقُل النطقُ بها، فأبدلوا من اللام المدغمة ياءً نظير ما فعلوا في قيراط ودينار، حيث أنَّ الأصل: قِرَّاط ودِنَّار، فأبدلوا أحدَ المثلَين فيهما ياءً للتخفيف فصار: «لَيْلَا»، ورفع الفعل لأنَّ «أَنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة لا الناصبة للمضارع.

وروى قطرب عن الحسن أيضاً: «لِيْلَا» بكسر اللام[5]، ووَجْهُه كالذي قبله إلا أنَّ كسر اللام على اللغة الشهيرة في لام الجرِّ.

وعن ابن عباس: «كي يعلم»، وعنه أيضاً: «لكيلا يعلم»[6]. وعن عبد الله وابن جبير وعكرمة: «لكي يعلم»[7].

---

= يعلم»، وفي تفسير القرطبي ٢٠/٢٧٨، والدر المصون ١٠/٢٥٩: «لأن يعلم».

(١) القراءات الشاذة ص١٥٣، والقرطبي ٢٠/٢٧٩، والبحر المحيط ٨/٢٢٩.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وهي من القراءات الشاذة ص١٥٣: «لي يعلم»، والبحر ٨/٢٢٩: «لينيعلم»، والدر المصون ١٠/٢٥٩: «لينَّعلم»، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/٦٨ بلفظ: «لين يعلم» دون نسبة وقال: بإدغام النون في الياء.

(٣) البحر المحيط ٨/٢٢٩.

(٤) البيت لكُثيِّر عزة، وهو في ديوانه ص٢٧٦، وسلف ٧/٨٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٣، والمحتسب ٢/٣١٣، والمحرر الوجيز ٥/٣٧١، والبحر ٨/٢٢٩.

(٦) القراءتان في المحرر الوجيز ٥/٢٧١، والبحر ٨/٢٢٩.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/١٣٧، والمحرر الوجيز ٥/٣٧١، والبحر المحيط ٨/٢٢٩.

وقرأ عبد الله: «أن لا يقدروا» بحذف النون[1]، على أنَّ «أنْ» هي الناصبة للمضارع، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما ذكره المتصوفة قُدِّسَت أسرارهم في بعض آياتها: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ قالوا: هو إشارةٌ إلى وحدانية ذاته سبحانه المحيطةِ بالكلِّ.

وقالوا: في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم لا وجودَ لهم في جميع مراتبهم بدون وجودِه عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ إشارةٌ إلى ظهور تجلِّي الجلال في تجلِّي الجمال، وبالعكس.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ إشارةٌ للمشايخ الكاملين إلى تربية المريدين بإفاضة ما يقوِّي استعدادَهم مما جعلَهم الله تعالى متمكِّنين فيه من الأحوال والملكات.

وقال سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ لئلا يقنَط القاسي من رحمته تعالى، ويترُكَ الاشتغالَ بمداواة القلب الميت.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أوردها الصوفية في باب الرعاية، وقسموها إلى رعاية الأعمال والأحوال والأوقات، ويرجِعُ ما قالوه فيها ـ على ما قيل ـ إلى حفظها عن إيقاع[2] خللٍ فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: نصيبَين، نصيباً من معارف الصفاتِ الفعلية، ونصيباً من معارف الصفات الذاتية ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ من نور ذاته عز وجل، وهو ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى البقاء بعد الفناء، وقيل: هذا النور إشارةٌ إلى نور الكشف والمشاهدة، رتَّبَ سبحانه جعلَه للمؤمن على تقواه وإيمانِهِ برسوله الأعظم ﷺ.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧١، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٩.

(٢) في الأصل: اتباع.

وقيل: هو نورُ العلم النافع الذي يتمكّن معه من السير في الحضرات الإلهية كما يُشِير إليه وصفه بقوله عز وجل: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾؛ وفي بعض الآثار: مَن عمل بما علم علَّمه الله تعالى عِلْمَ ما لم يعلَم[1]. وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وكلُّ ذلك في الحقيقة فضلُ الله تعالى والله عز وجل ذو الفضل العظيم، نسألُه سبحانه أنْ لا يحرِمَنا من فضله العظيم ولُطفِه العميم، وأنْ يُثبِّتَنا على متابعة حبيبه الكريم عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التسليم.

(١) سلف ١/١٠٦.